عمر طاهر

صنايعية مصر

الكتاب الثاني

أعمال عمر طاهر

الصادرة عن دار الكرمة

بعد ما يناموا العيال (قصص)

من علّم عبد الناصر شُرب السجائر؟

كحل وحبهان (رواية)

كتاب المواصلات: حكايات شخصية لقتل الوقت

صنايعية مصر: مشاهد من حياة بعض بناة مصر في العصر الحديث

إذاعة الأغاني: سيرة شخصية للغناء

أثر النبي: قصص قصيرة من وحي السيرة

ألبومات عمر طاهر الساخرة (طبعة جديدة منقحة ومجمعة من «شكلها باظت» و«كابتن مصر» و«زملكاوي»

و«ابن عبد الحميد الترزي» و«رصف مصر»)

نظرية برما (طبعة جديدة منقحة ومجمعة من «برما يقابل ريا وسكينة» و«الكلاب لا تأكل الشيكولاتة»)

جر ناعم

إهداء

هناك أشخاص ساهموا في رسم ملامح هذا البلد،وتاريخ حياة سكانه، دون أن يحصلوا على نصيبهم

من الضوء والمحبة والاعتراف بالفضل.

هنا ما تيسّر من سيرة بعضهم.

الفصل الأول

محمود سعد الدين الطاهري
صنايعي التكييف ومبردات كولدير

(1)

كيف أغفلت سيرة المهندس الطاهري مؤسس صناعة التكييف في مصر، ابن المنصورة الذي باع كل ما يملك وبنى أول مصنع تبريد في مصر، والذي اشتهر بعد ذلك باسم «كولدير ـ شركة النصر للهندسة والتبريد»؟

عدد الكلمات الواردة في هذا الإيميل الذي استلمته عقب نشر الجزء الأول من «صنايعية مصر»، التي تصلح كمفاتيح للبحث، لا يزيد على ثلاث: «الطاهري ـ كولدير ـ المنصورة».

محاولة الإمساك بمفاتيح للبحث جاءت بعد أن يئست من استلام أي رد على إيميلات ظللت لشهور أرسلها إلى صاحب هذه الرسالة طمعًا في أي معلومات أخرى.

لا علاقة بين شركة النصر للهندسة والتبريد، والطاهري كمؤسس للكيان يرد اسمه في الأرشيف على استحياء. لم يعد مالكًا للشركة التي انتقلت ملكيتها للدولة ثم دُفنت جذور شجرة العائلة في غابة الموظفين.

طلبت من أحد الأصدقاء الراسخين في المنصورة وتاريخها

أن يفتش عن اسم الطاهري. حكيت له عن الأثر الذي تركه الرجل في حياة المصريين، أجهزة التكييف ومبردات المياه التي تحمل اسم مصنعه «كولدير»، الذي صار الاسم الشعبي لأي مبرد مياه فيما بعد، خاصة المنتشرة كسبيل لوجه الله في كل مصر (قال صديقي ساخرًا: «لوجه الله؟! نصفهم سارقين ميه وكهربا»).

بعد شهر قال إنه لم يجد ما قد يساعدني، صادفَته فقط أسطورة ـ على حدِّ تعبيره ـ عن شخص اسمه الطاهري، كان يحضر بطائرته الخاصة من القاهرة في الخمسينيات لزيارة أسرته في ريف المنصورة ويعود ليلًا. سألته هل يوجد في تاريخ المدينة أي ذكر لمهبط طائرات؟ قال: «لا، لذلك اعتبرتها أسطورة».

تتبعت اسم العائلة في صفحات النعي، عثرت على عدة أسماء تنتهي بلقب الطاهري، خضت مغامرة أن أتصل بمن أعثر على وسيلة اتصال به، أقدم نفسي ثم أحدثه عن الشخص الذي أفتش عنه.

بعد عدة محاولات عثرت على واحد، من أقارب الدرجة الأولى، وافق على أن نتقابل ويحكي، لكن بشرط وحيد.

(2)

هرب محمود سعد الدين الطاهري من الخضوع لراحة المعيشة في نعيم ألفي فدان يمتلكها والده، سافر إلى إنجلترا، وعاد مع بداية الأربعينيات يحمل شهادة في هندسة الميكانيكا من جامعة نيوكاسل، التحق فور عودته بالعمل في شركة توكيلات تجارية بدأت للتوّ بيزنس تسويق منتجات تكييف «كاريير» في مصر، تلقى العلم والخبرة ثم أعاد ترتيب أوراقه، سافر إلى أمريكا، وأرسل لزوجته مع نهاية عام 1947 خطابًا من سطرين، في الأول يبث الأسرة أشواقه، ويخبرها في الثاني أنه اشترى مستلزمات مصنع أجهزة التبريد والتكييف الذي قرر أن يفتتحه في مصر.

بدأ العمل بورشة صغيرة في منطقة رملة بولاق لصناعة أبراج التبريد، ثم عثر على قطعة أرض في جزيرة الدهب فاختارها مقرًّا لمصنع «كولدير»، بدأ بتصنيع ثلاجات التبريد الضخمة التي تصلح لمحلات البقالة، ثم الثلاجات التي تُستخدم كمستودعات في الميناء، ثم بدأ في إنتاج المراوح. كانت خطوات النجاح واسعة في هذه المنطقة، لكنه كان مشغولًا بفكرة التكييف، ولديه أفكار أكبر من مجرد تسويق أجهزة، شغلته فكرة الاعتماد على خامات محلية بالكامل، والقدرة على تنفيذ أبراج تبريد بدون حشو تقاوم كمية الغبار والأتربة التي تسيطر على البيئة في مصر، وأن يفتح لنفسه سوقًا في الدول العربية.

ثم جاءت الخطوة المهمة عندما أُسند إليه تكييف قاعة سينما «مترو». كان صعبًا أن يعثر المشروع على انطلاقة أفضل وأرقى من أن يزين اسمه جدران قطعة فنية شكلًا ومضمونًا؛ صممها المهندس المصري العالمي ماكس أذرعي، سينما تعزف السلام الملكي، ثم الجمهوري لاحقًا، قبل عرض الأفلام، وفي الاستراحة يصعد عازف البيانو على المسرح ليقدم فقرة للجمهور، معزوفات عالمية تتخلل حفلات السينما التي لا تعرض إلا الأفلام الأمريكية حتى عام 1960، وتتولى مسؤولية عرض أفلام شركة «مترو جولدوين ماير» العالمية في المنطقة.

أصبحت «مترو» بفضل الطاهري السينما الأولى في مصر التي يوضع على أبوابها وإعلاناتها لافتة «مكيفة الهواء». اختلط حديث الروّاد عن جمال الأفلام وجمال النجمات وجاذبية الاستعراضات بالكلام عن نسمة الهواء المنعشة التي تلمس القلب.

بعدها تولى مهمة تبريد فندق هيلتون في بداية الخمسينيات، ثم أصبح الجهة المعتمدة في تكييف معظم الفنادق ودور العرض، طلبته دول الخليج كما كان يحلم، كانت البداية في مناقصة لتكييف أحد مطارات السعودية الجديدة. لم يكن الأمر سهلًا، وقع في منافسة مع شركة

«كاريير» العالمية، وكان المكتب الاستشاري المشرف على المشروع سويدي الجنسية، لكنه في النهاية اعتمد المكيفات صناعة «كولدير»، بعدها طلبته الكويت ثم لبنان.

في مصر استقر اسم «كولدير» فوق منشآت لا حصر لها تولت مسؤولية تكييفها مركزيًا: فندق «ونتر بالاس» الأقصر، فندق «فلسطين» الإسكندرية، مسرح الجمهورية، سينما «ريفولي»، بنك الدم، مصنع الغزل والنسيج في المحلة، قبة جامعة القاهرة، مخازن وزارة الزراعة لتبريد البطاطس، البنك الأهلي، سينما «شبرا بالاس» التي اشتهرت فيما بعد بعرض «الأفلام الهندية».

على هامش هذا النشاط شق الطاهري طريق التكييف المنزلي، كان حجم الجهاز وقتها أقرب إلى حجم دولاب متوسط. ظل مشغولًا بتنفيذ فكرة التكييف الشباك، بمكونات محلية وحيز مساحة أقل. طارد الفكرة بأن انتقل للإقامة في ورشة المصنع، أيام من العمل المتواصل وساعات نوم قصيرة في المكان نفسه حتى ظهر في الأسواق «تكييف شباك كولدير» مع نهاية 1956.

لم يغلق الطاهري باب العمل على نفسه، كان عضوًا في جمعية مهندسي التبريد والتكييف الأمريكية، وسجّل بها أكثر من ستة ابتكارات تتعلق بتطوير المقاسات، ثم اشترت

منه إحدى شركات التكييف الأمريكية فكرة لتطوير نظام عمل المبردات، سُجلت باسمه لكن أصبح للشركة حق استغلالها.

يعمل أكثر من 18 ساعة يوميًا، لم يكن وقت العمل في المصنع كافيًا، يتابع بنفسه كل شيء وكل تفصيلة تتعلق بالعمل: التركيبات، والصيانة، ومشاكل التشغيل، وشكاوى العملاء.

كانت دول العالم تحتفي به؛ رجل صناعة ناجحًا ومبتكرًا يتلقى دعوات الزيارة كل شهر، لبى واحدة منها إلى بيروت في 1961، وعندما رجع إلى القاهرة وجد أن كل شيء قد تغيَّر.

(3)

جلس الطاهري على مائدة الإفطار يطالع صحف الصباح قبل أن يتحرك من منزله في اتجاه العمل. وفي الصفحات الأولى قرأ خبر «تأميم شركته»، اتصل بالمصنع فعرف أن مندوبي التأميم يصعدون السلالم المؤدية إلى مكتبه، ونصحه أحدهم ألا يكون موجودًا في هذه اللحظة، وأن ينتظر. بعد ما يقرب من شهر استيقظ على مكالمة تعرض عليه منصب العضو المنتدب ورئيس مجلس إدارة المصنع في صياغته الجديدة.

فهم من العرض أنهم حاولوا أن يديروا المصنع في غيابه، لكن الأمور تعثرت فلجأوا إليه.

فكر الطاهري في صناعة أنشأها من العدم وثبَّت أقدامها في مصر والبلدان المجاورة، مصنع بدأت شهرته تطول آفاق العالمية. شعر بصعوبة كبيرة في أن يتخلى عن كل هذا. كان يقول: «عندي ولد وبنت ومصنع». فكر أنه إذا اعتذر فسيبدو أمام نفسه كشخص ألقى بأحد أفراد أسرته على باب بيت لا يعرف سكانه وانصرف.

سأل في البداية عن حقوق العمال، كانوا أصحاب أسهم وليسوا مجرد موظفين بمواعيد عمل رسمية ومرتبات ومكافآت؛ آمن أن مستقبل الصناعة كلها في أن يشعر العاملون أنهم ملاك، فوزَّع الأسهم وتقبَّل بصدر رحب ثورة بقية رجال الصناعة في مصر بسبب الإزعاج الذي سببه لهم قرار من هذه النوعية.

قالوا له هناك تعويضات مالية سيتم صرفها، طلب أن يتم ذلك سريعًا حتى يشعر العمال بالاستقرار، فوُزعت عليهم التعويضات في صورة سندات، سليمة إداريًا، لكنهم اكتشفوا بعد وقت طويل صعوبة تحويلها إلى سيولة نقدية.

قبل الطاهري العرض الجديد، من ناحية ليحافظ على

المكاسب التي حققتها الصناعة ويطورها، ومن ناحية أخرى كان الطاهري محبًّا لمشروع جمال عبد الناصر وتجربته في تطوير الصناعة الوطنية، وفكر أن وجوده في المصنع سيدعم هذه التجربة، شعر أنه من واجبه ألا يتخلى أو يهرب. حاول شقيقه الوحيد أن يجعله يتراجع عن هذه الأفكار الرومانسية ويساعده على الهرب بطريقة ما، لكنه لم يستطع.

في اليوم التالي توجه الطاهري إلى عمله الجديد، رئيس مجلس إدارة شركة النصر للهندسة والتبريد، وظل في موقعه خمس سنوات. كانت البداية مبشرة، عاد العمل إلى طبيعته، واستعاد الطاهري لياقته سريعًا، لكن بمرور الوقت بدأت الأعراض الجانبية لقرار التأميم في الظهور.

(4)

بداية من عام 1962 حتى منتصف عام 1966 كان الطاهري يواجه أشباحًا في حربه للحفاظ على الصناعة وتطويرها.

إيمانه بضرورة أن تعتمد الصناعة بالكامل على المنتجات المحلية كان طريقًا أوشك الطاهري أن يقترب من نهايته بنجاح، تبقت تفصيلة صغيرة لكنها الأهم: تصنيع «كومبرسور» التكييف، قلب الجهاز، ستمتلك كل شيء إذا خرج من تحت يدك، ستنخفض أسعار الأجهزة إلى درجة لن

يقوى آخرون على منافستها. نقلة كانت على مقربة أمتار أفسدتها البيروقراطية، ضاع القرار بين اللجان وجلسات استجواب الموظفين الحكوميين لمؤسس الصناعة، دهس الوقت والإجراءات فكرة الطاهري، حتى آمن أنه في حربه مع البيروقراطية لا يحلم بخطوة إلى الأمام، لكنه بحاجة حقيقية إلى الدفاع عما تم إنجازه قبل أن يتآكل.

فتحت البيروقراطية الباب لصديقها المفضَّل: الفساد. كانت مصلحة بعض القيادات وقتها في الانحياز لاستخدام المكونات الأجنبية واستيرادها من الخارج؛ خط الاستيراد توجد في نهايته العمولات، وكلما زادت الصفقات ذات العملة الأجنبية ارتفعت النسبة. كان الشعار زائفًا: «رفع الجودة»، مع تكثيف الإضاءة على مشاكل الاعتماد على المكونات المحلية بما يبرر صفقات جديدة تمرر عمولات أكثر. ولأن الثروة السهلة مسألة حياة أو موت للبعض، كان الطاهري يرى مشروعه ينتقل من خانة التصنيع إلى خانة ورشة تجميع وتركيبات.

خمس سنوات، أهلكته فيها الضغوط صحيًّا ونفسيًّا، وكان في الوقت نفسه يرى ابنه وابنته وهما يكبران، فبدأ يفكر في مستقبلهما، وفي المناخ الذي يود أن يخرجا فيه إلى تجربة الحياة، قرر أن يخطط لسلامة أسرته بعد أن شعر بتآكل

سلامته الشخصية.

لمعت فكرة السفر، قاومها في البداية، كان الوضع يسوء إلى درجة جعلتها تفرض نفسها كاختيار لا بديل له. لكن إلى أين؟ وكيف في بلد يخضع سفر مواطنيه للخارج لرقابة خشنة؟

(5)

أول ما اضطر للتخلي عنه حتى يستطيع أن يرحل ما تبقى في حوزته عقب قرار التأميم؛ غير مسموح للمواطن عند السفر بأكثر من مائة دولار، ولا تحويلات بنكية أو ممرات آمنة بعيدة عن أعين الدولة تسمح للواحد أن يخرج بما يمتلكه. كان قرار السفر أقرب إلى طوق نجاة، لا مجال للتفاوض حول شروط استخدامه، فسافر بدون مليم واحد.

لم يتحمس لفكرة الانتقال إلى واحدة من الدول الخليجية التي باتت تحفظ اسمه وتعتمد عليه في أمور التكييف والتبريد، قال إن الأجواء في المنطقة كلها طاردة ولا فروق كبيرة بين هنا وهناك.

استطاع أن يوفر لنفسه عقد عمل في لبنان يسمح له بالخروج من مصر. كانت لبنان مجرد محطة وكان عقد العمل وهميًا؛ مكتب صغير في بناية بدون مرتب، هناك فقط أجرٌ

في حالة تقديم أي استشارات تتعلق بالتبريد والتكييف.

استغل إقامته في بيروت في ترتيب أوراق السفر إلى أمريكا، كانت الفرصة المتاحة وقتها وظيفة في المصنع الأمريكي الذي اشترى قبل ذلك حق استخدام أحد ابتكارات الطاهري في التبريد.

مع نهاية عام 1966 سافر، وبذل مجهودًا لتهيئة حياة جديدة لأسرته الصغيرة التي وصلت إلى أمريكا في 1967. كانت الأسرة تتبادل العناق والأحضان بينما في الخلفية مذيع الأخبار يقدِّم تقريره عن خسائر مصر في النكسة.

(6)

حياة جديدة في بلد جديد.

موظف في مصنع تكييفات براتب يغطي أساسيات الحياة (الأكل والشُّرب ومكان للنوم)، انتهى زمن مربية لكل طفل تتابع شؤونه، انقطعت زيارات نادي الجزيرة ومباريات الجولف وسهرات الصيف وتجمعات العائلة في الإسكندرية، وأصبح على الابن الصبي ذي الخمسة عشر عامًا أن يعمل ليوفر أي احتياجات غير أساسية (دراجة مثلًا).

عمل الابن في توزيع الصحف على المنازل، لم يعارض الأب، وجدها فرصة ليتدرب مبكرًا على التعامل مع تقلبات

الحياة، شجعه وكان يرافقه يوم الجمعة في جولة المرور على البيوت لتحصيل ثمن الصحف.

بذل مجهودًا في أن تتأقلم أسرته مع الوضع، لكن الصمت كان يسرقه كثيرًا، صمت معجون بدخان السجائر، وألم ما لا يقوى على التعبير عنه، حتى اليوم الذي استطاع فيه شقيقه أن يزوره في أمريكا، كان اللقاء مشحونًا ولا كلمات، ارتمى الطاهري في حضن شقيقه قائلًا: «شفت؟!»، قال الشقيق: «قلت لك».

(7)

الشقيق الأكبر عز الدين، زوج ابنة شريف باشا صبري خال الملك، كان مغامرًا ومحبًّا للطيران، كان يمتلك طائرة صغيرة واشتهر بقدرته على الطيران ليلًا، وعندما اندلعت حرب 1948 لم يكن هناك طيارون مصريون مدربون على الطيران ليلًا، تطوع عز الدين وكان تقريبًا قائد الطائرة الوحيدة التي أسقطت قنابلها فوق تل أبيب.

التقط الطاهري الهواية من شقيقه، وتعلمها سريعًا، بعدها اشترى من مصنع «بيتش كرافت» أفضل طائرة أمريكية بمحرك واحد للهواة. عند استلامها فرَّغ مساحة الأمتعة واستبدل بها خزان وقود إضافيًا يسمح له بالسفر لمسافات طويلة، تحديدًا إلى الأقصر وأسوان حيث ما تبقى من

الفراعنة الذين كان الطاهري مفتونًا بهم.

امتلك الطائرة في عام 1947، لكنها سقطت به وتحطمت في نهاية عام 1955. اعتبر نجاته معجزة فقرر ألا يعود، لكنه قبلها لم يتوقف يومًا.

كان يتصل بوالده في المنصورة يخبره أنه سيزوره على العشاء، كان الأب يمهد في أرض فدادينه الواسعة مدرج إقلاع وهبوط ترابيًا، تصطف على جانبيه كرات زجاجية تنيرها قناديل مضاءة بالزيت. يصل الطاهري إلى المنصورة ويقضي ليلته مع الأسرة، وفي صباح اليوم التالي يطير عائدًا إلى مطار إمبابة لمتابعة أعماله.

تُوفِّي محمود سعد الدين الطاهري متأثرًا بسرطان الرئة في عام 1973، حُمل جثمانه وحيدًا إلى مصر، أُغلق المصنع بأمر العمال، وخرجوا جميعًا يشيعونه إلى مثواه الأخير، وكان في الخامسة والستين.

(8)

كان محدثي كريمًا، لم يبخل بمعلومة يعرفها، وغاب عدة أيام ثم رجع بصور نادرة للطاهري من ألبوم العائلة، شكرته ووعدته أن ألتزم بالشرط الذي وضعه: ألا أذكر اسمه.

لم أقاوم فضول معرفة السبب، فسألته، قال: «إنها قصة

رجل أهملته كتب التاريخ، وقد تكون هذه أول مرَّة يظهر في الصورة، وأنا أفضِّل أن يظهر فيها بمفرده، لأنه يستحق ذلك، وهي قصته وحده».

بديع صبحي

صنايعي الأفلام الهندية

كم كانت تكلفة الأثر الذي تركته الأفلام الهندية في الوجدان الشعبي المصري؟

نجومية أميتاب باتشان، ومحبة الناس له، والحفاوة التي استُقبل بها في مصر والتي أحاطت به من الطائرة إلى الطائرة على يد شرائح مختلفة، من سيدات المجتمع الراقي إلى فلاحي صعيد مصر؛ المحبة التي أدهشت باتشان نفسه وقال عنها: «كلما شعرت بالإحباط جلست لأشاهد فيديوهات زيارتي لمصر».

التجمع العائلي أول يوم العيد أمام شاشة القناة الثانية في انتظار مكافأة التلفزيون للناس بعرض فيلم هندي يستهلك الظهيرة، تجمع يبدأ بكل أفراد العائلة ثم ينسحب الكبار بالتدريج ويبقى مراهقو العائلة معلقين بالعرض حتى نهايته أو حتى يكبروا أمام شرائط الفيديو التي سجلوا عليها هذه الأفلام.

اقتتال الناس الأسبوعي أمام أبواب سينما «شبرا بالاس» التي احتكرت عرض الأفلام الهندية، حشد يحتاج دائمًا لوجود الشرطة، ويتجدد مع أول يوم عرض لأحد الأفلام

الجديدة.

«كولى»، «مارد»، «الشعلة»، «قمر أكبر أنتونى»، «رام بالرام»، أسماء الأفلام التي أطلقت فيما بعد طوال الثمانينيات على المقاهي والمحلات التجارية والأكشاك ونوادي الفيديو.

السؤال الاستنكاري الذي يظهر ردًّا على أي شخص يحكي قصة بها بعض المبالغة: «إنت فاكرني هندي؟».

تقبُّل الناس بكل الحب لبدائية الحلول الدرامية، بداية من الأخوَّة المتكشفة مع نهاية الفيلم بين جميع أبطاله، أو صمود البطل أمام عربات مجنزرة تمر من فوقه ذهابًا وإيابًا.

تعلُّق الآذان بالألحان والأغنيات الهندية، وغزوها لرفوف محلات الكاسيت، وعادية أن تقابل من يردد بعضها بطلاقة وأريحية من يحفظ أغنيات محمد فوزي.

كل هذا الأثر تكلَّف مبلغًا في حدود خمسة آلاف دولار، في وقت كان سعر الدولار الأمريكي فيه ما بين أربعين وستين قرشًا.

المنتج والموزع السينمائي بديع صبحي، قرر في بداية الثمانينيات أن يسافر إلى الهند لشراء حقوق توزيع الأفلام الهندية في مصر. فتش عن الفيلم الأكثر جماهيرية والبطل

الأكثر شعبية، واشترى فيلم «كولى» بخمسة آلاف دولار. كان اختياره ذكيًا، قصّر المسافات بين طبيعة الجمهور المصري ودراما قادمة من الهند. يلعب أميتاب باتشان في هذا الفيلم دور شاب مسلم اسمه «إقبال»، ينقذه في طفولته من الفيضان تعلّقه بحامل خشبي يعلوه مصحف، ويظهر خلال عمله «شيال» في إحدى محطات السكة الحديد وهو يتوضأ ويصلي بزملائه إمامًا مرتديًا الطاقية الشبيكة.

قام بديع صبحي عقب عودته بعمل الدعاية اللازمة مع احتمالات متوسطة لأن يغطي عرض الفيلم تكاليف شراء حقوقه، لكن النتيجة كانت مبهرة، دفعته سريعًا إلى السفر مجددًا والعودة بفيلم جديد: «طوفان»، الذي كان له نصيب من اسمه. تراصت الطوابير الطويلة أمام دور العرض التي تعرض الهندي؛ ظاهرة انتفضت الصحف والمجلات لمناقشتها ومحاولة تحليل مقومات نجاحها. موزعون جدد ينضمون إلى قائمة ركاب طائرة الهند التي تعود بأفلام تغطي احتياجات دور العرض التي انتعشت واخترعت مواعيد جديدة للحفلات تناسب الإقبال ومدة عرض الشريط الهندي. أفلام سقطت في الهند نفسها، مثل «طوفان»، تنجح بضراوة في القاهرة، وسوق يقبل أي إنتاج هندي حتى القديم (فيلم «الشعلة» إنتاج عام 1975 وعُرض في مصر في عام 1987، أو فيلم «قمر أكبر أنتوني» الذي أنتج في عام 1977 وعُرض

في مصر في عام 1984).

كانت الأولوية لسينمات «شبرا بالاس» القاهرة، «أوديون» الإسكندرية. خرجت الأفلام المصرية لفترة من اختيارات «خروجة السينما». جملة عابرة في فيلم «آيس كريم في جليم» تلخص الموقف: مدير شركة الفيديو يطلب من البطل موظف التوزيع المُحبط أن يستعيد حماسه لأن «فيلم عادل إمام الجديد نازل، على كام شريط لأميتاب باتشان، ومش هتفضى تهرش»، فيلم لنجم السينما المصرية مقابل عدة أفلام لنجم الهند، هكذا كانت تسير المنافسة وقتها. بعدها انتبه تلفزيون الدولة إلى هذا النجاح، فقرر أن يشارك المصريين فرحة الأعياد بإطلالة باتشان ورفاقه على الشاشة.

ثم عُرض فيلم «مارد»، وجاء النجاح هذه المرَّة بما لم يتوقعه بديع صبحي.

استمر عرض فيلم «مارد» أكثر من عشرين أسبوعًا، وظهرت إعلانات الفيلم في الصحف متضمنة على سبيل الدعاية أعداد المشاهدين، كانت أكثر من مليوني مشاهد في واحد منها. رقم أزعج بقية المنتجين. تحوَّل الموضوع إلى ما يشبه احتلالًا لا يقدر أحد على مقاومته. وكان لا بد من تدخُّل رسمي ينقذ الصناعة، تدخُّل تمت ترجمته إلى قرار حكومي صدر في عام 1987 بعدم عرض أي فيلم هندي

أكثر من خمسة أسابيع متتالية.

كان القرار صادمًا ولا مجال للهروب منه، أعلن الموزعون احترامهم له، وبدأوا يعرضون الفيلم الهندي في أي قاعة سينما لمدة خمسة أسابيع ثم يرفعونه لمدة أسبوع يُعرض خلالها أي فيلم آخر، بعدها تعود السينما بالهندي لخمسة أسابيع جديدة.

انتصارات ساحقة متتالية، ثم جاءت الضربة الحقيقية من شركات الإنتاج السينمائي الهندية نفسها التي لاحظت النجاح الأسطوري فقررت رفع سعر شراء حقوق توزيع أفلامها من خمسة آلاف دولار إلى خمسين ألفًا. خاض بديع صبحي المغامرة، واشترى حقوق خمسة أفلام جديدة، لكنه اكتشف أن أحدهم فتح الباب لدور العرض لدخول المنافسة بأفلام أمريكية تمتلئ بإثارة وخيال وتقنية، كانت تسحب ببطء البساط من تحت أقدام باتشان ورفاقه، فتعثرت مهمة توزيع الأفلام التي اشترى بديع صبحي حقوقها بالسعر الجديد، وصادف لأول مرَّة صعوبة اقتناص دور عرض لأفلامه. وكعادة الأفلام الأمريكية التي لا تؤمن بالمستحيل، وضعت هوليوود حدًّا لنجاح الأفلام الهندية في مصر، وبدأ التراجع بمرور الوقت.

بديع صبحي يظهر اسمه على العديد من الأفلام المهمة

والجماهيرية كمنتج سينمائي، منها: «باب الحديد»، «الهلفوت»، «الغيرة القاتلة»، «ولكن شيئًا ما يبقى»، «آه يا ليل يا زمن». فتشت عن عنوان شركة الإنتاج التي تحمل اسمه، وفي عمارة قديمة بمنطقة الأزبكية أخبرني الجيران أن الشركة أُغلقت منذ فترة ولا أحد في هذا العنوان. لم أتوقف عن البحث عن مديرة شركته التي ورد اسمها في تقرير عام 2009 عن أسباب توقف استيراد الأفلام الهندية، أو ابنته هالة التي ورد اسمها في خبر عام 2011 عن نزاع قضائي حول حقوق توزيع أحد أهم الأفلام التي أنتجها والدها (باب الحديد). ثم عثرت على نعي بديع صبحي، وفتشت عن أسماء أقارب الدرجة الأولى عسى أن أجد طريقة للتواصل مع أحدهم، لكن دون فائدة. في أثناء البحث وجدت على فيس بوك منشورات وملصقات دعائية تحمل اسم شركة أفلام بديع صبحي، يعرضها أحد المهتمين بجمع أرشيف وتراث السينما، تواصلت معه سعيًا للوصول إلى مصدر هذه المواد، قال إن الشركة أُغلقت عقب وفاة بديع صبحي في 2006، وقام الورثة بتصفية المكتب، وتم بيع الموجودات إلى أحد الأشخاص المهتمين بالتراث في منطقة شبرا الخيمة، وهو الذي باعه المواد المعروضة قبل سنوات ثم اختفى ولم يظهر مرّة أخرى. كان العثور على هذا الشخص مجددًا صعبًا للغاية، أفتش عنه وأشعر أنني بحاجة إلى ما هو

أكبر من التوفيق أو ضربات الحظ، ربما معجزة، واحدة من التي امتلأت بها الأفلام الهندية التي حجز لها بديع صبحي مكانًا في الوجدان المصري قبل أن يختفيا معًا.

كيف بدأ التأميم؟

وقف عبد الناصر صامتًا أمام صخب الهتاف. اتفق الحاضرون في المؤتمر الشعبي جميعهم وبحماس مخيف على: «أمم أمم يا جمال.. أمم أمم يا جمال». دقائق طويلة حاول ناصر خلالها أكثر من مرَّة أن يوحي للجماهير أنه سيبدأ كلمته لينهي الهتاف المشتعل، دون فائدة.

عثر ناصر على الحل أخيرًا، رد على الجماهير ساخرًا بنصف ابتسامة: «هوَّ فاضل حاجة؟».

مر التأميم بثلاث خطوات حتى انتهى عند ملاحظة ناصر الساخرة:

بدأت الفكرة بعد تأميم قناة السويس، عندما قررت بريطانيا وفرنسا تجميد الأموال المصرية في بلديهما كنوع من الضغط، فقرر نظام يوليو الرد بتأميم ممتلكات هذه الدول في مصر، كان معظمها بنوكًا وشركات تأمين، ثروة آتت أُكلها سريعًا ربما للدرجة التي أغرت بخطوة تالية مماثلة.

في 1961 صدرت قرارات: تحويل ملكية 149 شركة إلى القطاع العام، 91 شركة يتم تمليك القطاع العام 50% منها، 159 شركة تم تحديد قيمة ما يمتلكه أصحابها من أسهم بما لا يزيد على عشرة آلاف جنيه والباقي للقطاع العام أيضًا.

وكان العنوان الكبير لهذه القرارات: «إجراءات في طريق الاشتراكية».

بعد عامين تم الإعلان عما أنجزته التجربة تمهيدًا للتوسع في تنفيذ الفكرة، لتبدأ المرحلة الثالثة بعنوان «تحقيق ملكية الشعب التامة لـ80% من وسائل الإنتاج الصناعي بعد أن كان القطاع العام مجرد مشرف أو شريك». وقال تقرير الحكومة: «إن العمل من أجل زيادة قاعدة الثروة الوطنية لا يمكن أن يُترك لعفوية رأس المال الخاص المستقل ونزعاته الجامحة».

عُرضت تقارير تقول إنه خلال عامين حقق القطاع العام نموًّا قدره 19.3% مقابل معدل نمو 8.4% حققه القطاع الخاص، وإن القطاع العام أضاف إلى عدد العمال ما يزيد على 34 ألف عامل، ورفع متوسط دخل الفرد من 214 جنيهًا إلى 225 جنيهًا، بينما الوضع مختلف في شركات القطاع الخاص، حيث تركها القائمون عليها تعاني من ارتباكات مالية ونقص في إمكانياتها ومقدرات عمالها، بخلاف أن هذه الشركات لم تقم بدورها في خطة التنمية.

اعتبرت الحكومة أن القطاع الخاص حجر عثرة في طريقها الطموح، واتهمته في تصريحات رسمية أنه «مموِّل للهدم، ومعطِّل للطاقات المالية والآلية، ومهدِّد للاستقرار

الاجتماعي لآلاف العمال وأُسرهم».

قال البيان الرسمي:

التأميم لا يؤدي إلى خفض الإنتاج، بل إن التجربة أثبتت قدرة القطاع العام على الوفاء بأكبر المسؤوليات، بأعظم قدر من الكفاية. أما القطاع الخاص فمطلوب منه أن يجدد نفسه، وأن يشق لعمله طريقًا من الجهد الخلّاق، ولا يعتمد كما كان في الماضي على الاستغلال الطفيلي.

أسماء بعض أشهر الشركات والمصانع التي خضعت لقرارات التأميم:

1- شركة مصر للغزل والنسيج (المحلة الكبرى).

2- شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار.

3- شركة المحلات الصناعية للحرير والقطن (أسكو).

4- شركة النصر للغزل والنسيج والتريكو بالقاهرة (الشوربجي).

5- الشركة المصرية للغزل والمنسوجات.

6- شركة النصر للأصواف والمنسوجات الممتازة (ستيا).

7- شركة راياتكس (إخوان يعقوبيان).

8- شركة النهضة للغزل والنسيج (موريس تاجر وشركاه).

9- المصنع المصري للسجاد والقطيفة.

10- مصنع النسر المصري للحياكة (هومير نصر تاجر).

11- شركة منسوجات الجوهرة (هنري. م. بيجو).

12- شركة فانلات أطلس المصرية.

13- شركة المصنع المصري للأغذية المحفوظة (قها).

14- شركة النصر للدخان والسجائر (كوتاريللي).

15- شركة أقطان كفر الزيات.

16- الشركة المصرية لمنتجات النشا والخميرة الأهلية (النشا الأهلية).

17- الشركة الشرقية للدخان والسجائر (ايسترن).

18- شركة الملح والصودا المصرية.

19- شركة مصانع الصابون والمواد الغذائية (كحلا).

20- شركة النصر لتعبئة الزجاجات (سيكو).

21- شركة كوثر للمياه الغازية.

22- شركة كراون بريوري والمكتب المركزي لتوزيع إنتاج

شركتي بيرة الأهرام وكراون بريوري.

23- شركة كولونيال التجارية (مصنع الجملين للمسلى الصناعي).

24- مصانع حلويات إخوان نادلر.

25- شركة ث. ب كوتسيكا وشركاه.

26- شركة إيكا (يوسف وموريس ليفي وشركاهما).

27- شركة صناعة وتجارة الألبان (سيكلام).

28- شركة إخوان سلوم.

29- شركة الدفراوي للدخان والسجائر بمنوف.

30- شركة مصانع شوكولاتة رويال المصرية (تومي خريستو وشركاه).

31- شركة الإسكندرية لصيد الأسماك وتجميدها (في شلكس).

32- الشركة الأهلية للزيوت والصابون (كركور مانتيان وأبناء قسطندي).

33- شركة بسكويت أرابيسكو.

34- شركة مطابع محرم.

شركتي بيرة الأهرام وكراون بريوري.

23- شركة كولونيال التجارية (مصنع الجملين للمسلى الصناعي).

24- مصانع حلويات إخوان نادلر.

25- شركة ث. ب كوتسيكا وشركاه.

26- شركة إيكا (يوسف وموريس ليفي وشركاهما).

27- شركة صناعة وتجارة الألبان (سيكلام).

28- شركة إخوان سلوم.

29- شركة الدفراوي للدخان والسجائر بمنوف.

30- شركة مصانع شوكولاتة رويال المصرية (تومي خريستو وشركاه).

31- شركة الإسكندرية لصيد الأسماك وتجميدها (في شلكس).

32- الشركة الأهلية للزيوت والصابون (كركور مانتيان وأبناء قسطندي).

33- شركة بسكويت أرابيسكو.

34- شركة مطابع محرم.

35- شركة الورق الأهلية.

36- شركة النصر لمنتجات الكاوتشوك.

37- الشركة المصرية لصناعة الكاوتشوك والأحذية (أفيرينو).

38- شركة البلاستيك الأهلية.

39- شركة النصر لصناعة الأقلام ومنتجات الجرافيت.

40- شركة طنطا للكتان والزيوت.

41- شركة كبريت النيل.

42- شركة التعدين المصرية (إيديال).

43- شركة النصر لصناعة الزجاج والبلور.

44- شركة مصانع أفانجلوس انسطاس دافسيو (صناعة الطوب الأسفلتي).

45- مصنع طوب جيمس واطسون مردوخ.

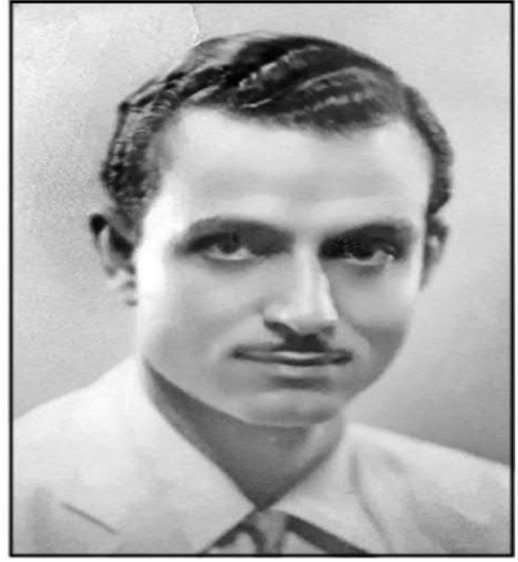
46- شركة النصر للهندسة والتبريد (كولدير).

معرض صور

الفصل الأول



محمود سعد الدين الطاهري، صنايعي التكييف ومبردات «كولدير» مستقلًّا طائرته الخاصة



كان الطاهري وراء أن تكون سينما «مترو» أول دار عرض تضع لافتة «مكيف الهواء»



إعلان «كولدير» يظهر في إحدى لقطات فيلم «يوم من عمري» إنتاج 1961



كان إعجاب الطاهري بمشروع عبد الناصر سببًا في قبول عرض إدارة مصنع «كولدير» بعد تأميمه

تأكيد سيطرة الشعب الكاملة على وسائل الإنتاج

تأميم كامل لكل مصادر الثروة الطبيعية والصناعات الاستراتيجية والهامة

قرارات بتأميم ٢٢٨ شركة ومنشأة صناعية وإنهاء جميع عقود استغلال المناجم والمحاجر الممنوحة للأفراد

تأميم ٤٢ شركة للنقل البرى والنهرى وإلحاقها بمؤسسة النقل الداخلى

القرارات الثورية التى صدرت أمس تكملة طبيعية وحاسمة للثورة الاجتماعية التى أحدثتها قرارات يوليو الاشتراكية

مانشيتات

قرارات التأميم

اجراءات جديدة فى طريق الاشتراكية

٢٩٩ شركة يدخل إليها القطاع العام وبذلك تتضاعف ملكية مجموع الشعب فى وسائل الإنتاج وعائداته

١٤٩ شركة تتحول ملكيتها الكاملة الى القطاع العام وبتم تأميمها مقابل سندات بفائدة ٤٪

٩١ شركة يمتلك القطاع العام ٥٠٪ منها مقابل سندات قابلة للتداول بفائدة ٤٪

١٥٩ شركة تحدد ملكية أى فرد فيها جميعا بما لا تزيد قيمته على عشرة آلاف جنيه ويتحول الباقى الى سندات بفائدة ٤٪

التأميم يشمل جميع البنوك وشركات التأمين فى إقليمى الجمهورية

إسقاط الالتزام عن مرفق ترام القاهرة وشركة ليبون بالاسكندرية

مؤتمر صحفى هام ومذكرة توضيحية يذيعها على صبرى



صورة من إعلانات مبردات مياه

«كولدير»



إعلان فيلم «مهان» يعلن التزامه بالقرار الوزاري



لوجو شركة بديع صبحي



إعلان فيلم «مارد» يعلن عن عدد مشاهديه منذ بداية عرضه



إعلان فيلم «جوجنو» يفخر بعرضه للأسبوع الحادي والعشرين

الفصل الثاني

محمد غانم

صنايعي الكوتشي

(1)

استقر رأي العائلة أخيرًا على أن يشتروا للابن الحذاء الرياضي الذي تظهر إعلاناته يوميًا قبل مسلسل السابعة مساء. كان موعدنا يتوقف على مكالمة من صاحب محل الأحذية الذي ينفرد في سوهاج ببيع «الكوتشي» فور وصول المقاس المطلوب.

أيام مرت والواحد يتوقع أن يسمع الرنة قادمة من تلفون المنزل أو حتى من أي مكان آخر، برطمان مربى الجزر في الثلاجة، أنبوبة بوتاجاز السخان، أو من بين شفتي الأب وهو يوجه تعليماته، ثم حدث أن رن التلفون في غيابي، فوجئت بالأب يطلب مني أن أرتدي ملابسي وأستعد للنزول لاستلام الحذاء.

كنت أعتقد أن الكوارث فقط هي التي تظهر بدون مقدمات.

في المحل الأنيق جلست على مقعد قريب من مكتب صاحب المحل، فوق سطحه نسخة من «أخبار اليوم»، وعلبة مارلبورو حمراء، وكاسيت أسود اللون إلى جواره علبة

شريط عبد الحليم حافظ «قارئة الفنجان». أصدر صاحب المحل توجيهاته لشخص لم أره، موجود في صندرة المحل العلوية، مد الرجل الخفي ذراعه بعلبة التقطها صاحب المحل ثم فتحها وطلب مني أن أخلع حذائي القديم و«أقيس».

تمشيت أمام الأب ذهابًا وإيابًا عدة مرات، سألني: «مريحاك؟». قلت: «جدًّا». فضحك صاحب المحل، مد الأب قبضته وضغط على مقدمة الحذاء بإبهامه محاولًا تقدير الفراغات، ثم هز رأسه استحسانًا، فقال صاحب المحل: «مبروك».

كان الأب يعرف أن ابنه ربما يود أن يختلي بنفسه في هذه اللحظات، وقد كان محقًّا. وضع الحذاء القديم في العلبة، ثم طلب مني أن أعود إلى المنزل بمفردي، وودعني: «مبروك على الأرض».

كان مشوارًا للذكرى، هدوء اختلط بوقار لا أعرف له سببًا، أنقل النظر كل قليل بين الطريق والحذاء، وكلما وقعت عليه عيناي ابتسمت، هناك سحر غامض، شيء ما تغير في نظام عقلي، رغبة في الجري لا يوجد ما يبررها أمام المارة، ادخرتها حتى أصل إلى سلالم البيت، وهناك انتصرَت على الرغبة في الجري الرغبةُ في أن أصعد سلمة سلمة محاولًا الاستمتاع بمشطَي قدمَي وهما يغوصان في نعلين ينسجمان

معهما بشكل ساحر.

في المدرسة كانت هناك قائمة ينضم إليها كل أسبوع طالب جديد اشترى له أهله «الكوتشي». وحّد الحذاء بين سكان القائمة، تحولنا إلى شلة، لكن الانسجام لم يكن حاضرًا فتفرقنا، وقام صاحب كل «كوتشي» بتكوين شلة جديدة أحاط بها نفسه، شلة من أصحاب الأحذية العادية.

البحث عن الصنايعي الذي أدخل هذه البهجة على أجيال متعاقبة، مؤسسًا بها صناعة وتجارة وأسلوب حياة، لم يكن سهلًا، فتشت حتى وصلت إلى ابنه. في بداية جلستنا فتحت سيرة «الكوتشي»، فسألني إن كنت أعرف ما قبله!

(2)

محمد غانم أحد أوائل دفعته في الكلية الحربية عام 1944. كان من أمهر ضباط سلاح المدفعية، وحصل على نيشان الملك فؤاد العسكري. من المؤسسين لفكرة «المدرسة الثانوي العسكرية». صاحب تاريخ في العمل الفدائي سواء على هامش حرب فلسطين أو العدوان الثلاثي المصري، وقد جمع تجربته في كتاب اسمه «14 شهرًا فدائي في القرنص». أديب، نشرت مجلة «الرسالة» التي كان يرأس تحريرها يوسف السباعي الكثير من قصصه القصيرة، وتم اعتماده في الإذاعة مؤلفًا للتمثيليات في عام 1952، في الوقت نفسه

هو الجناح الأيسر لفريق الهوكي بالنادي الأهلي والمنتخب الوطني، ثم حكم دولي، ثم رئيس للفريق القومي للهوكي في دورة البحر الأبيض المتوسط بمدينة نابولي بداية الستينيات، عاد من هناك بالميدالية الذهبية، وكان أول فريق قومي مصري يفعلها في أي دورة رياضية رسمية.

كان غطاء عمله كضابط مخابرات بداية الخمسينيات مسؤولًا عن منطقة الشام هو عمله مديرًا لفرع شركة النيل للإعلان في بيروت تحت اسم محمد عزت، نجح في مهمته حتى إن الحكومة اللبنانية برئاسة سامي الصلح عينته مستشارًا رسميًا للإعلام في مجلس الوزراء اللبناني. قاد من هناك حملة ناجحة لدعوة المهاجرين اللبنانيين في الخارج إلى العودة والاستثمار في لبنان.

يصلح كل ما فات لأن يكون قصة حياة عظيمة لشخص ما، لكن بالنسبة لمحمد غانم فإن القصة لم تبدأ بعد.

(3)

بعد سلسلة من النجاحات بدأها محمد غانم كضابط جيش مقاتل، ثم رجل مخابرات ناجح، عاد إلى القاهرة نهاية الخمسينيات، واقترح على عبد الناصر فكرة شركة النصر للتصدير والاستيراد، وأصر على أن تكون كلمة التصدير في المقدمة، شركة تخدم الاقتصاد وتفتح الباب أمام مصر لتقدم

نفسها من جديد للعالم.

وافق ناصر ودعم الشركة برأس مال ساعد غانم أولًا في تكوين فريق عمل تم انتقاؤه وتدريبه بعناية، ثم دراسة كل ما تحتاج إليه مصر في هذه الفترة وإمكانية الحصول عليه من أسواق ناشئة بما يسمح بتقليل تكلفتها، وتصدرت احتياجات بلد يحاول أن ينهض قائمة ما يستورده. كل ما يدعم الإصلاح الزراعي من جرارات ومبيدات وسماد، وكل ما يحتاج إليه مشروع التصنيع الوطني، ميكنة وخطوط كهرباء ضغط عالي ومواتير، مستلزمات النهضة العمرانية من لواري وأوناش ومعدات صرف صحي، استطاع غانم أن يوفر كل ما سبق بفريق عمل دؤوب الحركة يجوب المعارض الدولية وأسواق دول الكتلة الشرقية بحثًا عن الأفضل والأقل تكلفة.

ثم بدأ مسيرة الخروج إلى الأسواق العالمية كمصدر للقطن والغزل والنسيج وإنتاج مصر من البطاريات والكاوتش وثلاجات الإيديال. لم يتوقف عند هذا النوع من البضائع، فتش عما نمتلكه ويحتاج العالم إليه أكثر منا، حتى اتسعت قائمة الصادرات لتشمل: الأعشاب البحرية التي تغطي شواطئ بور سعيد والإسكندرية وتُحيِّر المسؤولين في التخلص منها، حوَّل جمعها إلى مصدر للرزق وصدَّرها إلى

اليابان، والهنك (أحشاء الأغنام التي كانت تستخدم في بعض البلدان لتصنيع بعض الآلات الموسيقية).

مع بداية الستينيات كان تحرر الدول الأفريقية من المستعمر شعار الوقت. رأى غانم في القارة أسواقًا واسعة وفرص عمل ووجود تحتاج إليها مصر. كان يعرف أن الدول الأفريقية ستفقد جزءًا كبيرًا من الدعم الذي كانت تقدمه الدول المحتلة (أموال، معدات طبية، معونات غذائية)، وعرض على عبد الناصر الفكرة مدعومة بوجهة نظر اقتصادية سياسية مخابراتية.

لم تكن المهمة سهلة لأكثر من سبب: الأول أن البلاد الأفريقية مجهولة تمامًا بالنسبة لنا، الثاني هو التوغل الإسرائيلي في هذه البلاد بدعم أمريكا، وكانت السفارات الوحيدة الموجودة في هذه الدول سفارات فرنسا وإنجلترا وإسرائيل وأمريكا.

وافق ناصر على خطة غانم الذي لم يدخل إلى أفريقيا من باب التمثيل الدبلوماسي ولكن من باب شركة النصر للتصدير والاستيراد. نجح في مهمته حتى أصبح للشركة خلال خمس سنوات ما يقرب من خمسة وعشرين فرعًا بطول أفريقيا وعرضها. بدأ بمعارض المنتجات وتكنيك «الباعة المتجولين»، وهم أشخاص يتم تدريبهم في القاهرة لرفع

كفاءتهم التسويقية وتقليل الزمن الذي قد يحتاجون إليه لغزو سوق جديد. ثم تطورت المعارض إلى مقرات للشركة تفوق في هيئتها ونظامها سفارات الدول الأجنبية، حتى إن دولة مثل النيجر كانت تضع على كروت «البوستال» السياحية صورة مبنى شركة النصر للتصدير والاستيراد هناك. وقتها كانت النيجر دولة لا يوجد بها مبنى ارتفاعه أكثر من طابقين، ثم جاء مبنى شركة النصر ذو الطوابق الثمانية فتعامل معه رئيس النيجر باعتباره هرمًا رابعًا أقامته مصر عندهم، ونشأت بينه وبين غانم صداقة اعتمد فيها من خلاله على دعم النيجر بطواقم مهندسين زراعيين وأطباء مصريين، حتى قرأ غانم صباح أحد الأيام في الصحف خبرًا عن قرار عبد الناصر بتعيينه سفيرًا لمصر في النيجر، وهو المنصب الذي اعتذر غانم عن عدم قبوله وأقنع ناصر أنه سيعوق تقدمه في بقية الدول الأفريقية، فاقتنع ناصر وسحب القرار.

كان غانم يتجول في أفريقيا ليقتنص الفرص التي تخدم اسم مصر واقتصادها. اقتنص في غانا مسؤولية تصدير ما ينتجونه من البُن وتسويقه بأسعار تنافسية جعلت علم مصر يرفرف فوق مزارع البُن هناك. تتبع سر انخفاض الطلب على الأقمشة المصرية حتى عرف السر، فأمر بتصدير أقمشتنا إلى أحد المصانع الإيطالية لتطبع عليها النقوشات الأفريقية

بألوانها المميزة، ثم أعاد تصديرها فاحتكر السوق من جديد. لاحظ أن للأفارقة طريقة في تناول الأرز لا تشبه طريقتنا في مصر، مما جعلهم يستوردونه من بلاد أخرى، وعرف أنهم يفضلون الأرز المغلي الذي يحافظ على قشرته الصلبة، فأنشأ في المحلة الكبرى مضربًا للأرز المغلي وعاد به لاحتلال السوق من جديد.

نجاحات كبيرة توغلت بها مصر في قلب القارة كصديق، حتى إن زوجات العاملين في فروع الشركة كن يظهرن على شاشات التلفزيونات هناك في برامج تشرح وصفات الطهي المصري.

في حوار مع محمد غانم في نهاية التسعينيات منشور في جريدة «الوفد» تحدث عن أن هناك مجهودًا يُبذل لإقصاء مصر عن أفريقيا، وقال إن الحملة بدأت بالضغط على الكنيسة الحبشية التي كانت تابعة للكنيسة المصرية، حتى قررت الأولى الانفصال، وسُئل غانم عمن يقف خلف هذا المجهود، أشار إلى إسرائيل لكنه أضاف: «فيه دول عربية عندها أحقاد ضد مصر»، ونصح غانم في التعامل مع أفريقيا بـ«عدم الاستعلاء»، وضرب مثلًا فتح به سيرة لم تكن مألوفة وقتها، وقال: «يعني مثلًا لو أرادت الحبشة أن تبني سدًّا على أحد روافد النيل هناك لتوليد الكهرباء، فمن المفترض أن

تقدم مصر تعاونها وتشاركها في مثل هذا المشروع، لكن أن تقول للحبشة لا تفعلوا شيئًا حتى نقول لكم، فهذا هو الخطر، لأن الخوف ليس من الأفارقة ولكن ممن يحرضهم ويحركهم».

كبرت شركة النصر التي بدأت في شقة من غرفتين بشارع طلعت حرب، وبعد عشر سنوات أصبح لها 49 مكتبًا في الداخل والخارج، و13 باخرة تحمل 70% من الصادرات المصرية للخارج، وبدأت دول أخرى مثل سوريا وتركيا وإيران تطلب خدماتها في مجال التصدير، حتى فوجئ غانم ذات صباح بخبر صغير.

كان الخبر يقول إن الرئيس السادات قد قبل استقالة محمد غانم من رئاسة مجلس إدارة شركة النصر للتصدير والاستيراد.

قبِل السادات استقالة غانم التي لم يقدمها. يرجح البعض أنه كان يصفي وجود المحسوبين على عهد عبد الناصر، لكن ينفي الفكرة - وربما يثبت صحتها - أن قبول الاستقالة كان مصحوبًا بمنح غانم أعلى النياشين ومعاشًا استثنائيًا كبيرًا، وتفسير من وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية - الذي تقدم بالاستقالة لرئيس الجمهورية - قال فيه: «من الظلم أن نحجر على شخص ناجح ونمنعه من أن يستفيد من عروض قوية

جدًّا من دول الخليج للاستفادة بخبراته بمميزات كبيرة جدًّا».

لم يزعج خبر الاستقالة محمد غانم، ولم يفكر حتى في طلب مقابلة رئيس الجمهورية لمراجعته في القرار. أزعجه أن أوامر صدرت إلى العاملين في شركة النصر في الفروع الخارجية بأنه من المحظور عليهم التعامل مع رئيسهم السابق محمد غانم، مع تهديد بأن أي اتصال ولو شخصي مع غانم يعني عودة من خالف القرار فورًا إلى القاهرة.

رفض غانم استلام نيشان رئيس الجمهورية، ثم اختار أن يسافر إلى الكويت ليبدأ من جديد.

(4)

رجع غانم من الكويت في نهاية عام 1980، افتتح مكتبًا استشاريًّا لدعم المشاريع؛ منصة يمارس من خلالها حِرفته التي يحفظها كاسمه: «صناعة النجاح».

كان عمل المكتب يقوم على فلسفة دعم المشاريع التي بحاجة إلى تأسيس متقن، أو النهوض بمشروع تأسس لكنه تعثَّر بعد خطوات. يقيم المكتب ورشة العمل التي تجعل مركب المشروع تنطلق بصلابة وثبات، ثم يبدأ البحث عن غيره.

زاره مهندس عائد للتوّ من أمريكا، وكان مفتونًا بفكرة الأحذية الرياضية. لم تكن مصر تعرف وقتها سوى أحذية باتا «الكاوتش» ذات الجنيهات الثلاثة، الصالحة للاستخدام لمدة تتراوح بين عشرة إلى عشرين ماتشًا بكُرة قدم حقيقية، ونسخ محدودة من الأحذية الرياضية المستوردة وارد المصريين العائدين من الخليج أو من سوق بور سعيد الحرة. كان الأمر بحاجة إلى دراسة للتأكد من تقبُّل السوق لمنتج من هذا النوع سيتم تصنيعه في مصر، لأنه لن يكون رخيصًا، ولا يخضع لمواصفات أناقة الأحذية الجلدية التي ينسجم معها المجتمع.

بعد مجهود في قراءة مستقبل المنتج وسّع غانم إطار المشاركين في الفكرة، وضم إليها شركات وتجارًا لهم نصيب معتبر في تجارة الأحذية داخل السوق المصري. ضم شركتي «لطفي» و«توكل» ومجموعة أفراد ومستثمرين، تحرك بهم في حماية ضعف احتمالات ظهور منافس في المستقبل القريب، بخلاف أن باب الاستيراد مغلق.

كان المصنع الذي أسسه غانم من أوائل مصانع منطقة العاشر من رمضان. يحكي العاملون مدى صعوبة ظروف العمل هناك في هذه الفترة، بلا مصدر للماء، أو تلفونات، أو مخابز، وكهرباء تغيب كل يوم بالساعات، كانوا يذهبون إلى

العمل محملين بجراكن المياه، ويتواصلون مع الإدارة في القاهرة بالبريد، وساعات عمل تمتد حتى العاشرة مساء في وجود غانم نفسه مشرفًا على تحسين جودة المنتج، والوقوف ضد فكرة الاستعجال في طرحه قبل أن يصل إلى أفضل مستوى ممكن يجعله منتج «value for money»؛ يستحق سعره، ومريح، وعملي، وأنيق.

حتى جاء اليوم الذي شعر فيه بالرضا، فتم الاتفاق مع طارق نور على تولي مسؤولية الدعاية، كانت الفجوة الزمنية بين عرض الإعلانات التلفزيونية وعرض المنتج في الأسواق مشوقة، جعلت المهتمين في حالة ترقب، ورفعت من أسهم المنتج قبل أن يستقر في الفتارين.

المدارس وطلابها كانوا ملعب مبيعات «كوتشي» الأول وقتها، انطلق النجاح من هناك، وربما هذا ما جعل غانم يدقق فيما ينقص هذا الملعب ويستحق العمل عليه، ثم فكر في الأدوات المكتبية، وتعاقد مع إحدى الشركات الفرنسية الكبيرة، وبدأ يصنع واحدًا من أشهر أقلام الفترة: «بيك». ظهر القلم «البيك» منافسًا من اللحظة الأولى للنوع الشائع وقتها: القلم «الفرنساوي». اعتمد غانم في تصنيع المنتج على المهندس «أحمد مجاهد»؛ واحد من رواد صناعة البلاستيك. حاولت الشركة الفرنسية أن تفرض على غانم

شراء الحبر والسنون لكنه أصر على التصنيع، وتراجعوا بعد أن أدهشتهم جودة الأقلام وسرعة انتشارها حتى إنها أصبحت إحدى علامات أناقة الفترة.

نجح «كوتشي» إلى الدرجة التي جعلت غانم يغلق هذا الملف ويفتش عن النجاح في مكان آخر. انسحب من الصورة وتركها لبقية الشركاء، لكن سرعان ما تم فتح باب الاستيراد بعد وقت قصير، وظهر منافسون بدأوا كبارًا، مثل: توكيل «أديداس» العالمي، وتوكيل «لوتو» بإدارة نجم التنس المصري العالمي إسماعيل الشافعي.

كانت المرَّة الأولى التي يعود فيها غانم إلى مشروع تركه بعد أن اطمأن إلى نجاحه، شعر بالخطر على منتج كان هو أول من أدخله إلى مصر؛ غيَّر به اقتصاديًّا مفاهيم هذا البيزنس، وغيَّر به اجتماعيًّا أفكار الأناقة. فعاد إلى إدارة المنتج، ودعمه في منافسة ظالمة فُرضت عليه بقرارات حكومية، محملًا بتحدي استعادة الصدارة. ونجح إلى درجة أن أي حذاء رياضي في مصر أصبح اسمه الشعبي «كوتشي»، أيًّا كانت ماركته الأصلية. حوَّل اسم منتجه إلى ما يسميه خبراء التسويق «generic name».

كان المنتج الذي أشرف عليه غانم شخصيًّا عقب عودته اسمه «موديل 88»، واليوم بعد ما يقرب من ثلاثين عامًا

طرحت فيها الشركة موديلات كثيرة، لا يزال هو الأكثر مبيعًا، وهو الموديل الذي يأتي على رأس قائمة طلبات الموزعين طوال الوقت.

(5)

فكرة صغيرة اخترعها محمد غانم لدعم روح العمل في شركة يتجاوز عدد موظفيها ثلاثة آلاف وخمسمائة، نقلها عنه فيما بعد عدد من الشركات الكبيرة: مجلة نصف شهرية تغطي أخبار شركة النصر، يتم توزيعها مجانًا على كل العاملين في كل الفروع داخل مصر وخارجها، يحررها العاملون، يشرح المديرون فيها كيف جاء النجاح هذه المرَّة، أو يفسرون الإخفاق وكيف يمكن معالجته، يرشحون من يستحق أن تصفق له أسرة العمل، ومن الذي يلومونه وما النصيحة، أخبار صغيرة من حياة العمل اليومية تجعل الجميع على معرفة بالأجواء في كل فرع وتصنع من الموظفين نجومًا يتلقون المحبة والمديح كأبطال الأفلام.

اشتهر غانم بأنه يتعامل مع الموظفين والعمال بالطريقة نفسها التي يتعامل بها مع المشاريع؛ كان يفتش عن الطريقة التي يمكن أن ينجحوا بها، يؤمن أن كل شخص يعمل معه هو مشروع في حد ذاته، يحمل على عاتقه مهمة تهذيب مهاراته، ومعالجة عيوبه، والوصول إلى أفضل نسخة ممكنة

منه، ولا شيء يدعم القائد في نجاح مهمة من هذه النوعية إلا شعور العاملين معه بالأمان ودعم الثقة بالنفس.

(6)

تغلغل المنتج الذي قدمه محمد غانم في تفاصيل الحياة اليومية للمصريين. في البداية قاومته بعض المدارس ذات القيود الصارمة، واعتبرت التخلي عن الحذاء الجلد الأسود لصالح «الكوتشي» هدمًا للنظام، ثم تخلت عن صرامتها بمرور الوقت بعد معارض للشركة في أماكن مختلفة تقدم تخفيضات بداية العام الدراسي، وراحة ما عثر عليها الآباء في حذاء لا يحتاج إلى الإصلاح المتكرر أو معالجات فنية، ويتحمل فرط حركة الأبناء، وأراحهم قليلًا من الجلسات شبه اليومية على الأرض أمام صف أحذية الأبناء الجلدية مع علبة «ورنيش الكرة» والفرشاة والممسحة لتلميعها حتى لا يتعرض الطفل للتوبيخ في مدرسته صباحًا. ثم تسلل «الكوتشي» إلى حياة الكبار، لكنه اصطدم بالبنطلونات القماش ومدى تناسق حذاء رياضي معها، فانفتح الباب بشكل أوسع قليلًا للجينز الذي بات يلائم هذه النقلة، ثم تراجعت «جوارب الشوربجي» القماش المألوفة قليلًا وظهرت الجوارب البيضاء الرياضية السميكة نوعًا ما، وفُتح لها سوق أوسع من محلات الأدوات الرياضية. بعدها صار

«الكوتشي» من الهدايا المفضلة لكبار السن، الفئة الأكثر تعرضًا لمشاق وآلام المشي؛ حذاء خفيف مطبوخ من خامات مريحة بأسعار بدأت صادمة ثم اقتنع الجميع أنها مناسبة. وبمرور الوقت تسلل «الكوتشي» من فتارين فروع منافذ البيع التابعة للمصنع إلى فتارين محلات الأحذية الكلاسيكية الكبيرة، وبعد أن كانت هناك مشكلة في تقبُّله مع زي المدرسة، أصبح كثيرون الآن يرتدونه مع بدلة أو فستان الفرح.

بعد مرور وقت ـ رحل فيه غانم ـ تراجع اسم «كوتشي» أمام منافسة ضارية قوامها ماركات عالمية من جميع بقاع الأرض. تراكمت المديونية على الشركة لأحد البنوك، ثم تمت تسويتها بأن تولى البنك إدارة المشروع. أخذت المنتجات تختفي ببطء من السوق، وإن ظل العمل في المصنع مستمرًا نوعًا ما على حس «موديل 88».

أحمد مجاهد

صنايعي البلاستيك

مع منتصف السبعينيات كانت هناك إحصائية عالمية تقول إن نسبة استخدام الفرد لمنتجات البلاستيك تبلغ 26 كيلو بلاستيك سنويًا، في هذا الوقت كانت منتجات البلاستيك حاضرة في مصر بقوة، والصدارة لنوعين: الأول فخم من النوع الغالي (أطقم الميلامين)، يحتل موقعًا مميزًا فوق معظم موائد الطعام المصرية، تحتكر الحكومة إنتاجه وتحارب من يصنعون منه نسخًا شعبية رخيصة أطلق عليها اسم «بلاستيك كسر». وكان المنتج الآخر من النوع الرخيص الذي يتم تصنيعه من مخلفات صناعة البلاستيك، واشتهر باسم «شبشب زنوبة»، وقد اختفت التسمية بعد أن شاع الاعتراض عليها دينيًا مع الترويج لكونها تفصيلة ضمن الحرب على الإسلام، وأصل التسمية غير معروف، لكنه بدأ أيام الملكية عندما تبنى الملك فاروق في الأربعينيات مشروعًا لمقاومة الحفاء الذي كان شائعًا بين المصريين، وأعلنت «الأهرام» في مارس 1942 عن تكوين لجنة مركزية لوضع الخطط التفصيلية لشكل الحذاء المنتظر، وأطلقوا عليه اسم «الزنوبة»، وتقرر أن يتم توزيع الدفعة الأولى من «الزنوبة» على تلاميذ وزارة المعارف في يوم عيد جلوس

الملك، وحسب المؤرخ الدكتور يونان لبيب رزق لم يتحقق شيء مما وعدت به الحكومة وقتها.

كانت صناعة البلاستيك في مصر أقرب إلى السذاجة، ورش منكمشة وأصناف تقليدية قديمة، ثم كانت النقلة على يد أحمد مجاهد. يمكن تلخيص أثره في احتفال مصر به في عام 1977 بعد حصوله على جائزة «الكوكب الذهبي» العالمية، والتي سلمها له شخصيًا الإمبراطور رضا بهلوي شاه إيران.

جاء في حيثيات الجائزة التي يقدمها اتحاد الصحافة الأوروبية، أن شركة البلاستيك الأهلية بقيادة أحمد مجاهد قدمت للأسواق العالمية بنجاح أحدث طقمَي «ميلامين»، والمعروفين باسم «طوكيو» و«كولمبو»، بخلاف أن الشركة حطمت الأرقام القياسية في الإنتاج، وأصبحت تقدم للسوق المصري منتجًا جديدًا من البلاستيك كل سبعة أيام.

النقلة جاءت ليقين أحمد مجاهد أنها لن تحدث بمعزل عن سوق ضخم اسمه «البيت المصري». عُقدت جلسات عمل تتفحص المنازل واحتياجاتها، وفتشت الشركة حتى استوردت لمصانعها أحدث الماكينات العالمية، ولم يتم الاكتفاء بالاستيراد، اختار مجاهد عددًا من المهندسين وأرسلهم في بعثات تعليمية تدريبية إلى المصانع الألمانية،

وتمت الاستعانة بأصحاب اللمسة الفنية في تصميم مئات المنتجات، ثم انطلقت المنتجات تغزو الأسواق، ومنها إلى معظم منازل المصريين. ودعم سرعة انتشار منتجات البلاستيك الأهلية قرار مجاهد بطرح منتجات الشركة بأسعار لا تقبل المنافسة حتى مع الأصناف المستوردة. كانت منتجات الفترة مشمولة بالفن، خرجت من نظام عمل لا يخلو من فكرة ترفع كفاءة مزاج العاملين، التكافل والنادي الاجتماعي وفريق المسرح والمصايف، حتى كرة القدم، كان فريق «نادي البلاستيك» من نجوم الدوري الممتاز في فترة السبعينيات وبداية الثمانينيات، وحقق نتائج للذكرى مثل التعادل مع الزمالك والفوز على الأهلي بهدف لـ«حمكشة» كابتن الفريق. ظلت منتجات البلاستيك الأهلية تنتشر في كل مكان: أدوات المطبخ، وأطقم المائدة، النجف والأباجورات، أطقم الحمّام، خشب الفورمايكا، معدات النظافة. ثم تراجعت إثر هجوم القطاع الخاص برشاقة لم يتحملها مصنع بات متخمًا بالمسائل الحكومية التي تعوق التطور، فبدأت الخسائر حتى بيعت الشركة في عام 2008 ضمن برنامج الخصخصة، ثم اختفت بعد فترة لافتة «نادي البلاستيك» الذي تغيّر اسمه بقرار رسمي لـ«نادي شبرا الخيمة الرياضي».

علي ورمضان شرش
صنايعية ورنيش الكرة

القاهرة 1905.

افتتح إبراهيم شرش الأب دكانه في وكالة رضوان أمام باب زويلة، ليبدأ تجارة كل مستلزمات الأحذية: مسامير، نعال، أربطة، شمع التصنيع، اللبيسة، الورنيش، فرشات التلميع. تجارة ناجحة يفد إليها الجميع من كل أنحاء القطر. حتى أنهى الشقيقان (علي ورمضان شرش) الدراسة وحصلا على البكالوريا، وكان القرار بالتحول من التجارة إلى التصنيع. لم يكن القرار سهلًا، ليست هناك مرجعية حقيقية لصناعة ناجحة في هذا المجال، بخلاف مخاطرة تمويل تصنيع منتج محلي من الوارد ألا يصمد في مواجهة المنتجات الإنجليزية التي كانت تغطي السوق.

تحققت وجهة نظر الأب مع تعثر الخطوات الأولى التي أودت سريعًا بما تيسر في يد الشقيقين من رأس مال. كان من الصعب توفير ميكنة مضبوطة، والعثور على عِمالة مناسبة وتدريبها على عمل لا أحد يمتلك بخصوصه أي خبرة.

رتب الشقيقان أوراقهما، وقررا أن يبدآ من جديد. اقترض علي مبلغًا بضمان سُمعة والده إبراهيم شرش، وأسس في

عام 1937 مع شقيقه رمضان ورشة صغيرة في ميدان العباسية بعيدًا عن تجارة الوالد.

كان علي صاحب عقلية تجارية، بينما سحرت رمضان الماكينات وكواليس التصنيع، استذكر جيدًا الماكينات النادرة التي تحتاج إليها الصناعة، ثم ابتكر أكثر من ماكينة قام عليها المصنع فيما بعد، مثل ماكينة الطباعة على علب الورنيش. يقول أحد أبناء الجيل الرابع في مصنع «شرش» إنهم كانوا حتى وقت قريب يستعينون بالماكينة التي صممها رمضان، ربما كانت أبطأ قليلًا، لكن جودتها تنافس أحدث الماكينات، ولفترة طويلة كانوا يضعون هذه الماكينة في مدخل المصنع وإلى جوارها لافتة صغيرة: «هذه بدايتنا».

تصنيع الورنيش بحاجة إلى علب صفيح، وهي صناعة لم تكن منتشرة وقتها في مصر، وكانت محدودة باحتياجات عدد من المصانع، مثل: شركات السجائر التي كانت تستورد الصفيح من إنجلترا وتُصنِّعه بالشكل المناسب لعبواتها، وكان هناك معمل حلويات «نادلر» بالإسكندرية يصنع ما يحتاج إليه من العلب بكميات محدودة، وشركة الغاز بالسويس وطائفة من السمكرية يصنعون علب الصفيح بالطلب لشتى الأغراض. لكن لم يعطل هذا الشقيقين، فقررا أن يكون هناك خط إنتاج للعلب الصفيح التي تعتمد عليها الصناعة. كانت

الخطوة الأولى ورشة صغيرة تقطِّع الألواح المعدنية وتجهِّزها في هيئة علب.

«خامات مصرية، والتخلص تمامًا من أي مدخلات مستوردة»؛ ملخص خطة عمل الشقيقين. درسا الموضوع من أبعد نقطة: الجلد الطبيعي غذاؤه الزيوت والشموع، يُدهن ويترك نصف ساعة ليتشرب المحتوى، ثم فرشاة خشنة تغذي النسيج بعد التأكد من تفتُّح مسام الجلد، بعدها فوطة ناعمة تُظهر اللمعة النهائية. بدأ البحث عن أفضل أنواع الشموع والزيوت التي تحقق أفضل نتيجة. توصلا إلى شمع «الكارنوبا» والشمع الأبيض الطبيعي، اتفق الشقيقان على شرائهما من شركة العامرية، والتربنتين المعدني من شركة التعاون للبترول.

تم تدريب العمال على تصنيع العلبة وكبسها وطباعتها يدويًا. مع بداية الإنتاج قرر الشقيقان ألا يتوقفا كثيرًا عند مسألة الربح، انشغلا بفكرة تثبيت أقدام صناعة جديدة، السعر والجودة، قررا تسعير منتجاتهما بأقل هامش ربح ممكن، إلى درجة أعجزت المستوردين والمنافسين ومحاولات التصنيع الأخرى.

اختارا للمنتج اسم «الكرة»، الاسم الذي حجز لنفسه مكانًا متميزًا في كل البيوت المصرية وفي صناديق كل ملمعي

الأحذية، واعتمدت عليه أجيال في لمعة حذاء الطالب، أو حذاء الموظف وهو يدخل على مديره، أو لمعة بيادة الجيش وهي أمر مقدس. دعم الخطوة الأولى التعاقد معهما على تصدير منتجاتهما إلى السودان، كان الطلب كبيرًا إلى درجة أنه لم يتبقَّ وقتها للسوق المحلي أكثر من 20% من الإنتاج. بعد ورنيش «الكرة» ظهرت أنواع بالجودة نفسها لكن بمقاسات مختلفة ولاستخدامات متعددة: «الهلب»، و«الهلال». ثم بدأ الشقيقان في تصنيع مسامير الأحذية الشهيرة «النمر» و«الغزالة».

احتفت بهما الصحف الرسمية، وفي كتيب عن إنجازات الثورة في عيد ميلادها الثالث كان مصنع «شرش» موجودًا في لوحة شرف الصناعة الوطنية، وقال الكتيب الذي تم تصديره بكلمة لعبد الناصر:

كان من المفروض أن يحبو هذا المنتج الجديد حتى يثبت أنه كفء للوقوف أمام الإنتاج الأجنبي، لكن ما هي إلا أعوام قلائل حتى أصبح ورنيش «الكرة» أشهر من نار على علم، وأحنت الأنواع الأجنبية أمامه رأسها، وأخذت تنسحب من السوق شيئًا فشيئًا.

فرضت المنتجات نفسها بعقلية تجارية وصناعية سابقة لعصرها، كان علي ورمضان يقومان بما اصطلح عليه بعد

سنوات «الريسيكلينج»؛ ينتج عن تصنيع علب الورنيش الصفيح قصاقيص صغيرة، يشرفان بنفسيهما بعد انتهاء كل وردية على جمع هذه القصاقيص والرايش، وينبهان لأهمية استخدامها وعدم النظر إليها باعتبارها عديمة القيمة، يقولان: «حد وراك يستفيد منها، ومن الممكن أن تقوم عليها صناعة أخرى»، وهو ما حدث بالفعل. كان يتم تجميع هذه المخلفات وإعادة بيعها لورش أصغر تستخدمها في صناعة «فوانيس رمضان»، وفي الوقت نفسه كانت القاعدة المتبعة عند تعبئة الورنيش أو المسامير عدم الالتزام بوزن العبوة بدقة، كان طلب الأخوين الذي اشتهرا به: «خلِّي العبوة أكتر من وزنها لا أقل، ولا حتى الوزن المضبوط المكتوب عليها».

عندما عرف رمضان شرش أن قرارات التأميم في الطريق، قرر أن ينقذ المصنع بالاحتماء في الشرط الذي يقي المؤسسة خطر التأميم، وهو ألا تكون مؤسسة فردية. قرر أن يسافر إلى الإسكندرية سريعًا بحثًا عمن يمكن ضمه لأوراق الشركة كشركاء ومساهمين. كان الوقت ضيقًا، لذلك لم يتردد رمضان في أن يقنع جاره في مقعد القطار المتجه إلى الإسكندرية، الذي يتعرف عليه للمرَّة الأولى، أن يقبل المهمة، وتم الاتفاق الذي أنقذ المصنع من غياهب التأميم.

سبق الشقيقان نظريات «الفاميلي بيزنس» التي بدأت

تنتشر وتتداول في السبعينيات، وصلا إلى الستين وقررا ترك العمل وتسليم المهمة كاملة للجيل التالي بمسؤوليات وصلاحيات كاملة، وخرجا تمامًا من الإدارة والملكية. توجها إلى العقارات، وقسما مشروعهما، بحيث تكون الصناعة للأولاد وللبنات نصيب في الأرض وتعويض في المصنع لمنع تضخم الإدارة والملكية، بخلاف نسبة من الربح الذي يتم توزيعه على الجميع دون تدخُّل أحد من العائلة في شؤون العمل.

يندر العبور بنجاح إلى رابع جيل في «الفاميلي بيزنس»، لكنهما أسسا لهذا الانتقال مبكرًا بحكمة جعلت خبراء «الفاميلي بيزنس» يستعينون بأحفاد شرش ليرووا في منتديات عالمية قصة المصنع وانتقال الإدارة عبر الأجيال.

كان رمضان هو الشقيق الأصغر، تُوفِّي في عام 1978، وظل علي يبكيه حتى تُوفِّي بعده بعام في 1979.

الشوربجي
صنايعي الجوارب والفانلات

مع نهاية عام 1930 أسس الشوربجي الجد أولَ مصنع مصري للجوارب في ضاحية الزيتون. اختار أن يؤسس مصنعه الصغير في منطقة منعزلة نسبيًا، ليبدأ تجارب تحاول العثور على علاج للتفصيلة التي كانت وراء فشل تجربة صناعة الجوارب في مصر.

كان الجورب يُصنع من قطعتين، الرقبة وبقية الجسم، وكانت كل التجارب تفشل لأن العمال لم يتقنوا عملية «شك الرقبة» في بقية الجورب، فكان يبدو الفتق الذي يزداد فتنفصل القطعتان.

كان هناك غش أبعد الناس عن المنتج المصري الذي يسبب الإحراج والضيق بسبب مقالب الفتق. وكان الشوربجي الجد لا يقلقه تكبد خسائر مادية، واستنزاف الوقت والمشقة مع عمال لم يكونوا يعرفون شيئًا عن هذه الصناعة، تحطمت على أياديهم معدات حتى أتقنوها، ثم خرجت إلى الأسواق جوارب غير معيبة، تمر قبل السوق على قسم خاص به عدد من العاملات يقمن بالفحص، وتخرج من عندهن الجوارب السليمة إلى قسم الكي ومنه إلى قسم التغليف في علب

أنيقة.

أصبحت منتجاته عنوانًا للدقة والمهارة، بخلاف سعر كان عجيبًا وقتها، ثلاثة قروش للواحد، وهو سعر أفسد سوق المستورد مع متانة مماثلة. نجاح جعل الشوربجي ينوع إنتاجه ما بين الجوارب القطنية أو المصنوعة من الصوف أو الحرير، حتى غزا السوق من جديد بمنتج الجوارب «الفيليه» الحريمي.

انتقل بعدها إلى مصنع أكبر في منطقة بولاق على مساحة ستة أفدنة ونصف، وكان المصنع الوحيد في مصر الذي ينتج الغزل الرفيع والمتوسط، وهي الخيوط التي تنتج أرقى أنواع القماش. اشتهر بمنتجات «اللينو» التي كانت خامة قمصان الفترة، وكذلك تصنيع أجود أنواع «الكستور»، وأطقم «اللانجيري»، وظلت الجوارب في الصدارة، وكان معروفًا للجميع أنها المفضلة عند عبد الناصر ولا يستخدم غيرها.

ومن المنتجات التي كانت حديث الناس في بداية الستينيات «الفانلاه» المصرية (كانت هذه هي الطريقة الشائعة لكتابة اسم «الفانلة» في جميع الصحف والإعلانات)، وكانت إدارة المصنع تفخر بأنها تتولى جميع مراحل إنتاجها، من إنتاج الخيوط الممتازة ونسجها وتجهيزها بنوعيها (فانلاه نُص كُم، والفانلاه الإسبور)، وكانت تلقى إقبالًا كبيرًا

في السوق الأوروبية، وبلغت صادراتها 450 ألف جنيه.

تم تأميم الشركة في عام ١٩٦١، وتولى القطاع العام إدارتها بعد دمجها مع مصنع الشركة المتحدة لصناعة النايلون ومصنع جوارب الأهرام. كانت البداية مبشرة، ارتفع حجم الإنتاج من 1.7 مليون جنيه في عام 1961 إلى 5.6 مليون جنيه مع نهاية عام 1965. وبدأ إنتاج جوارب شعبية تتميز بالجودة والسعر المعتدل تنفيذًا لتعليمات عبد الناصر عند زيارته لجناح الشركة في المعرض الصناعي في عام 1966. كان عدد عمال المصنع عند التأميم ٤٠٠ زادوا إلى ١٠٠٠ عامل في سنوات قليلة، وظلت الأمور مستقرة نسبيًّا حتى ظهر الثقب الأسود الذي بدأ مع نهاية السبعينيات، وكان يبتلع تجارب القطاع العام والمصانع الحكومية واحدة تلو الأخرى.

معرض صور

الفصل الثاني





محمد غانم صنايعي شركة النصر للتصدير والاستيراد



قيادات مجلس قيادة الثورة في حفل زفاف محمد غانم



قدَّم غانم لمكانة مصر في
أفريقيا ما لا يقل أهمية عمَّا
قدَّمه العمل الدبلوماسي



محمد غانم يقدم لعبد الناصر
بعض موظفي شركة النصر



لقطة حزينة لآخر محلات المشروع الذي أدخل الأحذية الرياضية إلى مصر

(٩) تجارب عربية ناجحة — اليوم من جمهورية مصر العربية

شاه ايران قال « برافو » .. لهذه الشركة المصرية !

كل ٧ أيام .. منتج جديد من البلاستيك فى السوق

وهذه قصة نجاح مصرية . تجربة رائدة أبطالها مهندسون وعمال مصريون .. بالاصرار والمثابرة اعترف العالم بنجاحهم .. وبفضلهم أصبحت مصر ثانى دول العالم بعد سويسرا فى صناعة الميلامين ..

ولنبدا على غير العادة بنهاية القصة .. بذلك المشهد الرائع عندما اجتمع حشد من مراسلى الصحف العالمية حول الامبراطور رضا بهلوى شاه ايران وهو يسلم جائزة « الكوكب الذهبى » العالمية لرجل بسيط قمحى اللون .. احمد مجاهد رئيس مجلس ادارة شركة البلاستيك الاهلية

بعد ان وقع اختيار اتحاد الصحافة الاوربية على شركة البلاستيك الاهلية لتفوز بالجائزة وهى تمثال من الذهب الخالص - بعد ان ابتكرت الشركة احسن طقمين ميلامين للمائدة فى العالم المعروفين باسم طوكيو وكوليو .. وبعد ان حققت الارقام القياسية فى معدلات الانتاج وانواعه واصبحت تغمر السوق المصرى بمنتج جديد من البلاستيك كل سبعة ايام ..

ونعود الى القصة من بدايتها .. ظلت مصر عشر سنوات - خلال الستينات - متخلفة فى صناعة البلاستيك وانحصر الانتاج فى الاصناف التقليدية القديمة - لكن شركة البلاستيك الاهلية بدأت ... خطة متكاملة لتطوير انتاجها وزيادته .. على ان يكون الهدف الاساسى مسايرة متطلبات المنزل المصرى الحديث واحتياجات مجتمعنا فى اطار خطة التنمية التى رسم ملامحها الزعيم المؤمن الرئيس محمد انور السادات .

استطاعت الشركة ... ابراج الماكينات العالمية لمصانعها فى شبرا الخيمة والجيزة والاسكندرية ... المهندسين والفنيين والموظفين والعمال ووضعت مئات من التصميمات المصرية لمنتجات البلاستيك ودارت عجلة الانتاج ...

وبدأت تغمر السوق المصرى بانواع مختلفة من منتجات البلاستيك المختلفة وبدأ المستهلك المصرى يعرف طريقه الى احدث انواع الميلامين ذات الالوان الجذابة والنقش لاول مرة ... الحمام ..

[illegible]

جائزة « الكوكب الذهبى » التى قدمها الامبراطور رضا بهلوى شاه ايران تقديرا لتفوق انتاج شركة البلاستيك الاهلية .

متتجاتها الى البلاد العربية الشقيقة اعتبارا من أول العام القادم .

وينتهى كلام رئيس مجلس الادارة .. ويبقى خبر صغير تناقلته وكالات الانباء العالمية .. لقد تم اختيار احمد مجاهد - رئيس مجلس ادارة شركة البلاستيك الاهلية ليكون نائبا لرئيس مجلس ادارة هيئة الف التابعة من اتحاد الصحافة الاوربية ممثلا لمصر من عام ١٩٧٧ وسيقوم سيادته مع هذه الهيئة بتسليم جائزة الكوكب الذهبى العالمية هذا العام الى الماريشال تيتو رئيس يوغوسلافيا فى احتفال كبير يقام فى بلغراد يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧٧ وكذلك الى حلقوس ٢٠٠ شركة عالمية فازت بنفس الجائزة والتى سبق لشركة البلاستيك الاهلية ان حصلت عليها سنة ١٩٧٦ .

كلمة حق
وزير الصناعة
وراء هذا النجاح

وانهى سيادته حديثه بان قال ان وراء كل هذا النجاح السيد المهندس عيسى شاهين وزير الصناعة والثروة المعدنية فهو الذى يرسم الخطوط العريضة لتطوير هذه الصناعة ويتابع تنفيذها اولا باول .

تغطية لأحد نجاحات البلاستيك الأهلية بقيادة أحمد مجاهد



فريق البلاستيك في عصره الذهبي







لقطات من مصنع ورنيش الكرة



رمضان شرش



علي شرش



تعبئة علب الورنيش



إحدى عاملات خط إنتاج أربطة الأحذية بمصنع شرش



هدايا الأعياد للقراء!!

كلها من إنتاج

الشوربجي

إعلان منتجات مصنع الشوربجي

شركة مصانع
الشوربجي
للغزل والنسج والتريكو

منتجات
الشوربجي

مصانع الشوربجي
هى أولى المصانع التى أدخلت
صناعة الجوارب فى الشرق العربى
أول صناعة تفوقت
على المنتجات الأوربية والأمريكية
فى السوق المحلية
برغم أنها لا تتمتع بحماية جمركية

فتارين مصانع شركة الشوربجي

الفصل الثالث

عبد العزيز علي وشركاه

صنايعية الشيبسي

(1)

في مكتب عبد العزيز علي كنت أجلس محملًا بالأسئلة.

قبل أن أفتح جهاز التسجيل سألني إن كنت أرى ما قدَّمه مهمًّا ويستحق أن يضاف إلى قائمة «صنايعية مصر».

بدأنا نفتش عن الإجابة معًا.

حتى منتصف السبعينيات كانت رقائق البطاطس عملًا منزليًّا، تحمرها السيدات في البيوت ويعبِّئنها في أكياس بلاستيكية رخيصة، ثم يقف بها الباعة المتجولون أمام المحلات التي تبيع مشروب «الكينا» أو بيرة «الستلا»، وأمام دور السينما. بضاعة رخيصة صالحة للاستهلاك حتى نهاية اليوم الذي أعدَّت فيه. بعد أعوام طويلة صارت كلمة «شيبسي» معبرة عن النوع أكثر منها علامة تجارية، أي رقائق من البطاطس داخل كيس اسمها الشعبي «شيبسي»، حتى التي تطهيها الأمهات في البيوت.

طلبت منه أن يساعدني في تقييم الدور الذي لعبته تجربة مصنع «شيبسي» بين المرحلتين.

كان العصف الذهني مفيدًا للغاية، منظومة زراعة البطاطس في مصر كلها تغيرت على يد عبد العزيز علي وشركاه، تطوير هذه الصناعة كان يحتاج إلى نوع معين من البطاطس، بحثوا عنه، ثم تعاونوا مع المركز القومي للبحوث في مصر ومراكز البحوث في هولندا حتى ثبّتوا أقدام هذا الصنف، وصارت الصناعة تعتمد عليه حتى اليوم، ثم خرج منه خط إنتاج بطاطس التصدير. طوروا صناعة التغليف، تضاعف حجم خدمة النقل، ودخل إلى مصر أسطول سيارات النقل المتوسط. تطور حجم الصناعات المساعدة التي كبرت وانضمت إلى سوق العمل بمرور الوقت: الملح، الزيوت، الكرتون، ثلاجات الحفظ، الأبحاث الزراعية.

تذكرت معلومة صادفتني في أثناء البحث: حجم السوق حسب آخر إحصائية يتجاوز 8 مليارات جنيه. سألته: «كم كان حجمه عندما بدأتم في نهاية السبعينيات؟». قال: «5 مليون جنيه». قلت: «لنبدأ».

(2)

تخرج عبد العزيز من الكلية الحربية في عام 1966.

على هامش حرب الاستنزاف تم استدعاؤه من الجبهة ليعمل مدرسًا في الكلية الحربية.

عرف أن صديقه محسن محجوب تعرض لإصابة ويرقد في مستشفى المعادي العسكري، فقرر أن يزوره في أول يوم إجازة. خرج من منزله في الهرم، ووقف ينتظر أتوبيس رقم 8. كان يخطط للنزول أولًا في شارع قصر العيني لشراء هدية لمحسن؛ نسخة من كتاب «إحياء علوم الدين». تأخر الأتوبيس على غير العادة، وفي أثناء وقوفه وجد سيارة تابعة للجيش بها اثنان يبحثان عنه بعد أن مرَّا عليه في منزله.

كانت الثغرة (أكتوبر 1973)، وتم استدعاء كثيرين من بينهم عبد العزيز. سافر ليدرب الجنود ويقودهم في استخدام مدافع الـ100 مللي لصد الدبابات.

تُلقي طائرات العدو نوعين من القنابل: نوعًا ينفجر فور سقوطه، ونوعًا عبارة عن شراك خداعية تنتظر ضحاياها. كانت تنتظره واحدة، وأصيب. سلبته الثغرة ساقه اليمنى من فوق الركبة، لكنها في المقابل منحته طريقًا جديدًا بخطوات واسعة.

عندما أفاق في المستشفى وجد محسن محجوب يجلس إلى جواره. كان زائره الأول.

(3)

عبد العزيز ومحسن صديقان من قبل الحرب، بعدها جمعهما قرار السفر للعلاج في إنجلترا في عام 1974، ظلّا يترددان عليها لمدة عامين، كانت حالة محسن الطبية تُدرَّس للأطباء هناك طوال الوقت، حالة رجل فَقدَ فكّه.

ما بين سفرية وأخرى كانا يفكران في المستقبل: اختار محسن أن يعمل في شركة طيران «إير إنديا»، وعثر عبد العزيز على عمل في مصنع لماكينات الكاشير؛ موظف شؤون عاملين بأربعين جنيهًا شهريًا. إضافة إلى ذلك قررا العودة إلى التعليم، فالتحق محسن بكلية الآداب، وعبد العزيز بكلية التجارة.

كانت فكرة «الأمن الغذائي» عمودًا فقريًا في سياسات السادات في هذه الفترة، يدعمها ويقدّم لها كل التسهيلات الممكنة. فكرا في مشروع مصنع للمكرونة، وتعرفا إلى رجل أعمال اصطحبهما إلى تركيا لتعلُّم الصناعة ونقلها، وهناك اكتشفا أنه نصاب، خدعهما ثم اختفى.

في إحدى سفريات العلاج إلى لندن أطلت فكرة البطاطس «الشيبس»، لكنها كانت صناعة مجهولة تمامًا، يصعب التعرف على بداية خيطها. قرر عبد العزيز أن يرجع إلى ما تعلمه في كلية التجارة، كان أحد أساتذته الدكتور عاطف عبيد، ومن بين الموضوعات التي كان يدرسها في إحدى المواد: «كيف

تنشئ مصنعًا جديدًا».

كانت نقطة الانطلاق من أكياس البطاطس الموجودة في محلات لندن، اشتريا بعضها، وسهرا يستذكران كل حرف مكتوب على ظهر كل كيس.

بطاطس وزيت وملح.

البطاطس، اجتهدا في معرفة كل معلومة متاحة: كيفية زراعتها، مواسمها، أنواعها، أماكن زراعتها في مصر، حجم الإنتاج، الأسعار، المناطق التي تقدم أفضل نوعية محصول.

الزيت، نوع واحد متاح في مصر وقتها: زيت بذرة القطن.

الملح الخارج من ملاحات مدينة رشيد له أفضلية.

أما ورق التعبئة والتغليف فلا بديل عن استيراده.

ملامح عريضة للمشروع، جمعها عبد العزيز ومحجوب في كراسة صغيرة كانا يتحركان بها طوال الوقت.

ثم ظهرت الحاجة للكلام عن ماكينات التصنيع.

في السفارة الإنجليزية عرض الشريكان كراستهما الصغيرة على أحد الموظفين وطلبا المساعدة، ولمدة ستة أشهر كانا يتلقيان صورًا لماكينات تصنيع عليهما أن يختارا التعاقد على واحدة منها، وكانت كلها لا تصلح.

راجع الشريكان الكراسة بحثًا عن تفسير لهذا الجهد الضائع، ثم عادا إلى الأكياس القديمة، واكتشفا أنهما كانا يطلبان الماكينات الخطأ.

ماكينات «بونيو شيبس» هي التي تصنع البطاطس الفرايز، لكن ماكينات الرقائق لها اسم آخر: «بونيو كرسب».

صوَّبا طلبهما، فوصلت عروض الماكينات المناسبة، وحانت لحظة البحث عن تمويل.

شخصان يفتشان عن تمويل لمشروع كبير. البداية تحديد حجم ما يمتلكه كل واحد منهما. كان ملخص الثروة 400 جنيه معاش القوات المسلحة، و1860 جنيهًا مكافأة نهاية الخدمة، سدد بها عبد العزيز مع مبلغ اقترضه ثمن سيارة «أوبل».

كانت البنوك الاستثمارية تضع قدمها في السوق المصري، لكن الحصول على دعمها لم يكن سهلًا.

(4)

توجَّه الشريكان إلى مكتب الدكتور عاطف عبيد، كان وقتها أهم مكاتب إعداد دراسات الجدوى في مصر. طلبا منه واحدة قد تساعدهما في الحصول على تمويل أحد البنوك،

سألهما عما قد يساعده في إعداد الدراسة، فوضعا بين يديه كراستهما الصغيرة.

في الزيارة التالية قال لهما عبيد إنهما قدما في هذه الكراسة كل شيء، وإنهما ليسا بحاجة إلى دراسة جدوى. عرض فقط أن يرتب الأفكار ويضيف إلى الكراسة دراسة للسوق، وقدم لهما جهده هدية، ورفض أن يتقاضى أجرًا، قال لهما: «تعبتوا وحاربتوا، ودي أقل حاجة نقدمها لكم».

دراسة جدوى من مكتب محترم، وعروض ماكينات تنتظر، وكراسة بها أدق تفاصيل الصناعة، لكن الشريكين شعرا أن ثمة ما ينقصهما، قال عبد العزيز: «ربما شركاء».

حمل الشريكان أوراقهما وطافا على بقية زملائهما في الجيش، واستطاعا أن يقنعا ثلاثة منهم، لكن كانت هناك مشكلة صغيرة: الاستقالة من القوات المسلحة لها شرطان، الإصابة أو الترشح لانتخابات مجلس الشعب.

جند الشركاء الثلاثة المحتملون أنفسهم في مراقبة الدوائر الانتخابية بطول مصر، في انتظار أن تخلو دائرة لأي سبب، ثم حمل أحدهم إلى الآخرَين في صباح أحد الأيام خبر وفاة نائب في مرسى مطروح، وفتح باب الترشح لانتخابات تختار من يخلفه. تقدم الثلاثة بأوراقهم إلى لجنة الانتخابات، ثم تقدموا باستقالتهم في اليوم نفسه.

في صفحة الكراسة الأولى أضيفت أسماء الشركاء الجدد: أحمد حازم حسني، عادل محمود خليل، منير عبد العزيز.

لكن البنوك لم تتحمس لمشروع لا توجد مرجعية لما يشبهه في مصر والوطن العربي.

كادت أن تتفرق المجموعة، لولا أن عائلة محسن محجوب كان بها شخص يعمل في الخليج، تحمس لما سمعه وقرر أن يضخ إلى المجموعة مبلغًا كبيرًا يدعمهم، فانضم شريك جديد: عباس زكي.

وبمحاولات فردية أخرى، استطاعت المجموعة أن توفر ما يقرب من 35 ألف جنيه، وكانت الأرض التي سيقام عليها المشروع بداية منطقية.

كان متاحًا وقتها تحويل قطعة أرض زراعية إلى مشروع أمن غذائي. بدأ البحث قريبًا من مزارع البطاطس، عثروا على قطعة أرض فدان ونصف في أبو صير، دفعوا 8 آلاف جنيه. بعد عدة أشهر اقترح محسن محجوب زيادة المساحة إلى أربعة فدادين، قالوا له إن دراسة الجدوى قالت إن فدانًا ونصف مساحة أكبر من المطلوب، لكنه أصر. لسبب ما كان سعر الأراضي في ازدياد، فباعوا الفدان ونصف واشتروا بثمنه أربعة فدادين، وتبقى مبلغ أضيف إلى رأس المال.

بعد شهور وصلت الدعوة لزيارة أكبر مصانع البطاطس في إنجلترا، وخطاب من شركة إنجليزية أخرى تخبرهم أن الماكينات التي طلبوها جاهزة.

سافر عبد العزيز ومحسن وهما مشغولان بما هو أهم من الماكينات؛ كانا يبحثان عن الحِرفة وكيفية التشغيل، وفي يقينهما أنه أمر بسيط.

(5)

شركة «جولدن وندر» هي الرائدة في المجال. بعد انتهاء الزيارة كان طلب عبد العزيز ومحسن بسيطًا: «نريد منكم أن تعلمونا الشُّغلانة».

بعد تفكير قالت الإدارة إنه لا مانع لديها، بشرط أن يدفع الشريكان مقابل التعليم، مضافًا إليه مقابل استخدام اسم الشركة العالمي في مصر.

كان الرقم كبيرًا، ولكن كانت الجرأة أكبر.

قال عبد العزيز: «لا أحد يعرفكم في مصر حتى ندفع لكم سعرًا لاستخدام الاسم! أعتقد أن «جولدن وندر» هي التي يجب أن تدفع لنا، لأننا سنصنع لها اسمًا في المنطقة. إحنا اللي هنشهركم».

كانت الفكرة صادمة، اعتبرها الإنجليز إهانة، قالوا لا نعمل مع أطفال، ثم طردوا الضيفين من المصنع.

كانت مقابلة الشركة التي ستوفر الماكينات في صباح اليوم التالي. هناك احتمال أن يعود عبد العزيز ومحسن إلى مصر بماكينات لا يعرفان طريقة تشغيلها، ولا أحد يعرف في الوطن العربي. يقول عبد العزيز: «ما بين قوة المستغني وقوة الجاهل الذي لا يعي جيدًا خطورة ما يقوله، جلسنا أمام شركة توريد الماكينات، وقلنا: شرطنا لإتمام الصفقة هو أن تعلمونا».

قال صاحب الشركة: «نحن نورِّد ماكينات، لا نبيع عِلمًا أو خبرة».

قال الشريكان: «هذا شرطنا، وإذا تعلمنا ونجحنا في مصر فسيكون الطلب عليكم أقرب إلى طوفان».

ثم طلب الشريكان من صاحب الشركة أن يفكر، وأمهلاه يومين مع التأكيد على أن «مش هنشتري المكن غير لما تدونا سر التشغيل».

بعد يومين كان صاحب الشركة يدخل على عبد العزيز ومحسن وبصحبته رجل قال إنه خبير استشاري في تصنيع البطاطس، وإنه فاوضه في الأجر، وقرر أن يسدِّد أجر

الاستشاري من إجمالي مبلغ صفقة الماكينات.

اصطحبهما الخبير إلى واحد من أكبر مصانع البطاطس في أيرلندا، وفصص لهما المهنة كاشفًا أدق الأسرار.

كان المطلوب 2 مليون جنيه إسترليني. ساعد كثيرًا أن الجنيه المصري كان بصحة جيدة وقتها (سعر الدولار 40 قرشًا). وافقت هيئة تنمية الصادرات الإنجليزية على تمويل الصفقة بشرط وجود ضمان بنكي من مصر، وبعد اتصالات ومحاولات وافق أحدث البنوك التي بدأت العمل في مصر وقتها (بنك أبو ظبي الوطني) على ضمان التمويل.

تحمس صديق المجموعة أستاذ الهندسة الدكتور حسن حسني، وأعد تصميمات بناء المصنع هدية، وتم العثور على مقاول «على قد الإيد». وصلت الماكينات، وبدأ التخطيط لاستقدام العِمالة والمواد الخام.

في هذه اللحظة دخل عليهم المقاول يطلب دفعة من أجل عزل السقف، مشددًا على أن غياب العزل سيكون خطرًا، فاقتنعوا بطلبه لكنهم فوجئوا أنه لم يعد في حوزتهم مليم واحد.

(6)

بدأت من جديد رحلة طلب القروض من البنوك.

كان السؤال بسيطًا: ما الضمانات؟

قال الشركاء: «الضمان الوحيد أن تختبرونا، لا توجد تفصيلة في هذا المشروع لم نستذكرها جيدًا، من نوع البطاطس إلى مقاسات كرتونة التغليف».

خاضوا نقاشات طويلة ولا شيء معهم سوى الكراسة، ودراسة للسوق تحمل اسم الدكتور عاطف عبيد، وخطوات بدأت من تحت الصفر حرفيًّا.

بعد جولات وافق «بنك المهندس» على تقديم قرض، ولأنه لا ضمانات حقيقية سوى استعداد الشركاء للمشروع، منحهم القرض بضمان الإدارة.

بعد وصول التمويل أصبحت الخطوة الأهم هي العِمالة، هذه مهنة جديدة بمفاهيم عمل غير شائعة. كان القرار هو اختيار الشخص الصالح للتعلُّم. تحتاج هذه الصناعة إلى عنصرين في غاية الأهمية: الدقة، والنظافة. جرى العمل على أن يتقنهما الجميع، ثم قررت الإدارة أن يسافر العمال لزيارة مصانع البطاطس الكبيرة في إنجلترا ليتعلموا نظام الشُّغلانة على أصوله. اعترض البعض قائلًا: «عيال ما بتعرفش تقرا وتكتب هتسفروهم إنجلترا؟». كانت الفكرة مهمة، لكنها بحاجة إلى ترتيب وصياغة تقلل التكاليف ولا تقلل عظمة

الفائدة. وجّه الشركاء الدعوة إلى مدير أحد هذه المصانع ليزور مصر مع زوجته، وكان في انتظارهما برنامج لا شيء فيه سوى الاستمتاع بمصر وآثارها. كان مردود الدعوة عظيمًا؛ أرسل الشركاء إلى لندن شخصًا واحدًا من كل قسم، وهناك رد لهم مدير المصنع البريطاني كرم الدعوة وواجب الضيافة، ولم يسمح لهم بالعودة إلا بعد أن هضموا كل تفصيلة صغيرة في الصناعة.

بحثًا عن اسم كانت البداية «جولدن شيبسي»، ثم اقترح أحدهم حذف «جولدن». واعتمد الشركاء على ضابط صاعقة تعرف عليه عبد العزيز ومحسن في مستشفى المعادي عندما تشاركوا كلهم غرفة واحدة كمصابي حرب، كان اسمه «صقر محمد»، مقاتل صاحب مَلَكة فنية صمم لهم «اللوجو» وشكل العبوة، وأقنعهم أن يكون في الكيس جزء شفاف تُرى من خلاله البطاطس بلونها الذهبي.

زيت عباد الشمس من معمل في مدينة العياط، البطاطس من تجار الدلتا، ورق التغليف من أحد المصانع التابعة لبنك فيصل، كرتون التعبئة من «برتي بدار»، والمصنع في أبو صير.

اعتمدوا على مخرج شاب في تصوير إعلان تلفزيوني داخل المصنع، واختاروا شعارًا بسيطًا: «بطاطس طبيعية

حلوة وجديدة ومغذية». ثم كان القرار الجريء أن يتم البيع بنظام الدفع مقدمًا.

كان رفض فكرة البيع الآجل مبعثه ندرة السيولة المادية في حوزة الشركاء. خاف البعض أن يرفض السوق الفكرة، وقال آخرون: «إشمعنى السجاير لم يرفض السوق بيعها بهذه الطريقة؟». تركوا الأمر للتجربة، وكانت المفاجأة أن نظام البيع «كاش» منح المُنتج كاريزما وجاذبية، وجعل السوق يتعامل معه بجدية والتزام؛ استقر في يقين السوق أن أصحاب «شيبسي» ناس مستغنية، فتراصت الطوابير أمام منفذ التوزيع.

بدأ الإنتاج بخط صغير يقدم 300 كيلوجرام يوميًا (كل 4 كيلو بطاطس يخرج منها كيلو واحد شيبسي). وكانت الخطة وردية عمل واحدة تصبح ثلاثًا بعد ستة أشهر، وبعد سنة تتم دراسة قرار تركيب خط إنتاج ثانٍ. تغيَّر كل هذا منذ اليوم الأول؛ ضغط العمل جعل الورديات الثلاث نظام المصنع من أول أسبوع، وبعد ستة أشهر تم تركيب خط الإنتاج الثاني (750 كيلوجرامًا)، وبعد سنة تم تركيب الخط الثالث (1000 كيلوجرام).

لم تكن هناك ثغرة يستطيع أن يتسلل منها منافسون إلى السوق، لأن الشركاء وضعوا للمنتج هامش ربح لا يقوى أحد

على المخاطرة بمنافسته. كان سعر الكيس عشرة قروش، وهو نصف سعر عبوة «مناديل الجيب الورقية»، وكانت أيضًا وقتها منتجًا جديدًا يغزو السوق بقوة. سُعِّر كيس «شيبسي» بهامش ربح 1% في وقت لا تغامر فيه أي شركة بطرح منتج يحقق هامش ربح يقل عن 30%، فاختفى المنافسون، لكن النجاح كان مغريًا وثمة أبواب خلفية يمكن التسلل منها.

(7)

بعد أربع سنوات من النجاح ظهر أول منافس في السوق.

اجتمع الأصدقاء واكتشفوا أن المنافس خرج من قلب تجربتهم، كان شريكهم الذي تولى مسؤولية المشتريات منذ بداية العمل. لاحظوا أنه يعمل بجد لكن لا يبدو عليه أنه يشعر بالراحة أو الاستقرار لأسباب غير مفهومة، ومع ظهور المنتج الجديد «كرسبي» عرفوا أنه يشارك آخرين منذ أكثر من عام لتأسيس المنتج الجديد اعتمادًا على خبرته، انفصل عنهم وتفرغ لمنتجه الجديد، لكنها كانت تجربة قصيرة العمر لم تحقق نجاحًا.

في المرَّة الثانية ظهر وكلاء شركة «لايز» العالمية، وطلبوا صراحةً الشراكة وشراء نصيب في التجربة. سافر الشركاء إلى إنجلترا، واستمرت الاجتماعات والمناقشات لأيام طويلة كشفوا خلالها كل أوراقهم وكل تفاصيل الصناعة والسوق في

مصر. قالت «لايز»: «سندرس كل شيء ونرد عليكم خلال أسبوعين». اختفوا لفترة ثم عرف الشركاء أن «لايز» اشترت قطعة أرض كبيرة لتقيم عليها مصنعًا في مدينة العبور، بعد أن استدرجوا الشركاء ليخبروهم بأدق تفاصيل السوق المصري، قالها أحد الشركاء صريحة: «ضحكوا علينا».

ظهر منتج «لايز» في الأسواق بحملة دعائية بطلها محمود الخطيب، وسريعًا ما سحبوا من مبيعات «شيبسي» ما يقرب من 25%، وكان واضحًا أنها نسبة قابلة للزيادة في وقت قصير.

كان الوضع يحتاج إلى تدخل سريع، أو ربما بداية جديدة.

(8)

اتفق الشركاء على أن تفوق المنافس وسيطرته السريعة على السوق تعود لكونه يقدم جودة أفضل.

على هامش التجربة استقر يقين الشركاء على أن الاستثمار الأفضل في صناعتهم سيكون بدعمها بالتوسع في زراعة البطاطس، وطوروا المحصول حتى نافسوا على الصدارة في التصدير إلى الدول الأوروبية.

كانت الخطوة الأولى في تطوير الجودة هي إيقاف التصدير، وتوجيه الخامات الجيدة للتصنيع المحلي،

والاستفادة من خبرات الانفتاح على عالم هذه الصناعة بحضور المؤتمرات وحلقات المناقشة ومتابعة أبحاث تطوير الماكينات.

غرفة عمل مغلقة استمرت ستة أشهر، اشتغل فيها الجميع على تطوير الجودة، حتى وصلوا إلى نتيجة مُرضية، وكانت الخطوة الثانية هي الاعتراف بالخطأ.

قالوا للجميع بصراحة إننا لم نكن نقدم الأفضل لكن الأمور تغيرت، وكان شعار الحملة الإعلانية «الكيس زي ما هو، والبطاطس بقت أحلى جوه»، وكان واضحًا أن السوق احترم هذه الصراحة وتعاطف معها.

لم يكتفِ الشركاء بهذه الفكرة، وقرروا أن يربطوا الناس عاطفيًا بالمنتج، فلم يجدوا أفضل من لمسة لها علاقة بتأجيج العاطفة الوطنية والانحياز لمنتج مصري في منافسة منتج يحمل جنسية أخرى، فجاءت الحملة التلفزيونية بأغنية تقول:

بنهاوي إسكندراني

لو بحيري أو قناوي

سيناوي أو جيزاوي

منوفي أو أسواني

من أي حتة تكون

هتدوق وتقول

شيبساوي على طول

وتم تصوير الحملة بعيدًا عن العاصمة، في قلب الأقاليم، وكانت مكافأة هذا الاجتهاد أن تم ربط الحملة بحدث عالمي على أرض مصر: «بطولة كرة العالم لليد»، كان المنتج راعيًا محملًا بحس وطني، فاستقر النجاح سريعًا واستعاد معه الشركاء ما سلبه المنافس في غمضة عين، حتى إن مدير شركة «لايز» دخل عليهم المصنع ذات يوم قائلًا: «شوفوا لكم حل، لم نعد قادرين على المنافسة».

(9)

«نأكل جميعًا في طبق واحد، ونموت على خط مواجهة واحد، ولا مجال لشيء غير الجدية والانضباط والعدل».

قال لي عبد العزيز علي إن ما تعلمه الشركاء في الجيش كان فارقًا معهم في تجربة «شيبسي».

شعر العمال أنهم أصحاب مصنع، فاندمجوا في العمل لثلاث ورديات بسهولة، ارتبطوا بالمشروع وشعروا أنه «في

ضهرهم»، العلاج لم يكن للعامل فقط لكن لكل أفراد أسرته، المصنع والصناعات المغذية له في مدينة واحدة صغيرة يتعامل أهلها مع كل تفصيلة باعتبارها تخصهم شخصيًّا، كل عام يتم اختيار بعض الأسماء لتأدية فريضة الحج على نفقة المصنع، حتى جاء العام الذي لم تجد فيه إدارة المصنع شخصًا لم يؤدِّ الفريضة.

لم تكن مجرد تجربة صناعة، كان المكان يصنع الخبرة ويعلِّمها وينقلها إلى آخرين، يتوسع في الزراعة، وفي صناعة التغليف، وإنشاء ثلاجات البطاطس، وتطوير الميكنة، وتحسين ظروف العمل، والاستثمار في المستقبل، لم تعد كلمة «شيبسي» مجرد اسم لكيس بطاطس لكنها تحولت إلى اسم للصناعة.

قال المنافس: «شوفوا لكم حل»، وطلب الاندماج.

قال الشركاء: «لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين، سنقبل الطلب إذا جاء من رئيس مجلس إدارة شركة بيبسي العالمية المالكة لـ«لايز»، وفي مقابلة شخصية». كان الشرط صعبًا، لكن لم تكن هناك اختيارات أخرى.

سافر الشركاء لمقابلة رئيس الشركة العالمية هذه المرَّة محملين بدعم مكتب محاماة فرنسي وخبراء تقييم مشروعات من مصر ودول أخرى وفريق تفاوض. عرضت

الشركة العالمية الاندماج وشراء النصيب الأكبر، عرض الشركاء أسعارهم وشرط الاحتفاظ بحق الإدارة، ثم جاءت الموافقة سريعًا.

تم الاندماج الذي احتفظ فيه الشركاء بنسبة 17% والإدارة في عام 2002، وبعد عام اندلعت الانتفاضة الفلسطينية، وأُعلنت حملات المقاطعة لمنتجات تخدم الكيان المحتل من بينها «شيبسي» بشراكته مع «لايز». اجتمع عبد العزيز علي، ومحسن محجوب، وعباس زكي، وطلبوا مقابلة الإدارة في لندن، وهناك قالوا: «سنفض الشراكة». كان السؤال عن السبب، وكانت الإجابة: «نحن لسنا رجال بيزنس في الأصل، نحن رجال عسكريون، ولا معنى للاستمرار في الشراكة معكم في مثل هذه الظروف».

بعد مداولات ورفض مستميت رضخت الشركة العالمية للمطلوب، واشترت نصيب الشركاء بشرط التعهد بعدم تصنيع أي منتج منافس لمدة خمس سنوات.

كان الشرط سهلًا لأن كل من شارك في التجربة كان يعرف أنها لمست نجاحًا لا شيء بعده.

(10)

أودِّع عبد العزيز علي، وأشكره على الحكايات، يسبقني

بخطوة باتجاه باب مكتبه، وكنت مفتونًا بـ«زكة» خفيفة في خطوات هذا المقاتل.

قلت له إن التجربة تدعو للفخر، وإن الرحلة كانت مرهقة بلا شك، قال: «الرحلة لم تنتهِ حتى أستطيع أن أقيِّمها. أؤمن تمامًا أن «الشُّغل الكبير» لم يبدأ بعد».

بعد بيع نصيبهم في «شيبسي»، كوَّن الأصدقاء شركة هدفها دعم كل من لديه فكرة مشروع منهم، بفكرة بسيطة أن المكسب سيعم على الجميع، والفشل ستتحمله الشركة، ونتج عن هذا الكيان شركة المصريين للصناعات الغذائية، ومشروع استصلاح أراضٍ في الوادي الجديد، وشركة ابن سينا لتوزيع الأدوية. اتجه أحمد حازم لنشاط صناعة الحلويات، واتجه عباس زكي لبيزنس الوسائل التعليمية، ثم اشترك عبد العزيز علي ومحسن محجوب في تكوين جمعية «مصر الخير» كعمل تطوعي. يقول عبد العزيز علي إن الجمعية أصبحت عمله الأساسي، أما وقت الفراغ فهو لبيزنس جديد اتجه له وهو تصنيع رقائق البطاطس المخبوزة.

«ستلا» في ألبومات الصور العائلية

تعامل المصريون لفترة طويلة مع مشروبَي «الكينا» وبيرة «ستلا» باعتبارهما من المشروبات المنعشة والمقوية وفواتح الشهية، لم يصنفهما الوعي العام كخمور حتى منتصف السبعينيات. كانت «الكينا» تُباع في محلات البقالة وتملأ إعلاناتها الشوارع والصحف والتلفزيون (كان هناك إعلان الرسوم المتحركة الشهير في بداية السبعينيات «كينا أمبريال أنا عبد العال بطل الأبطال»). وكانت إعلانات «ستلا» في كل مكان: الصحف، وجدران المباني الضخمة. يسوق لها في إعلانات تجارية نجوم مثل فريد الأطرش، وكانت تقدم بكل أريحية وترحيب في المقاهي والنوادي وكافتيريات الجامعات، وتظهر صور فوتوغرافية في مختلف الألبومات العائلية على امتداد مصر لجلسات عائلية تضم الكبار وسيدات العائلة في الشرفات وعلى الشواطئ تتراص فيها زجاجات «ستلا» أمامهم.

مع بداية المد الديني بسماح من السادات، علت نبرة ضم هذه المشروبات التقليدية إلى الخمور. كانت الهجمة قوية، حتى إن شركة «كينا» كانت تقاوم بعرض إعلانات لمنتجاتها في الصحف على هامش الاحتفال بالمناسبات الدينية، فظهرت إعلانات «كينا» تهنئ الأمة الإسلامية بالمولد النبوي

أو رأس السنة الهجرية. لكن الحرب كانت قصيرة العمر، وأنهتها مبكرًا الفتوى رقم 6532 الصادرة من دار الإفتاء المصرية في مطلع عام 1976، وكان نصها:

ثبت من التقرير المؤرخ 18/4/1976م، الذي أرسلته إلينا الإدارة العامة للمعامل المركزية بوزارة الصحة بعد تحليلها لمشروب الكينا بمختلف أسمائه التجارية الواردة بالتقرير، أن هذا المشروب يحتوي على مادة الكحول الموجودة بالخمر المُسكِرة المحرمة شرعًا بالنِّسب السابق ذكرها والمنصوص عليه شرعًا أن ما أسكر كثيره فقليله حرام، أسكر أو لم يُسكر، مما يجعل شراب الكينا الحديدية من الأشربة المحرمة شرعًا ويحرم تناوله.

احتضنت الصحف الفتوى وتم الاحتفاء بها مع بعض التربص بأي شخص قد يجرؤ على الوقوف في وجه فتوى شرعية، فبدأت أسهم «الكينا» تتراجع بمرور الوقت حتى اختفت تمامًا.

قاومت «ستلا» هذا المصير، ولم تصدر بشأنها فتوى، ربما لأنها كانت مشروبًا شعبيًا تصنعه الحكومة، بعد أن قام جمال عبد الناصر في عام 1963 بتأميم ثم دمج شركتَي «كراون»، و«بيراميد» اللتين بدأتا تصنيع البيرة في مصر مع نهاية القرن التاسع عشر.

فكرة التأميم لم تبدأ من عبد الناصر، ولكن ـ حسب مقال الباحث عمر فودة: «صناعة البيرة المصرية تشرب نخب تاريخها العريق» ـ بدأت من الموظف إسماعيل حافظ (مصنع بيراميد للبيرة)، حينما قال لناصر في محادثة خاطفة على هامش افتتاح المعرض الصناعي والزراعي المصري في الثالث من يناير 1960: «مما لا شك فيه أن كل مجموعة من الأشخاص تحتاج إلى ما ترفِّه به عن نفسها. مثلًا هناك العرَق في تركيا ولبنان. نتمنى أن تصبح البيرة المشروب الشعبي في مصر لأن المصريين القدامى هم أول من صنَّعوها».

تم التأميم ثم الدمج في شركة الأهرام للمشروبات، وأسندت إدارة الشركة الجديدة إلى المهندس إسماعيل عمر فودة ـ إخصائي علوم الأحياء المجهرية وخريج جامعة بيركلي. حقق فودة بنجاح كبير أمنية إسماعيل حافظ في منح «ستلا» فرصة أن تكون مشروبًا شعبيًّا يسيطر على السوق المحلي، ويشارك في الاحتفالات الوطنية بإقامة الديكورات وتعليق اللافتات الضخمة في الميادين الرئيسية، حتى أغسطس 1976.

في هذا التاريخ أقر مجلس الشعب القانون 63 لسنة 1976 بعنوان «قانون حظر شرب الخمر». وضع هذا القانون البيرة في تصنيف الخمور (مع الويسكي والبراندي والفودكا

والكينا، وغيرها)، ومنع تقديمها في الأماكن العامة أو المحال العامة، مع استثناء الفنادق والمنشآت السياحية والأندية الاجتماعية أو الرياضية ذات الطابع السياحي، مع حظر الإعلان عن المشروبات المنصوص عليها بأي وسيلة، ويعاقب بالحبس ستة أشهر وإغلاق المحل المدة نفسها من يخالف هذا القانون، والعقوبة نفسها تقريبًا لمن يتم ضبطه في حالة سُكر.

أين اختفت الوجبة الشعبية؟

بدأت أخبار مشروعات الأمن الغذائي تظهر في الصحف مع فبراير 1978، بعد عام واحد من انتفاضة الخبز التي خرج فيها المصريون يعترضون على زيادة أسعار بعض المواد التموينية في مظاهرات تصادمية أطلق عليها السادات «انتفاضة الحرامية»، ربما كان الغرض من هذه التسمية حفظ ماء وجه الرئيس، لكنه كان يدرك تمامًا أن الجوع قد يكون مهلكًا للجميع.

قرر السادات أن الأولوية ستكون لتوفير الغذاء لكل أفراد الشعب، مع التشديد على توفيره من أرض مصر، فخرجت مشروعات كثيرة تحت عنوان «الأمن الغذائي»، كان من بينها مشروع «الوجبة الشعبية».

في البداية قرر السادات أن يطوف محافظات مصر كلها لدراسة قدرات إنتاج الطعام المختبئة: من أسوان مع قرارات بمزارع الأسماك في بحيرة ناصر، مرورًا بالوادي الجديد وتسهيلات استصلاح الأراضي، نهاية بالدلتا ومشروعات التسمين. وقرر اقتطاع 25% من أرباح القطاع العام المصرفي لتمويل هذه المشروعات، مع تخفيض الفائدة على قروض أي مشروعات تحت هذا العنوان إلى 6%، على أن تتحمل الدولة فرق الفائدة.

انطلقت المشروعات بطول مصر وعرضها، مع زيارة يومية يقوم بها السادات لمواقع العمل المختلفة: مشروعات تسمين الماشية أو الدواجن، مصانع عصر بذرة الكتان (لإنتاج الزيت الحار)، المزارع السمكية، مزارع بيض المائدة، ثم بدأ العمل على الوجبة الشعبية.

فكرة الوجبة الشعبية تقوم على تقديم وجبة غذائية رخيصة ونظيفة وغنية بالبروتينات تناسب كل الطبقات وكل الدخول، وجبة تماثل الوجبات المجمدة التي يتم تقديمها في الطائرات.

تتراوح الأسعار بين 6 قروش للوجبة الشعبية (تحتوي على الفول والطعمية أو الكشري)، و35 قرشًا للوجبة المتوسطة (لحم أو دجاج أو سمك مع الأرز أو المكرونة والخضار)، و200 قرش للوجبة الفاخرة التي تكفي أكثر من ثلاثة أشخاص. ستكون الوجبة طازجة بعد تجهيزها وحفظها داخل ثلاجات معدة للمشروع في بور سعيد، وسيتم توزيع الوجبات على مصر كلها باستخدام أسطول من عربات النقل، بالإضافة إلى عربتين «ثلاجة» سعة كل واحدة 18 طنًا.

تقرر أن تكون مقرات التوزيع هي مراكز التجمعات، مثل: الجامعات، والمصانع، وفي ميدان التحرير، وميدان رمسيس. وسيتم وضع الوجبات المجمدة الجاهزة داخل جهاز تسخين

«ميكروويف» باستطاعته تسخين 600 وجبة في الدقيقة الواحدة، لتوزيعها على الناس طازجة وساخنة. وتم الاتفاق مع شركة بريطانية (كاسكو) أرسلت وفدًا من خبراء التغذية لمتابعة تأسيس عمليات الطهي والحفظ والتوزيع بتكلفة 2 مليون دولار.

سارت الأمور في البداية على نحو جيد، توفرت المنتجات، واختفت الطوابير، وقدمت كميات كبيرة من الوجبة الشعبية للقوات المسلحة بسعر 31 قرشًا للوجبة.

لكن ثمة تفاصيل صغيرة لم تخضع لدراسة جدوى مُحكمة، أدت إلى ضعف الفكرة بمرور الوقت، وتحوُّلها إلى عبء: زادت كمية إنتاج مشاريع التسمين، وارتفعت معها تكلفة تغذية الماشية والدواجن، كان استيراد العلف صعبًا، وتحوَّل الإنتاج الكبير إلى مشكلة، فبدأ التجار في التخلص من المواشي بذبحها في سن صغيرة، وعلى الرغم من ذلك لم تنخفض الأسعار. أما شركات الدواجن فبدأت تخفض إنتاجها لأنها كانت تواجه يوميًا مشكلة إطعام 100 ألف كتكوت. في الوقت نفسه، كانت وزارة التموين تطرح في المجمعات الاستهلاكية الدواجن المجمدة فانخفضت الأسعار بشكل سبَّب خسائر لأصحاب المزارع.

أما الوجبة الشعبية فتعثرت بسبب استحالة بيعها بالأرقام

التي تحدث عنها المسؤولون. وجد المتخصصون أن أدنى تكلفة لإنتاج الوجبة ستكون 28 قرشًا (بأسعار الفترة)، بخلاف تكلفة مواد التعبئة والتغليف التي بدأت أسعارها ترتفع يوميًا بعد الإعلان عن المشروع. وبمرور الوقت كانت الهوة تتسع بين الأسعار التي تم تحديدها مسبقًا وبين تكلفة إنتاج الوجبة. قرر بعض الشركاء العاملين في المشروع أن يساهموا في تحمل هذا العبء المالي مقابل الحصول على الخامات بسعر مدعم، فحصلوا على الوعد لكنهم لم يحصلوا على الأسعار الجديدة. تضخمت الخسائر، خاصة مع ارتفاع فوائد البنوك على الشركة المنتجة بمرور الوقت، حتى وصلت إلى نصف مليون جنيه، وهو دين مرهق بأرقام الفترة. مع الوقت خفت صوت الحماس للفكرة إلى أن اختفى تمامًا.

بانوس زيريتس
صنايعي المناديل الورقية

حضرت واحدة من لحظات المواجهة بين الجديد والقديم، كانت المناديل بطلتها.

احتفال بنجاح أحد أفراد العائلة في انتخابات مجلس الشعب، فرحة كبيرة، ووفود مهنئة في مضيفة العائلة. وصل أحد رجال العائلة من جيل الوسط، يرتدي بدلة، وفي جيب الجاكيت العلوي كان يطل منديل ورقي زهري اللون. لفت المشهد نظر والده الحاج السبعيني، سأله عما يضعه في جيب الجاكيت، فأخرجه الابن وعرضه على الوالد الذي ألقى عليه نظرة سريعة ثم كوَّره بقبضة يده وألقاه بعيدًا، طالبًا من الابن أن يحترم وجود ناس غريبة في الاحتفال، وأن يذهب ليضع في جيب الجاكيت منديلًا حقيقيًّا «زي الرجالة المحترمين».

على هامش الحرج بدأ الأب يتحدث لأشخاص لا نراهم عن المناديل التي كانت قطعة إكسسوار رجالي وحريمي جديرة بالاحترام، المصنوعة من القطن، أو الحريرية المزينة بفصوص من الماس. حكى عن الليالي التي قضاها جيله يحاول أن يصنع من المنديل في جيب الجاكيت العلوي

سلسلة أهرامات مثل التي كانت تطل من جيب جواكت عبد الناصر، عن المناديل التي وُدِّع واستُقبل بها الحبايب في المطارات والموانئ، عن السحر في ألوان المناديل التي كانت تنام في قبضة أم كلثوم وهي تغني، عن رصة المناديل مكوية في الدولاب كدليل على وجود رجل في البيت. وبعد أن أعلن فخره باحتفاظه بالمنديل الذي غطى مصافحة عقد قرانه قبل خمسين عامًا حتى اليوم، سأل الموجودين إن كان جائزًا شرعًا أن يستحل أحدهم بنات الناس باتفاق يشهد عليه منديل ورق! كان مستعدًّا لأن يسترسل في الحديث عن صدمته إلى ما لا نهاية لولا أن قطعَ الكلامَ وصول المهنئين.

غضب أشعله دون أن يقصد الخواجة اليوناني بانوس زيريتس، أسطورة صناعة المناديل الورقية العالمي.

بدأ اليوناني بانوس زيريتس حياته مهندسًا كيميائيًّا. تعلَّم خلال سنوات دراسته في كلية الهندسة بأثينا أربع لغات (الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية)، وفي عام 1957 بدأ العمل في أحد مصانع الورق اليونانية، وبعد أعوام قليلة تولى مسؤولية خط إنتاج المناديل الورقية في الشركة التي أصبح مديرًا لها بعد عشر سنوات.

حقق نجاحًا صنع له شهرة عالمية في تقديم الاستشارات في المجال نفسه للمصانع الناشئة في إيطاليا وتركيا وجنوب

أفريقيا وطهران وليبيا ولبنان. ومع نهاية عام 1979 أنشأ زيريتس أول مصنع باستثماراته الخاصة في اليونان، وأطلق عليه اسم «ديانا»، واشتهر بقدرته على رفع معدل الإنتاج الشائع وقتها من 3 آلاف طن في العام إلى 25 ألف طن وأحيانًا أكثر.

إلى أن زار مصر مع بداية الثمانينيات في مهمة عمل هدفها الارتقاء بمجموعة صغيرة من خبراء صناعة الورق، وتطوير مشروعها لإنتاج الورق الصحي والكرتون المضلَّع.

وقع زيريتس في غرام مصر، وقرر أن يجد لنفسه مكانًا أكبر من مجرد استشاري. في عام 1987 بدأ في إنشاء شركة «فلورا» (مصانع الأهرام للورق) كشركة مساهمة مصرية بالتعاون مع شركاء محليين وبالتعاون مع بنك مصر إيران باستثمار 13 مليون دولار (وهو بنك أنشئ في عام 1975 قبل قيام الثورة الإسلامية في إيران بتعاون بين البلدين، وظل محافظًا على اسمه حتى تم تغييره مؤخرًا إلى «ميد بنك»).

بعد فترة قصيرة ظهرت في السوق المصري منتجات «فلورا» تحت الشعار الإعلاني الشهير «ناعمة وقوية وكلها حنية». كانت مسألة النعومة أمرًا يجتهد فيه زيريتس بعيدًا عن كونها جملة للدعاية. طور الصناعة بما يكفي للاعتماد

على لب الشجر الطبيعي بمعزل عن أي كيماويات مثل الكلور. وكان في الوقت نفسه مشغولًا بعنصر البيئة، فقلل إلى حدٍّ كبير من فقدان الماء والطاقة والألياف، إلى أن نجح في النهاية في تصنيع منتجات صديقة للبيئة من الورق المعاد تدويره.

مع منتصف الثمانينيات كانت فكرة المناديل الورقية قد انتشرت بأسرع مما قدر صناعها. رحَّب بها المصريون من دون سابق معرفة. بدأت المنافسة سريعًا، ولكن استطاع زيريتس أن يفرض تفوقه بفكرتين انفرد بهما: علبة مناديل الجيب، والمناديل المعطرة. احتلت مناديل «فلورا» الورقية رفوف المحلات والأكشاك وحقائب المدارس وشنط السيدات بسرعة جنونية. عثر فيها المصريون على حل عملي وسريع يقلل المهام المنزلية (الغسيل والكي)، ويمكن استخدامها بدون المخاوف الكلاسيكية المرتبطة باستخدام المناديل القماشية: البقع، الفقدان، حمل العدوى، آثار الخيانة الزوجية.

على الرغم من امتلاك زيريتس لمصانع مشابهة ناجحة في أماكن أخرى، مثل بلغاريا والمجر واليونان، فإنه سعى إلى أن يكون مصنعه في مصر نقطة تحول عالمية، فابتكر نظام تصنيع جديدًا بإنتاجية 50 ألف طن في العام. وبعد وقت قليل أصبحت مصانع الأهرام خامس أكبر منتج للمناديل

الورقية في أفريقيا.

كان زيريتس مخلصًا لتجربته في مصر، ومتعلقًا بها، ودائم الحضور في مصر بحكم استثماراته، ثم أصبح موجودًا بها معظم الوقت بعد أن تولى مهام منصبه رئيسًا لمجلس الصناعة المصري اليوناني، حتى تُوفِّي في أكتوبر 2017.

معرض صور

الفصل الثالث



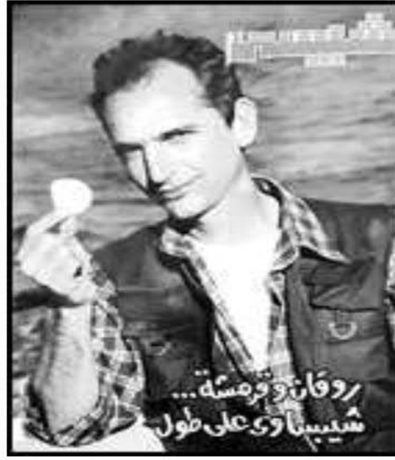
صنايعية الشيبسي في بداية الطريق



مصنع شيبسي في أبو صير في نهاية السبعينيات



عبد العزيز علي راوي القصة



صورة من الحملة الإعلانية التي استعادت بها شيبسي مكانتها



المصنع في منتصف الثمانينيات بعد التوسعة



صنايعية الشيبسي وابتسامات رضا احتاجت إلى كثير من الوقت والمجهود



الأهرام

١٤ صفحة

٢٠ مليما

السـادات يؤكد توافر امكانيات هائلة لنجاح استراتيجية الأمن الغذائى

تقرير الى الرئيس عن امكانيات التوسع
فى زراعة ٧٥٠ ألف فدان بواحة الفرافرة

أحد مانشيتات الصحف التي كانت تتابع يوميًا أخبار ثورة الأمن الغذائي



شركة «ستلا» بعد التأميم تشارك بماكيت ضخم في وسط المدينة في الاحتفال بالعيد الحادي عشر لثورة يوليو



كانت «ستلا» تُقدَّم في الإعلانات بوصفها مشروبًا مغذيًا يحتوي على قيمة غذائية، كما هو موضح في الرسم

كل عام
وانتم
بخير
فى ذكرى
المولد النبوى الشريف

خرشوف
كينا رومانى بالخرشوف
أجود وأحدث
مشروب صحى
مقوى وهاضم سريع
شركة سفير للتجارة بالقاهرة ت ٨٦٣٩٢٠

خرشوف
كينا رومانى بالخرشوف
أجود وأحدث مشروب صحى
مقوى وهاضم سريع
شركة سفير للتجارة بالقاهرة ت ٨٦٣٩٢٠

لنفي السُّمعة التي بدأت تطارد مشروب «كينا» وتعتبره من الخمور، بعد سنوات كان فيها «مشروب مقوي وهاضم سريع»، حرصت الشركة على أن تكون أول المهنئين بالمولد النبوي الشريف في إعلانات الصحف



بانوس زيريتس
صنايعي المناديل الورقية



زيريتس مع رئيس اليونان



صورة من الحملة الإعلانية لمناديل «ناعمة وقوية وكلها حنية»



صورة من الحملة الإعلانية لمناديل «ناعمة وقوية وكلها حنية»

الفصل الرابع

عادل جزارين
صنايعي السيارات

(1)

سوهاج 1985.

تلقى أبي اتصالًا هاتفيًا يطلب منه سرعة التوجه إلى القاهرة لاستلام السيارة الـ«128» التي قام بحجزها قبل فترة طويلة. التكاسل قد يعني ضياع الدور في الاستلام والانتظار من جديد. عدد السيارات الموجودة في محيط العائلة والجيران محدود، سيارة الجار «نصر 125»، سيارات الأقارب «نصر 1100»، و«نصر 1300»، وعدة نسخ من موديلات أقدم للـ«فيات 128»، الأقارب العائدون من الخليج تصطف تحت شرفات منازلهم «البيجو الستيشن» و«التويوتا الكرسيدا» و«الهوندا سيفيك»، وكانت جميعها تخضع لمنطق المصلحة العامة. ذهبنا إلى مدارسنا وأفراحنا وليالي العزاء والمصيف متنقلين بين كل هذه الموديلات، لكن أن يكون تحت يدك مفتاح سيارة منها فهذا حلم المراهقة الذي لم يتحقق إلا بعد عودة أبي بالسيارة، كان قد سافر وتركنا نتساءل كيف سيعود بها من القاهرة ولا أحد منا قد سبق له أن رآه يقود واحدة.

اختار الأب للسيارة اللون الأحمر بطلب من الأم، وعاد بها ليلًا، قطع 600 كيلومتر بدون لوحات معدنية وبدون رخصة قيادة وبدون سابق معرفة وثيقة بالموضوع. انضم إلى العائلة فرد جديد نعمل له حسابًا، وصار جزءًا من حياة الواحد الشخصية. تعلمت عليها القيادة. سافرنا بها ذهابًا وإيابًا عدة مرات في رحلة الصيف إلى الإسكندرية. انتقلنا للعيش في مدن أخرى بحكم عمل الوالد وهي تشاركنا الرحلة. رافقتني في سنوات الجامعة، ثم في مشاوير البحث عن عمل وفرصة. شهدت جولات ليلية صاخبة، وأخرى باكية حزينة. ارتجت جوانبها متأثرة بكل أنواع الموسيقى والغناء، من المزمار الصعيدي إلى الأغنيات الهندية مرورًا بعمرو دياب ومنير وحميد والبوني إم وحكيم وأم كلثوم وكبار المقرئين. مرت عبرها قصص حب، ولحظات شعور بالخطر والانتصار والسعادة والهزيمة. تتقبل شطحات الزينة دون اعتراض، من تفييم الزجاج إلى كسوة فرو للتابلوه، منبه صغير إلى جوار الكاسيت، دلايات للكاوتش، شبكة علوية أو خلفية، موسيقى مرعبة للمارشيدير، أنوار صفراء للضباب الذي لم يكن له وجود في الصعيد. دخلت نوادي عريقة، ومرت بمدقات قرى بعيدة مجهولة. كبر مراهقون وهم يطلون من نوافذها، ولفظ بداخلها بعضهم أنفاسه الأخيرة في طريق العودة من المستشفى. استعارها أقارب ونقلوا بها

كميات من الفسيخ أفسدت رائحتها لفترة. حطم زجاجها أشخاص يكنون العداء، وسرق جهاز الكاسيت لصوص في الإسكندرية مرة، ومرات في العاصمة. طاوعت الظروف بمهارة، تتحمل الأعطال الصغيرة حتى يحين وقت إصلاحها، وتقضي في ورش السمكرة أوقاتًا سريعة وقصيرة لترميم عظامها عقب أي حادث.

عِشرة طيبة مدججة بأساطير عن قوة تحمل الـ«128» الحمراء وصلابتها ونوادرها، حتى رحلت ذات يوم ليحل مكانها سيارة أتوماتيك مكيفة بزجاج كهربائي. كان غيابها عاديًا بالنسبة إلى البعض، وتطورًا يستحق التهنئة بالنسبة إلى آخرين. لكنني كنت أشعر أنني فقدت دليلًا على قطعة كبيرة دافئة من العمر. كان عداد المسافات يسجل رقمًا يكبر معي، اختفى وتركني مع سيارات حديثة، أبدأ العد من جديد في طُرق أوسع، أتمنى لو أنني أصادف عليها يومًا الـ«128» الحمراء موديل 86.

اجتهد عادل جزارين في عمله حتى اليوم الذي تلقى فيه أبي الاتصال الهاتفي الذي تغيرت بعده حياتنا مثل كثيرين من أهل الطبقة المتوسطة في مصر، كان جزارين الصنايعي الذي سهَّل على المصريين فكرة امتلاك سيارة مناسبة لسنوات طويلة، وأسس لصناعة ضخمة بملحقاتها.

رحلة بدأت ببرقية من الملك فاروق.

(2)

بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك.

يتشرف كبير الأمناء بأن يدعو حضرة المحترم عادل إسماعيل جزارين لتناول الشاي بقصر رأس التين يوم الأحد 19 شوال 1365 (15 سبتمبر 1946) الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، وذلك بمناسبة نجاحه بتفوق في امتحان بكالوريوس الهندسة بجامعة فاروق الأول (الملابس العادية).

بينما يتأمل عادل جزارين صورته بالملابس العادية وهو يصافح الملك فاروق، وصله خبر اختياره لبعثة تعليمية حكومية. سافر إلى سويسرا وعاد من جامعة زيورخ بدكتوراه في الهندسة الميكانيكية، واستقر لفترة مدرسًا في جامعة الإسكندرية، حتى قامت ثورة يوليو، تلقى بعد فترة اتصالًا من رئيس الحكومة الدكتور عزيز صدقي يطلب منه التفرغ للعمل معه مراقبًا للصناعات الهندسية. كان البلد بصدد ثورة صناعية، وكانت الصناعات القائمة بحاجة إلى فحص وتقرير ما تحتاج إليه وملامح مستقبلها. وبرع جزارين في المهمة التي تفرغ لها حتى موعد الخطة الخمسية الأولى في عام 1959 التي تضمنت البدء في تجميع وتصنيع الجرارات

والمقطورات واللواري وسيارات الركوب. افتتح ناصر شركة النصر للسيارات، وخرج اللوري الأول من خطوط التجميع في 2 يوليو 1962، ثم بدأ الاهتمام بتجميع أول سيارة مصرية (بتوكيل أجنبي)، فتم الاتفاق مع شركة «فيات» الإيطالية، وبدأ تجميع السيارة «1100» ثم «1300»، وفتح باب الحجز وكان الإقبال كبيرًا.

كان مفترضًا أن يبدأ تصاعد منحنى نجاح الشركة، لكن العكس تمامًا هو ما حدث.

كانت الأسباب كثيرة: نقص النقد الأجنبي اللازم لاستيراد مكونات التجميع، خلافات بين الإدارة وممثلي العاملين، ارتباك إداري نتيجة تشابك وعدم وضوح الاختصاصات، انخفاض حجم الإنتاج. بمرور الوقت ساءت سُمعة الشركة التي تخلفت عن الوفاء بالتزامات تسليم الحاجزين سياراتهم في مواعيدها لفترات كانت تصل إلى سنوات أحيانًا.

هناك قصة شائعة توضح المأساة عن مسابقة أقيمت لعمل نشيد وطني جديد لمصر، اشترك فيها معظم فناني مصر، وتم اختيار «والله زمان يا سلاحي» كلمات صلاح جاهين وألحان كمال الطويل. كانت قيمة الجائزة خمسة آلاف جنيه. بعد اختيار اللحن وفي أول احتفال رسمي كان ناصر يكرم كمال الطويل ويسأله إن كان قد استلم مبلغ الجائزة، قال

الطويل إنه لم يحدث، نظر ناصر إلى أحد القيادات الموجودة في الحفل، وطلب من الطويل أن يذهب إليه في اليوم التالي ليستلم مستحقاته، في اليوم التالي أخبره المسؤول أن المبلغ سيكون جاهزًا بعد أسبوع، خلاله تغيَّر المسؤول وجاء واحد جديد قال له: «نظرًا للظروف سيتم تخفيض قيمة الجائزة إلى ألف جنيه لن تحصل عليها نقدًا، لكن ستحصل في المقابل على سيارة نصر «1100»، وعليك أن تتوجه الآن إلى المصنع لإنهاء أوراق الاستلام». كان سعرها في السوق وقتها يقترب من 800 جنيه. استلم الطويل أوراق السيارة ثم سأل عن المفتاح. سأله المسؤول في المصنع: «فين الفلوس؟». قال الطويل: «إنها مكافأة». فقال المسؤول: «المكافأة أنه تم استثناؤك من الدور في الحجز»!

كان عادل جزارين العضو المنتدب مسؤول العمل الفني، ولم يسلم من الأذى بسبب ظروف الشركة. في 1965 قام العراق بطرح مناقصة لتوريد 120 أتوبيسًا، تقدمت شركة النصر بعرض تم قبوله بعد وعد بتخفيض مدة التوريد إلى ثلاثة أشهر من تاريخ فتح الاعتماد لتفوز بالمناقصة، وهو الأمر الذي كان من المستحيل تنفيذه عمليًا. كان استيراد مستلزمات الإنتاج وحده يحتاج إلى ثلاثة أشهر بخلاف التجميع. خلال فترة التأخير قام ناصر بزيارة لعبد السلام عارف رئيس العراق، شكا عارف من أزمة نقل الركاب التي

تعيشها بغداد بسبب تأخر تسليم الأتوبيسات. وذات يوم تلقى جزارين استدعاءً من محكمة أمن الدولة، كان متهمًا بالإساءة إلى سُمعة مصر، وأصر وكيل النيابة على أن يستجوب جزارين واقفًا ولم يسمح له بالجلوس لساعات طويلة، أخلى بعدها سبيله بضمان وظيفته. خرج جزارين من هناك متوجهًا إلى مكتب رئيس الوزراء، وشرح له القصة كاملة، ثم نقلها صدقي إلى ناصر الذي أمر بحفظ التحقيق بعد أن فهم تفاصيل الأزمة.

ثم أصدر ناصر في عام 1968 قرارًا بتولي عادل جزارين رئاسة مجلس إدارة شركة النصر للسيارات، وكان هذا القرار بداية حقيقية لصناعة السيارات في مصر، بعد تجربة محدودة الأثر والنجاح في صناعة السيارة «رمسيس».

(3)

كان التفكير في نجاح الشركة يقوم في هذه اللحظة على دراسة ما يعطلها، وهي أمور يعرفها كثيرون، لكن جزارين وحده كان لديه حلول ذكية ومختصرة أسرع من الوقت.

تعامل مع نقص النقد الأجنبي اللازم لاستيراد مكونات السيارة بعدة أفكار، كان أهمها فتح باب حجز السيارات بالنقد الأجنبي للمصريين العاملين في الخارج مع تحسين شروط الاستلام. تدفقت أموال حركت العمل، وزاد حجمها

بأن وسع جزارين خط إنتاج الأتوبيسات للتصدير إلى الدول العربية (الكويت، ليبيا، العراق).

كان يعرف أن هذا الجزء من الخطة ربما يكون نجاحه قصير الأجل، يمكن الاعتماد عليه في مجاراة الطلبات لا التطوير، والهروب من هذا المأزق يقوم على ترشيد الاعتماد على الاستيراد، بما يعني أن يبدأ تصنيع مستلزمات التجميع في مصر. بدأت الفكرة صغيرة، لكنها سرعان ما تحولت إلى ثورة صناعية قائمة بذاتها.

اعتمد جزارين على قيام صناعات صغيرة مغذية للتصنيع، بمرور الوقت أصبحت الشركة تصنع 47% من مكونات السيارة، والبقية تساهم فيها مصانع مصرية لتيل الفرامل، والفلاتر، والبطاريات، والزجاج، والسلندرات، والطنابير. مع أواخر السبعينيات كانت هناك 120 شركة مصرية من القطاعين العام والخاص تعمل بتوجيه شركة النصر، بعضها يقوم بتوريد كامل إنتاجه، واقتحم البعض أسواقًا أخرى.

في الوقت نفسه كان جزارين يؤمن بأنه لا تربة صالحة لاستقبال هذا النمو مثل الاستقرار الإداري. بدأ الاجتماعات اليومية مع العاملين وممثليهم للتعرف بدقة على شكاواهم والعمل على حلها جميعًا، ومقترحاتهم وإمكانية تنفيذها، وإيجاد طريقة يعبرون من خلالها عن أنفسهم بوضوح طوال

الوقت، فأصدر مجلة شهرية ونشرة صباحية يومية من صفحة واحدة لإحاطة العاملين بأي تطورات جديدة ومشاركتهم الرأي فيها.

لم يتوقف جزارين عند حياة العاملين داخل الشركة، فدرس ما يجعل حياتهم الخارجية مستقرة، فظهرت سريعًا العيادات الطبية للعاملين وأسرهم في حلوان وباب اللوق، ثم المصايف، ثم جاءت الخطوة الكبرى بمساعدة الجمعية التعاونية للإسكان التي أشرفت على بناء وتمليك مساكن للعاملين في «وادي حوف»، التي تحولت إلى مدينة سكنية لهم بمساعدة محافظ القاهرة وقتها وجيه أباظة الذي خصص الأرض اللازمة لذلك.

ثم جاء البحث عن الاستقرار المادي الذي ترجمه جزارين بأن جعل شركة النصر للسيارات من أوائل الشركات التي أدخلت نظامًا للحوافز يربط الأجر بالإنتاج كمًّا ونوعًا.

كان سهلًا بعد هذه الخطوات أن يدفع جزارين العاملين لإنقاذ سمعة الشركة التي أصبحوا شبه ملاك لها، فتم الاتفاق على خطة عمل تقوم على تحسين صورة الشركة الخارجية عن طريق الالتزام بالوفاء بالعقود التي أبرمتها الشركة، والإسراع بتسليم السيارات لحاجزيها مع تخفيض فترة الانتظار، مع لمسات مستحدثة مثل عمل محطات خدمة ما

بعد البيع والصيانة. وبدأت الشركة تستعيد ثقة العملاء بمرور الوقت.

بدأ جزارين مهمته بحجم أعمال 6 ملايين جنيه عند تعيينه، ووصل إلى 300 مليون جنيه عند انتهاء فترة خدمته بعد عدة سنوات (1981). وتحولت وادي حوف إلى صرح صناعي ضخم يعمل به نحو 12 ألف عامل، حتى مجلة العاملين الداخلية تطورت فأصبحت تنافس بقوة في سوق الصحافة المصرية؛ كانت «النصر للسيارات» من المجلات القليلة التي تنفد سريعًا حتى نهاية الثمانينيات.

(4)

في بداية السبعينيات كانت أوروبا تتحدث عن أحدث ابتكارات صناعة السيارات الإيطالية «فيات 128»، ومميزاتها المبهرة قياسًا إلى سعرها: جَرٌّ على عجل أمامي بدلًا من الطريقة التقليدية (الجر الخلفي)، إجمالي المساحة التي يمثلها المحرك ومستلزماته 20% من حجم السيارة والمساحة الباقية للركوب والأمتعة، وكان يتم وضع العجلة الإستبن فوق المحرك أمام السائق كوسيلة أمان إضافية أخرى تمتص الصدمات في حالة وقوع أي حادث.

أعجب جزارين بالسيارة، وفكر أنه وقت التحول من تصنيع «الفيات 1100» و«1300» إلى الموديل الجديد. كان يعرف

عند بداية عمله مسؤولًا فنيًا عن تجربة شركة النصر أن سرعة التطور في موديلات السيارات تحتاج إلى أن يكون تصميم خط التجميع في الشركة مرنًا بما يسمح له بالتعامل مع المستجدات بسهولة، وساعد ذلك كثيرًا في أن تتحول الشركة إلى إنتاج الموديل الجديد. خرجت السيارة الـ«128» إلى النور، ولكن لأسباب غامضة لم يتقبلها السوق المصري، ولم ينجذب لمزاياها الفنية. لم تحسن الحملات الدعائية الوضع كثيرًا، إلى أن عثر جزارين على الفكرة التي ستساعد في انتشار السيارة وتقبُّل الناس لها.

كان المرور يمنح ترخيصًا للتاكسيات الشائعة وقتها (1100، و1300) بحمولة 3 راكب، فتدخَّل جزارين وشرح للمسؤولين سيارته الجديدة، وخرج ليزف للعاملين أن المرور وافق على منح التاكسي الـ«128» ترخيص 4 راكب. كان الخبر في حد ذاته دعاية مجانية. يعرف الجميع الآن أن السيارة عملية ذات مساحة أكبر، ومثالية للعمل كسيارة أجرة، بما ينطوي عليه هذا العمل من مشقة. انتشر التاكسي الـ«128» في شوارع القاهرة، وتعامل الناس مع السيارة الجديدة عن قرب، وبمرور الوقت زاد الإقبال عليها، وأصبحت سيارة مصر الأولى.

شعر جزارين ذات صباح بأن مجهودًا كبيرًا سيضيع، عندما

أطل السادات من الصفحات الأولى للصحف وهو يقود سيارة «127» في إيطاليا، وكان الحماس والاهتمام يكسوان ملامح وجهه.

(5)

كانت فكرة «السيارة الشعبية» تظهر في كلام السادات كثيرًا، لم يخلُ الحديث عن المستقبل من حلم سيارة لكل مواطن، يناقش الموضوع داخليًا، ويفتش عن أفكار داعمة في رحلاته إلى الخارج، وفي زيارة لإيطاليا شاهد السيارة الـ«127» وأعجب بها، وظهرت صوره في الصحف وهو يقودها. وعرف جزارين وهو يتفحص ملامح السادات أنه سيُصدر قريبًا تعليماته للشركة بإنتاج هذه السيارة، وكان قلقًا بخصوص سيارة جديدة ستزاحم سياراته الناجحة في خطوط الإنتاج، لكن طموح السادات كان أكبر من مجرد مزاحمة.

وصل خطاب إلى الشركة بتوقيع وزير الصناعة (المهندس عيسى شاهين)، يخطر فيه جزارين أنه بناء على تعليمات الرئاسة، على الشركة أن توقف إنتاج كافة طرازات سيارات الركوب التي تنتجها، وتركز على تصنيع السيارة «الفيات 127».

كانت التعليمات الجديدة أقرب إلى كارثة، فالسيارات التي

تنتجها الشركة في هذا الوقت تلقى نجاحًا كبيرًا داخل مصر وخارجها، قبل فترة تم بيع 5 آلاف سيارة «128» للعراق فقط، كما أن الـ«127» لم تكن السيارة المثالية لمصر، لأنها كانت ذات بابين فقط وهو ما لا يناسب المستهلك المصري، وكان سعرها مرتفعًا نسبيًّا بما يجعل سعر بيعها مقاربًا لسعر الـ«128» على الرغم من تفوُّق الأخيرة.

طلب جزارين مقابلة وزير الصناعة ليعرض عليه الأمر. كان يعرف أن رفض القرار بأسباب عملية واضحة لن يكون كافيًا، وأن تفهُّم وجهة نظره قد يكون مقبولًا إذا قدَّم بديلًا لاقتراح الرئيس. فتش كثيرًا حتى عثر على ضالته في السيارة «سيات».

في مكتب وزير الصناعة كانت مناقشة الفكرة غير مطروحة أصلًا، وطلب من جزارين أن يبدأ فورًا في تنفيذ تعليمات السيد الرئيس.

خرج جزارين من مكتب وزير الصناعة واتصل بمكتب رئيس الوزراء ممدوح سالم طالبًا تحديد موعد. كانت هناك فرصة لشرح الموضوع بكل جوانبه وعرض الاقتراح البديل الذي يتميز بانخفاض سعره. اقتنع رئيس الحكومة، لكنه قال: «منك لسيادة الرئيس». فطلب جزارين موعدًا معه، وبعد أيام أبلغه أحدهم أنه على موعد مع السادات في استراحة

برج العرب.

استعاد جزارين الطالبَ المتفوقَ الذي دعاه الملك فاروق لتناول الشاي معه؛ نظريًّا درس جيدًا كل حرف يوضح وجهة نظره دون ثرثرة، وعمليًّا أعد قافلة بها عينات من السيارة الـ«127» والسيارة «سيات»، وتوجَّه بهذا الطابور إلى برج العرب صباح أحد أيام يونيو 1976.

بعد الوصول بقليل هبطت طائرة هليكوبتر عليها نائب رئيس الجمهورية وقتها محمد حسني مبارك، ورئيس الوزراء، وعدد من الوزراء في مقدمتهم عثمان أحمد عثمان، ثم وجِّهت الدعوة لجزارين لمقابلة السادات في حضور هؤلاء المسؤولين.

كان الوضع أقرب إلى لجنة امتحانات، لم يتوقف السادات عن توجيه الأسئلة في كل صغيرة وكبيرة، وبمشاركة ضيوفه لم يترك تفصيلة في الاقتراح البديل دون مناقشة: جودة السيارة، قدراتها، سعرها، مدى ملاءمتها لظروف المواطن المصري وطبيعة حياته. ثم طلب أن يجرب السيارة بنفسه، وهو ما كان يتمناه جزارين.

وقف طالب الهندسة المتفوق ينتظر نتيجة الامتحان وكله قلق على مستقبل قلعة صناعية قد تهشمها نزوة غير مدروسة. مرت الدقائق ثقيلة حتى نزل السادات من السيارة

وعلى وجهه ابتسامة جعلت جزارين يلتقط أنفاسه.

بعد التشاور مع الحاضرين أصدر السادات قراره بالبدء في تصنيع السيارة «السيات»، والاستمرار في إنتاج الطرازات الأخرى، وإلغاء القرار السابق.

بدأ الإنتاج في عام 1978، وكان سعر البيع 1200 جنيه مصري. تم إهداء أول سيارة للسادات، استخدمها كثيرًا في تنقلاته الشخصية، وظهر بها في العديد من المناسبات.

(6)

تعتمد صناعة السيارات في مصر حتى اليوم على ما أفرزته تجربة جزارين، كان يُصنِّع السيارات ويؤسس مستقبل المهنة في الوقت نفسه، تخرج من تحت يده مئات المهندسين والفنيين الذين قامت على أكتافهم الشركات الجديدة التي دخلت مجال صناعة السيارات فيما بعد، تشهد على ذلك سلسلة المعاهد التعليمية التابعة للنصر للسيارات والتي تخرج منها كثيرون (معهد التدريب بنظام التلمذة الصناعية بالتعاون مع مصلحة الكفاية الإنتاجية بوزارة الصناعة، معهد تدريب الفنيين، المعهد العالي لهندسة السيارات بالتعاون مع وزارة التعليم العالي، نادي علوم السيارات)، بخلاف دأب ـ لم ينقطع ـ على إيفاد مجموعة من العاملين كل عام للتدريب في المصانع الأجنبية (مثل مصانع شركة «دويتس» الألمانية

التي كانت تتحمل نفقات معيشة العمال وأجورهم وسفرهم إلى ألمانيا. عمالة وصلت إلى مستويات دفعت الشركة الألمانية إلى محاولة الاحتفاظ بهم، وكان معظمهم يصر على العودة).

في أكتوبر 1980، على هامش الاحتفال بيوم المهندس، تم تكريم جزارين، وسلّمه السادات وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى.

كان ظاهر التكريم على مجهود جزارين في صناعة السيارات، لكنه كان ينطوي على تكريم وطني من نوع ظل لفترة طويلة من الأسرار الحربية المتعلقة بحرب أكتوبر. كان جزارين واحدًا ضمن بعثة محدودة سافرت إلى أوروبا للتعاقد على الكباري التي تم استخدامها في العبور، كانت المهمة بحاجة إلى خبرة هندسية أكثر من حاجتها إلى العسكرية، سافر جزارين في سرية تامة إلى ألمانيا، وهناك قام هو وأفراد البعثة بالتعاقد على شراء هذه الكباري بعد أن أجريت أمامهم أكثر من تجربة لفتحها في نهر الراين. مهمة خبأها جزارين - كما حكى لي ابنه - حتى عن ولديه أكثر من عشرين عامًا.

مع بداية الثمانينيات اتسعت مساحة التصنيع التي يتم الاعتماد فيها على مهارات جزارين. عيّنه مبارك في عام

1983 رئيسًا لهيئة القطاعات الهندسية التي تشرف على 21 شركة صناعية في مصر، منها شركات: النصر للسيارات، وفيليبس، وإيديال، ومعدات النقل الخفيف، والإسماعيلية للصناعات الإلكترونية. يعالج موازنات هذه الشركات، ويخطط لمساعدتها في الحصول على ما يلزمها من النقد الأجنبي. وفي عام 1984 تم تعيينه رئيسًا لاتحاد الصناعات المصرية الذي يشرف على 12 غرفة صناعية (الصناعات الغذائية، الكيماوية، صناعة السينما، صناعة الحبوب). فترة استطاع خلالها تنظيم قوانين الاتحاد، ودعم الصناعات الخاصة، وفتح الباب للتعاون مع دول السوق الأوروبية. وفي عام 1985 رشح نفسه في انتخابات عضوية مجلس إدارة منظمة العمل الدولية، وكان من بين مصريين قليلين ظهرت صورهم في الصحافة العالمية وهم يرأسون جلسات منظمة دولية، وتكرر هذا أكثر من مرّة على مدى تسع سنوات.

حاوي وأبو العلا
صنايعية السيارة رمسيس

مع نهاية الخمسينيات ظهرت إحصائية تقول: في أمريكا هناك سيارة لكل 3 أشخاص، وفي بريطانيا سيارة لكل 20، وفي فرنسا سيارة لكل 40، وفي مصر سيارة لكل 275 شخصًا، وهو ما اعتبره النظام وقتها إهانة، فلم يتردد في التعامل بجدية مع أول محاولة عرضت عليهم لتصنيع سيارة شعبية مصرية.

في عام 1958 تقدم المهندس جورج حاوي والضابط عصام أبو العلا إلى وزارة الصناعة بطلب تصنيع سيارة مصرية صغيرة الحجم.

قال حاوي وأبو العلا إن هذه السيارة ستعمل بلا زيت أو ماء لأنها صُممت على أساس التبريد بالهواء، وإنه لا يوجد بها أي سير، وإن الدينامو والمارش وضعا كقطعة واحدة مع الموتور، بما يجعلهما لا يحتاجان إلى أي إصلاح أبدًا لأنهما وضعا داخل غلاف متين يعتبر مانعًا كاملًا للأتربة والحرارة، والتشحيم لن تكون له حاجة إلا بعد كل خمسة آلاف كيلومتر تقطعها السيارة، وهي ذات جسم مصنوع من الصوف الزجاجي.

تكونت شركة خاصة، وخُصص للمشروع موقع في أول طريق مصر إسكندرية الصحراوي، وبدأ التنفيذ. وفي انتظار النتيجة أعلنت الهيئة العامة للتصنيع عن مكافأة مائة جنيه لاختيار اسم لأول سيارة ملاكي يتم تصنيعها في مصر، شرط المسابقة أن يكون الاسم المقترح من كلمة واحدة، وتسهل ترجمتها إلى اللغات الأجنبية. لم يسجل الأرشيف اسم الفائز لكن تم اختيار اسم «رمسيس».

خرج من المصنع عدد قليل للتجربة، وفي يوليو 1959 أعلنت وزارة الصناعة أن السيارة الشعبية الجديدة ستطوف طوال اليوم في شوارع القاهرة من العاشرة صباحًا حتى المساء بإشراف لجنة يشارك فيها السيدان جورج حاوي وعصام أبو العلا المسؤولان عن المشروع. بعدها بأيام أعيد تنفيذ الفكرة في مدينة الإسكندرية ولكن بأكثر من سيارة حُددت لها الحركة في طريق الحرية وشارع صفية زغلول وشارع السلطان حسين.

ثم جاء وقت التجارب الجادة.

نشرت جريدة «الأهرام» في يوليو 1960 خبرًا عن واحدة من هذه التجارب:

قامت في منتصف ليلة أمس سيارتان من سيارات رمسيس الجديدة برحلة بدون توقف، من القاهرة إلى الإسكندرية،

ومنها إلى مرسى مطروح، ومن هناك إلى بني سويف مرورًا بالقاهرة مرة أخرى، وكانت كلٌّ منهما تحمل أربعة أفراد بكل مستلزماتهم. وضربت السيارة رقمًا قياسيًا في السير بدون توقف مع تبديل السائقين.

ولكن في تقرير لجنة قامت بالرحلة نفسها (القاهرة مرسى مطروح، والعودة)، لجنة مكونة من الدكتور مهندس محمد العلايلي رئيس قسم السيارات بجامعة عين شمس، والمهندس شوقي النحاس، والدكتور عادل جزارين، أن الرحلة لم تكن سهلة، حيث تعطلت إحدى السيارتين، وظهرت عدة عيوب في الأخرى. وطُلبت عدة تعديلات. كان الموديل خاليًا من تعشيقة للخلف، فكان من الضروري عند الرغبة في السير إلى الخلف وقف المحرك وإدارته في الاتجاه العكسي، فطالب التقرير بوجود فيتيس للسير الخلفي، وكذلك تصنيع جسم السيارة من المعدن بدلًا من الفيبر جلاس.

بدأ المصنع في تجميع السيارات بعد تنفيذ التعديلات، وتعاقدت هيئة التصنيع على 100 سيارة مقدمًا تشجيعًا للمشروع، وكان سعر السيارة 120 جنيهًا، وتم الإعلان عن أول المشترين وقتها: الأمير عبد الله الجابر الصباح.

تعاطف المصريون مع السيارة بوصفها أول منتج وطني من نوعه، ومانشيتات من نوعية: «أول سيارة يصنعها بلدك»،

وأخبار صحفية مصورة عن «مريم فخر الدين قادت رمسيس وطافت بها حول القاهرة». كانوا يشعرون بالفخر، خاصة بعد خبر قيام الاتحاد العام للعمال بإهداء سيارة رمسيس باسم عمال الجمهورية العربية المتحدة إلى السيدة نينا بتروفنا زوجة رئيس الوزراء الروسي نيكيتا خروشوف، قال الخبر:

وعقب انتهاء الاحتفال الذي أقامه عمال مصر والنقابات المهنية تكريمًا لرئيس الوزراء الروسي، صحب عبد الناصر ضيفه خروشوف إلى خارج مبنى المحافظة، حيث كانت تقف السيارة البيضاء المهداة إلى قرينته.

بمرور الوقت ظهرت المشكلات التقنية، وانخفضت الشعبية قليلًا مع ظهور «الفيات 1100» و«1300». وفي يوليو 1961 تم تأميم الشركة ودُمجت مع شركة صناعة الدراجات والموتوسيكلات لتصبح «شركة إنتاج وسائل النقل الخفيف».

معرض صور
الفصل الرابع



عادل جزارين

نجبـــاء الطلبـة

رأت المدرسة في هذا العام ظاهرة تكاد تكون نادرة ، فقد وجدت ثلاثة من أبنائها يتقدمون للامتحانات العامة في سن مبكرة ، فالطالب عادل إسمعيل جزارين سيتقدم لامتحان القسم الخاص (توجيهي) وسنه خمس عشرة سنة ، والطالبان أحمد عبد الله الديب وأحمد نادر درويش سيتقدمان لامتحان القسم العام وسن كل منهما أربع عشرة سنة .

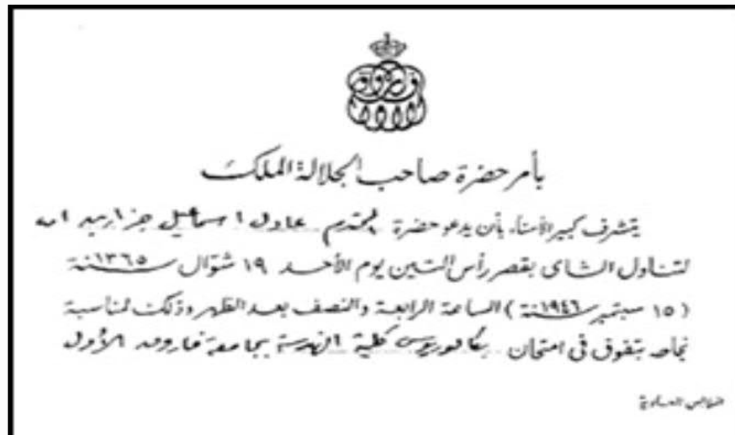
وإن المدرسة لتفخر بأبنائها المجدين ، وترجو لهم نجاحا مطرداً ومستقبلا سعيداً ، وإنها لتشكر أولياء أمورهم على مابذلوا من جهد ، وقدموا من عناية ، راجية أن ينسج جميع أولياء الأمور على منوالهم لتصل بأبنائنا إلى مانرجوه لهم من خير وتؤمله فيهم البلاد من نفع .

عادل إسمعيل جزارين
٥ — رياضة

أحمد عبد الله الديب
٤ — ٢

أحمد نادر درويش
٤ — ١

الطالب النجيب



بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك

يتشرف كبير الأمناء بأن يدعو حضرة المحترم عادل اسماعيل جزارين افندي
لتناول الشاي بقصر رأس التين يوم الأحد ١٩ شوال سنة ١٣٦٥
(١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٦) الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر وذلك لمناسبة
نجاحه بتفوق في امتحان بكالوريوس كلية الهندسة بجامعة فاروق الأول

دعوة الملك فاروق لعادل جزارين لتناول الشاي معه في

قصر رأس التين



جزارين والملك فاروق



أول خط إنتاج لسيارات الركوب



عبد الناصر يفحص جرارًا زراعيًّا من إنتاج شركة النصر



عبد الناصر يصافح جزارين في أثناء زيارته لشركة النصر



فيات «1300»



السادات يكرِّم جزارين



السادات في أثناء زيارته لإيطاليا التي أثارت قلق جزارين



السادات يتسلَّم أول سيارة من خط إنتاج «سيات»

نصر ١٢٨ بالعملات الحرة

مرحباً من نجوم الفن والتليفزيون

احتفالا بتسليم أول دفعة
من سيارات نصر ١٢٨
للحاجزين بالعملات الحرة
خلال يوليو وأغسطس وسبتمبر ١٩٧٠

التسليم خلال فترة من شهر الى ٣ شهور

كحد أقصى من تحويل
قيمة السيارة
بالعملات الحرة

٣ طرق لشراء نصر ١٢٨ بالعملات الحرة

شركة النصر للتصدير والاستيراد



السادات في أثناء زيارته لإيطاليا التي أثارت قلق جزارين



السادات يتسلَّم أول سيارة من خط إنتاج «سيات»

نصر ١٢٨ بالعملات الحرة

مهرجان من نجوم الفن والتليفزيون

احتفالا بتسليم أول دفعة
من سيارات نصر ١٢٨
للحاجزين بالعملات الحرة
خلال يوليو وأغسطس وسبتمبر ١٩٧٠

التسليم خلال فترة
من شهر الى ٣ شهور
كحد أقصى من تحويل
قيمة السيارة
بالعملات الحرة

شركة النصر للتصدير والاستيراد

الاستعانة بالنجوم والفنانين لتسليم الحاجزين سياراتهم، واستعادة سُمعة الشركة (فؤاد المهندس ـ صلاح ذو الفقار ـ سميحة أيوب)



جزارين في إحدى
المناسبات العائلية



دور جزارين في
حرب أكتوبر ظل سرًّا
لسنوات طويلة


نصر ١٢٨
حلم الأنيقات
نصر للسيارات
ادارة البيع والتصدير ١٠٨١ شارع كورنيش النيل - جاردن سيتي / ت ٣٠٩٩٣ - ٣٠٩٩٦

فيات «128»



رقم قياسى

للسيارة الجديدة « رمسيس »

قامت فى منتصف ليلة امس سيارتان من سيارات رمسيس الجديدة برحلة طويلة بدون توقف ، من القاهرة الى الاسكندرية ، ثم الى مرسى مطروح ، فالى الاسكندرية ثانية ، ثم العودة الى القاهرة، ومنها الى بنى سويف فالقاهرة ثانية ، وكانت كل منهما تحمل اربعة افراد بكل مستلزماتهم ... وذلك لضرب الرقم القياسى للسير بدون توقف مع تبادل السائقين

وقد اختيرت السيارتان من احد النماذج التى يجرى انتاجها فى خطوط الانتاج العادية اليومية بمصانع شركة السيارات المصرية .



١٠٠ جنيه جائزة

لمن يختار اسم أول سيارة

تنظم مسابقة لاختيار اسم لاول سيارتين لورى وملاكى تنتجهما مصانع الهيئة العامة للسنوات الخمس للصناعة . حددت الجائزة الاولى فى المسابقة بمبلغ ١٠٠ جنيه . اشترط ان يكون الاسم المقترح كلمة واحدة يسهل ترجمتها الى اللغات الاجنبية .



أول سيارة يصنعها بلدك



الاهرام — ١٩٥٩/٧/٢٠

صور ومانشيتات

وإعلانات من قصة حياة السيارة «رمسيس»

الفصل الخامس

صنايعية الدواء المصري

(1)

ارتباك ما شعرت به عقب انتهاء عملية التجديد.

نُزعت اللافتة القديمة «أجزاخانة» ووضعت مكانها «صيدلية». كان التغيير محيرًا لطفل لم يفهم ما الفرق، وإن ظلت كلمة «أجزاخانة» بالنسبة إليه معبرة بشكل أكبر عن دقة الأجواء الملهمة التي كانت تستغرقه مع كل مشوار لشراء دواء الأب أو الجدة: رائحة نوم الأدوية، رائحة هادئة تمتلئ أنفاسها بحرارة ما وفوران مؤجل. الستارة الزرقاء التي تخفي في العمق حجرة بها حوض صغير ورف تصطف فوقه زجاجات شفافة منتفخة. رصة علب الدواء، وألوان الكتابة عليها في الفتارين الزجاجية التي تُفتح بالعرض. لمبات النيون ناصعة البياض بعرض كل حائط. مجسمات الحقن وأجهزة الترمومتر. جاذبية أخضر «الريفو»، وأحمر «السوليوكمفر»، وأزرق «بودرة تلك الأطفال»، وذهب «ماء كولونيا الثلاث خمسات». راديو ناشيونال ذو كسوة جلد بُنية. ماكينة الكاشير المعدنية التي تمنيت يومًا العزف عليها. لوحة القديس مار جرجس الضخمة وهو يطعن التنين برمحه. مكتب الدكتور كمال الإيديال الذي يستند على قالب طوب أحمر. منفضة النحاس وردية اللون التي تزدحم

بأعقاب علبة السجائر الكليوباترا السوبر المستقرة إلى جوارها. حامل بكرة لف الأدوية الورقية التي كان يسحب منها الدكتور كمال بمهارة كل مرَّة في لحظة خاطفة ما يكفي بالضبط للف الأدوية المطلوبة في ورق بُني مصقول كُتب عليه بالرقعة الساحرة اسم الأجزاخانة. سحر ما في تضاد البالطو الأبيض الذي لم يخلعه يومًا، ولمعة حذائه الأسود البراقة التي اشتهر بها في المدينة. وهناك دائمًا كانت مروحة السقف، وأزيز يصنع خلفية موسيقية مميزة للمشهد كله.

انهار كل ذلك مع التجديد؛ فوضى أقل، ماكينة كاشير إلكترونية، باب أكورديون يخفي المعمل، فتارين مصقولة، تكييف، جهاز تلفزيون. بقيت لوحة مار جرجس، لكن كان الدكتور كمال قد انتقل إلى الأمجاد السماوية، ويبدو أنه اصطحب معه «أجزاخانته» تاركًا للجيل الجديد موضوع «الصيدلية».

هناك من يفسِّر التحول من «الأجزاخانة» إلى «الصيدلية» كواحد من جملة متغيرات كثيرة طرأت على المجتمع مع عودة المصريين العاملين في الخليج في بداية الثمانينيات، وهي وجهة نظر لا تخلو من صحة، لكن من المؤكد أن هذا التغيير ارتبط زمنيًا باستقرار صناعة الدواء في مصر. منذ بداية القرن الماضي وكلمة «أجزاخانة» مرتبطة بمحاولات

فردية لتصنيع الدواء (من بين تفسيرات عديدة تُرجع الكلمة إلى أصلها التركي (أجزا: دوا. خان: دكان)، هناك تفسير عن كون الكلمة مشتقة من «أجزاء» المكان الذي يقوم فيه الأجزجي بتجميع الأجزاء المكونة للدواء، ذلك لأن أغلب الأدوية وقتها كانت تعتمد على التركيب)، إلى أن استقرت المصانع والشركات ومراكز البحوث والتطوير، فأصبح الأمر لا يعتمد على روح المهارة الفردية المرتبطة بكلمة «أجزاخانة».

(2)

قبل عام 1930 كانت معامل تحضير الأدوية تتقاسم السيطرة على السوق مع الأجزاخانات ومخازن الدواء المستورد.

«معمل أدوية سالم خليفة»: أشهر منتجاته القطرة السوداء ماركة «المفتاحين» التي تعالج مختلف الأرماد المنتشرة في البلاد الحارة، واعتمدت دعايتها على كونها ليست كاوية للعين مثل قطرات نترات الفضة الشائعة.

«معمل أدوية إسكندر فهمي»: الذي كان ينتج أدوية تحمل اسمه شخصيًا (قطرة الدكتور إسكندر فهمي لجميع أمراض العيون، أكسير الدكتور إسكندر فهمي لتقوية الجسم وتنقية الدم، حبوب الدكتور إسكندر فهمي لعلاج الإمساك وتحسين

الشهية)، وكانت منتجاته تُباع في صيدلية «المحروسة» التي يديرها الأجزجي وديع هواويني في كلوت بك.

«معمل الدلتا»: أسسه الدكتور رياض أرمانيوس، واشتهر بتصنيع وصفات طبية فعّالة ومبتكرة كان يعرضها للبيع في الأجزاخانة التي يمتلكها لاسانتي. تطور معمل «الدلتا» بعد سنوات طويلة ليصبح: مصنع «إيفا» لمستحضرات التجميل.

كانت المنافسة في سوق الأجزاخانات بين أجزاخانة «لاسانتي»، وأجزاخانة «ستيفنسون» التي أسسها جورج ستيفنسون (الكيميائي البريطاني الذي عاش لفترة في سنغافورة قبل العودة إلى بلاده ومنها إلى القاهرة هو وأولاده الثلاثة، وافتتح أجزاخانة تحمل اسمه في عام 1899 بوسط البلد)، وأجزاخانة «الخواجة ليون باغوصيان» في الموسكي، وأجزاخانة «الخواجة مودرنو تورينو» في العتبة.

المنافسة بين المخازن تنحصر بين مخزن «الأدوية العصري ـ دكتور فيليب سركيس» في شارع نوبار، ومخزن أدوية «مدور إخوان الكبرى» المتخصص في استيراد مستحضرات التجميل، ومخزن «الخواجة م. ل. فرانكو» المتخصص في الأدوية المقوية، ومخزن «الخواجة فيور نتينو» المتخصص في المسكنات، ومخزن «أريندي البرتيني» وكيل حليب

جلوريا للأطفال، ومخزن أدوية «حنين غناجة» بشارع فؤاد الأول الذي كانت تمتلئ إعلاناته بالعروض (كل من يشتري بثلاثين قرشًا صاغًا يُعطى مجانًا من الأصناف التالية: علبة فيها ست برشامات كالمين، علبة خمسة أمواس حلاقة، أنبوبة كريم فلوتيه ديكسور. من 30 أكتوبر حتى 10 نوفمبر 1930).

كان هناك حرص شديد على حمل ترخيص لمزاولة مهنة «الأجزجي»، وكان يحق له طبقًا لضوابط معينة تركيب أو اختراع بعض الأدوية البسيطة وتوزيعها على صيدليات القطر كله، أو الحصول على توكيل لتوزيع نوع معين من الدواء من إحدى الشركات العالمية الكبرى بشرط أن يتم ذلك تحت رقابة الحكومة المصرية.

كانت الأدوية الشائعة وقتها، وحسب إعلانات الصحف والمجلات، أدوية غير مفهومة، تعالج بالجملة أمراضًا لا علاقة واضحة بينها وبين بعضها، مثل:

«مرهم مونصول»: الذي كتب الإعلان المنشور في مارس 1930 أنه:

يعالج ضيق النفس، والخراج، والبثور، وتشقق الأيدي، والهربس، والقوبة الصفراء، والنمش، والكلف، والجرب، وتورم الأرجل، والصلع، وقمل الرأس، وناسور الشرج،

والبواسير، والجروح المنتنة، والقروح السامة، والقرص، وحلمات الثدي، وحمو الموس، وطفح المزين، وغير ذلك.

«دهان وينتو جينو»: الذي يعالج «صداع الرأس، وأمراض الحلق، ورطوبة الصدر، والتهاب المفاصل، واللومباجو».

علاج السُّكَّر «بترولكس»: الذي جاء في إعلانه:

كثير من الأطباء أجمعوا على أن الشفاء بالكاز (البترول) لداء السكري أتى بنتائج مبهرة، في نتائج ذكرها الدكتور أرنولت فيفي في تقريره للجامعة الباريسية، ولكن هذا الطبيب العالم يشير بألا يُشرب الكاز العادي لطعمه ورائحته وللتكرع الكريه، فيجب أن يكون الكاز في محافظ خصوصية لا تذوب إلا في الأمعاء. ومستحضر البترولكس أدى لنتائج مبهرة، من أول أسبوع يشعر الإنسان بتحسن ويراقب بدهشة وفرح اضمحلال السكر، وشيئًا فشيئًا لا يستعمل الحمية الشديدة في الطعام. البترولكس محضر في علب خشب حاوية 240 محفظة لعلاج شهر (4 على الغداء و4 على العشاء) بسعر 40 قرشًا صاغًا للعلبة. لطلب الجملة صندوق بوستة رقم 74 الإسكندرية.

تكشف إعلانات الصحف عن كون الإمساك هو المرض الشائع وقتها، لأن أكثر من 80% من المادة المنشورة كانت تُروِّج «للمُلينات» المستوردة، وكانت أصنافها شتى، يفخر كل

صنف بأنه العلاج الذي سيئنهي المأساة، مثل: «باستيليا المستكة فينامنت»، «حبوب تاملكس»، «ملح فوسفورين الصحي»، «برودل»، «حبوب مانير إربا»، «حبوب فالس».

ثم ظهرت نقطة نظام مهمة على يد طلعت حرب.

(3)

تأسست شركة مصر للمستحضرات الطبية في عام 1939، كأول شركة مصرية لصناعة الدواء ولإنتاج الأدوية البشرية والبيطرية. تم إنشاؤها برأس مال مصري بمساهمة بنك مصر. استفاد القائمون على مشروع طلعت حرب لصناعة الدواء من تجربة المعامل التي كانت مستقرة نوعًا ما، ومن تجربة صغيرة الحجم في التصنيع أسسها قبل سنوات قليلة الصيدلي المصري محمد حجازي: شركة حجازي للأدوية، والتي يعتبرها المتخصصون أول منشأة دوائية مصرية يتم إنشاؤها على مواصفات قياسية.

انطلقت الشركة بقيادة الدكتور رياض زين الدين، الذي اشتهر بأنه يقضي النهار في التصنيع ومساءً كان يحمل النشرات والعينات لعرضها على الأطباء والصيادلة لترويج إنتاج الشركة، بمعاونة الدكتور محمد رجائي، الذي تولى رئاسة مجلس الإدارة فيما بعد. تحركت التجربة بقوة دفع الروح الوطنية التي دفعت معظم الصيادلة المصريين إلى

التخلي عن العمل في الأجزاخانات والمعامل الخاصة والالتحاق بالشركة الوطنية على الرغم من أن أجورها كانت تقل عن القطاع الخاص بما يقرب من 50%.

كانت شركة مصر للمستحضرات الطبية تفخر في إعلاناتها بأنها قادرة على «تموين» الأسواق المصرية بمختلف الأدوية والمستحضرات الطبية رغم ظروف الحرب، وبكونها الممول الرئيسي لمستلزمات الجيش المصري، وبقدرتها على استحداث مستحضرات لم يعرفها السوق المصري من قبل، ومنها: «ملح الجناين»، «مانيزيا بالينسون»، «أقراص الكالسيوم بالشيكولاتة»، «لبخة الكاولين للالتهابات»، «نبيذ الكينا المقوي»، «أقراص كلفيدي مصر كالسيوم مع فيتامين دال»، «حبوب أفرومصر للتقوية»، وتنبيه المهتمين لكون شركة مصر للمستحضرات الطبية هي المؤسسة الوحيدة التي تحضر دواء «لكتوزان مصر» طازجًا أولًا بأول، لمقاومة ميكروبات العفونة بالأمعاء والنزلات والاضطرابات المعوية خصوصًا عند الأطفال، ونصحت الجمهور بطلبه من صيدلية «الإسعاف».

مع منتصف الأربعينيات ظهرت أكثر من تجربة جديدة لتصنيع الدواء في مصر:

«شركة ممفيس»: أسسها الصيدلي نصري بدران، وكان

عالمًا وباحثًا. واشتهرت بابتكارات في أدوية توسيع الحالب وحصوات الكلى والبهاق.

«شركة سيد»: أسسها الصيدلي أنطوان بشرى، وتولى إدارتها علي سينا الأستاذ بكلية الصيدلة، والدكتور عبده سلام الذي تولى رئاسة مؤسسة الدواء في عهد عبد الناصر فيما بعد. واشتهرت بأنها كانت تنتج العلاج الوحيد المتاح للبلهارسيا و«أقراص الإنتوسيد».

كانت المشاكل التي تواجه المشتغلين في عالم الدواء والتصنيع والتحضير والبيع تتلخص في مشكلتين:

الأولى: عدم وجود رقابة على الأسعار، فمُنتج الدواء هو الذي يحدد سعره. كان «معمل إيكاديل» على سبيل المثال معروفًا بأنه يحدد سعر البيع للجمهور بسبعة أمثال سعر التكلفة.

المشكلة الثانية: يلخصها مقال منشور لواحد من الصيادلة المهمين في مصر، رفض ذكر اسمه ربما خوفًا من سطوة من يهاجمهم المقال:

أهم ما ابتليت به مهنة الصيدلة في مصر، هو سماح القانون بتجارة الأدوية لأي متمول من الناس، فازدحمت تجارة الأدوية بعدد كبير من غير الفنيين، يزاحمون الصيادلة،

ويتلاعبون بالأسعار، حتى كاد أن يفسد الأمر على ذويه.

للصيدلة مسؤولية جسيمة، فكيف تُباح لغير الفنيين الذين أعدوا لها؟ ولماذا يسلبون حق الصيدلي في تجهيز الأدوية وبيعها؟ نحن لا نطالب بإقفال مخازن الأدوية، ولكننا نطالب بالحيلولة بينها وبين معاملة الجمهور، فتقتصر على التوريد للصيدليات والمستشفيات، ذلك لأن المعاملة بالأدوية مع الجمهور ليست تجارة. الصيدلة مهنة فنية يجب أن تقيد بثقافتها الخاصة، فلا يحضَّر أو يُباع الدواء للأفراد إلا من الصيدليات دون غيرها.

شهدت الفترة حتى بداية الخمسينيات إنشاء العديد من الشركات التابعة الأخرى، بالإضافة إلى اندماج عدد كبير من المعامل المتوسطة في كيانات أكبر، وظهرت مشاكل من نوعية أخرى، مثل التي ذكرها الكاتب أحمد الصاوي محمد في مقاله المنشور في «الأهرام»، أكتوبر 1950:

قليلًا ما نجد قرارًا مجردًا من بُعد النظر والتعاون الإنساني، مثل قرار نقابة الصيادلة بوجوب إغلاق الصيدليات من الواحدة إلى الخامسة مساءً يوميًّا.

لو أن هذا القرار ظهر في بلد مستنير مثل باريس، لانحلت تلك النقابة لأنها غير صالحة لمعرفة احتياجات البلد الذي هي فيه.

يبدأ الأطباء عملهم في العيادات في هذا الموعد تقريبًا عقب انصرافهم من المستشفيات أو الكليات. فإذا لاحظنا ما يقضيه المريض في العيادة، ثم الخروج بحثًا عن الدواء، مع ملاحظة صعوبة المواصلات، لا سيما لقوم يحملون معهم أطفالهم أو أمراضهم، مع ملاحظة ندرة الدواء بحيث يضطر المريض أن يتخبط من الشرق إلى الغرب باحثًا عن دواء قد تتوقف عليه الحياة، إذا لاحظنا أن هناك حالات مستعجلة خطرة ومروعة، لم يسعنا إلا أن نتساءل عن العقلية التي قررت هذا الإجراء.

الصيدليات أشبه ما تكون بالمخابز، يجب ألا تغلق أبوابها، وإذا كان في مقدورها أن تفتح 24 ساعة فإنها تُحسن صُنعًا.

مع العدوان الثلاثي على مصر اكتشف المسؤولون أن الدواء في مصر على كف عفريت، وأنه يحتاج إلى نظرة مدروسة وصارمة.

(4)

بعد العدوان الثلاثي تواطأت الشركات الأجنبية التي تغذي المخازن بالأدوية والمعامل بالمستحضرات الطبية مع الدول المعتدية، وتوقفت عن تصدير منتجاتها إلى مصر لإحراج الحكومة. غرق السوق في أزمة، وكشفت دراسة أعدها

الدكتور محمد الشحات أستاذ الصيدلة أن هذه الشركات الأجنبية تغطي 95% من احتياجات السوق المصري، وأن هذا الرواج سببه عدم ثقة الجمهور في الأدوية المحلية لأن الأطباء لا يصفون إلا ما تعودوا عليه من الأدوية الأجنبية، بخلاف الإهمال في مظهر عبوات الدواء المحلي مقارنة بجاذبية المستورد، والإعلانات الجذابة التي تقوم بها الشركات الأجنبية، واهتمامها بالتسويق والهدايا، مقابل أن الشركات المحلية لا تقدم حتى عينات مجانية للأطباء ليجربوها ويكتبوها لمرضاهم. وكان نقص الدواء أزمة، خاصة الفيتامينات وأدوية الروماتيزم وألبان الأطفال.

قرر ناصر تأميم التوكيلات والشركات والمصانع التي يمتلكها اليهود والأجانب، وإنشاء الشركة العامة للتجارة والكيماويات والهيئة العليا للأدوية. كان أول قرارات الهيئة دراسة الأدوية التي يتم استيرادها، وألغت استيراد خمسة وأربعين ألف صنف مكرر أو يوجد له بديل محلي، وأبقت على خمسة آلاف صنف تقوم الشركة العامة باستيرادها مباشرة بدون وكلاء.

كان الدواء وقتها تابعًا لمهام وزير التموين كمال رمزي استينو، الذي تدخَّل للحد من الأزمة ومستغليها بإعادة تسعير أكثر من ألف نوع دواء وتخفيض قيمتها، مثل سعر علبة

دواء «الهيبارين» للذبحة الصدرية من خمسة قروش إلى ثلاثة قروش، وخفض 10% من السعر المكتوب على العلب، مع قيام المسؤولين في وزارة التموين بجولات متخفين، أسفرت عن إحالة ثلاثة صيادلة إلى مجلس تأديب نقابتهم لعدم التزامهم بالتخفيض.

ثم جاءت النقلة الحقيقية مع تولي الدكتور النبوي المهندس مسؤولية وزارة الصحة، وتعامله مع ملف الدواء كمسألة حياة أو موت.

تم اعتماد مبلغ ستة وسبعين مليون جنيه لبدء التصنيع، مع قرارات حكومية بدمج المعامل والشركات الصغيرة في كيانات أكبر بخطة عمل تحت إشراف مؤسسة استحدثت لهذه المهمة: مؤسسة الأدوية.

«شركة الإسكندرية للأدوية»: بقيادة الدكتور الصيدلي إبراهيم عبد الله أستاذ الصيدلة بجامعة الإسكندرية. كانت في الأساس مؤسسة صغيرة تُعرف باسم «معامل نصار»، تقوم بإنتاج المستحضرات الشعبية البسيطة شائعة الاستخدام في ذلك الوقت، وبعض الأدوية الأجنبية باتفاقيات تصنيع خاصة، إلى أن تم نقل إدارتها بالكامل إلى الدولة المصرية، وأشهر منتجاتها كان لصقة الفنار الطبية.

«شركة القاهرة للأدوية»: بقيادة الدكتور علي حجازي (ابن

الصيدلي مؤسس «شركة حجازي»؛ التجربة الوحيدة التي سبقت تجربة طلعت حرب)، وشاركه الإدارة ضابط الجيش الصيدلي إبراهيم برهان. وتأسست بعد دمج ثلاثة معامل للأدوية، هي معامل: «ألفا»، «دوش»، «سيفارم»، ثم ضُمت إليها معامل «بيدا»، وأشهر منتجاتها نقط «البريزولين» للعين.

«الشركة العربية للأدوية»: التي ضمَّت بعض مصانع القطاع الخاص بعد تأميمها، بإدارة الدكتور محمد الشحات، واشتهرت بأقراص «الريفو» التي استخدمها المصريون في علاج معظم أمراضهم.

«شركة النصر لصناعة الكيماويات الدوائية»: التي تم تأسيسها بمعونة فنية روسية، وافتتحها ناصر مع الرئيس الروسي خروشوف، تحت إشراف الدكتور عزيز البنداري (وهو واحد من أهم الأسماء التي تولت رئاسة الهيئة العليا للأدوية، وكان يضع خطط الإنتاج لكل مصانع مؤسسة الدواء)، واشتهرت بإنتاج المضادات الحيوية.

«شركة النيل للأدوية»: تأسست بعد دمج معامل «إيزيس» و«إيكاديل»، وشركة عين شمس للأدوية، وبعض معامل الأدوية الصغيرة الأخرى، ومصنع الخيوط الجراحية، لتصبح صرحًا كبيرًا تحت اسم «شركة النيل»، بإدارة الدكتور عبد

المجيد العقاد، وكان قبلها صيدليًا بالجيش ومديرًا للتموين الطبي به. وتروي الصيدلانية ناهد يوسف خبيرة الدواء ـ التي أسست أكبر وأحدث مصنع للأمبولات تابع للشركة وكانت مديرته ـ عن استعانة العقاد بأساتذة الطب الكبار، مثل: أستاذ طب العيون علي المفتي، وأستاذ طب القلب عبد العزيز الشريف، وأستاذ الفارماكولوجي صلاح عبد التواب، في تصميم تركيبات الأدوية، وتقييم المنتجات من حيث الفائدة العلاجية واستساغة الطعم، وتقديم مقترحات التطوير اللازمة. بخلاف الاستعانة بفنانين لإعادة تصميم أشكال علب الأدوية، ومنحها جاذبية تنافس العبوات الأجنبية. وتأسيس «بيت الحيوان» لإجراء التجارب والبحوث بقيادة الدكتور عصام جلال، وكان مركزًا نموذجيًا للبحوث، ومزارًا للخبراء الأجانب، وعالج الكثير من مشاكل الإنتاج. وبخلاف العلماء كانت التجربة تفخر بالأسطى عريان نصيف؛ أول من شغل ماكينات صنع الأمبولات، ووضع حجر أساس تكنيك التعامل معها، والذي بنت عليه الدكتورة ناهد يوسف مصنع الأمبولات الطبية بمسطرد الذي خرَّج المهندسين والفنيين الذين يديرون معظم مصانع القطاع الخاص.

ظهرت في البداية بعض المشاكل، مثل: السترات الفوارة التي لا تفور، وبعض القطرات التي بها شوائب، وبعض أنواع

المراهم غير الصالحة للاستخدام، وأمبولات الماء المقطر التي تسبب الخراريج. وحدث أن زار أحد الصحفيين النبوي المهندس في مكتبه، كان المهندس فخورًا بمشروع تصنيع الدواء في مصر الذي تأسس على يده، وبنجاحه في تصنيع مصل «التيفود» لأول مرّة. قرر المهندس أن يعرض على ضيفه أحدث إنتاج: نوع من القطرة. عندما أخرجها المهندس تفتتت العلبة في يده، فرفع المهندس سماعة التلفون وطلب اجتماعًا عاجلًا بوكلاء الوزارة، ثم أصدر بعدها قرارًا وزاريًا بتأسيس «هيئة الرقابة على صناعة الدواء في مصر». أسس النبوي هيئة تراقب المشروع الذي أسسه، اخترع المهندس جهة تراقبه وتدقق في عمله، في الوقت الذي يفضِّل فيه أي مسؤول أن يهرب من التدقيق ويختبئ خلف من يهللون له. وكانت الرقابة على الأدوية بقيادة الدكتور وحيد حامد.

بعدها أنشئت «شركة العبوات الدوائية»، بدمج عدد من الشركات الصغيرة التي تم تأميمها (مصنع أبافارم لأنابيب المراهم، مصنع حامد شاكر للزجاج بشبرا، شركة البلاستيك الحديثة، مصنع للنظارات الطبية) تحت رئاسة الكيميائي جمال غالي الذي أسس لمرحلة جديدة في تصنيع العبوات الدوائية.

توالت النجاحات: إنتاج دواء «الميلادنين» الخاص بعلاج

البهاق، صارت السفارات الأجنبية تستقبل روشتات مواطنيها للحصول على الدواء (ثمن العبوة ثلاثون قرشًا)، إنتاج «حبوب منع الحمل» محليًا، إصدار كتالوج للأدوية البديلة، إرسال بعثات من الكيميائيين لمصانع أدوية الخارج بلغت سبعين فنيًا، إنتاج «البنسلين» ومركبات «السلفا» و«الأسبرين» و«الجلوكوز الطبي» وحقن «الكالسيوم» و«السكارين».

كان النجاح مصدرًا لحروب مشروعة، مثل: الأسعار التنافسية، والدعاية الضخمة. تدخَّلت الدولة المصرية بأن وضعت سقفًا لميزانية عمل وكلاء هذه الشركات، وعدم السماح لها بتوريد أو تصنيع أي دواء إلا بعد إقرار المصانع المصرية بعدم قدرتها على إنتاجه.

وحروب غير مشروعة، مثل: قيام بعض الشركات الأجنبية بشراء زجاجات الدواء المصري وإعادة طرحها في السوق بعد تعبئتها بحشرات ميتة، وهي ثغرة تم التغلب عليها بابتكار الدكتور جمال غالي الذي صمم أغطية يمكن للمريض اكتشاف أنها فُتحت من قبل.

(5)

شهدت الستينيات تأسيسًا حقيقيًا لصناعة وطنية غطى إنتاجها في أقل من عشر سنوات ٨٥٪ من حجم احتياجات

الشعب المصري من الأدوية، بخلاف ما قدمته التجربة من مهندسين وكيميائيين وفنيين وعمال وصيادلة تلقوا مزيج الخبرة والتدريب والبعثات للخارج، الأمر الذي صنع منهم الأساس الذي تقوم عليه حتى اليوم صناعة الدواء في مصر والوطن العربي. لم يترك القائمون على التجربة تفصيلة واحدة من دون العمل عليها بشكل ممنهج ومدروس، بداية بلجنة صارمة للتسعير بقيادة الدكتور زكريا جاد، أخضع لها حتى الشركات الأجنبية، وحدَّد هامش ربح الصيدليات بـ15% من سعر الدواء، مرورًا بالرقابة الصارمة والحملات من الإدارة العامة للتفتيش الصيدلي على المصانع والصيدليات والمخازن، لتتأكد من توفر شروط التخزين، وتجمع عينات من معظم المعروضات للتحليل في معامل وزارة الصحة، وتعدم أي أدوية غير مطابقة للمواصفات، نهايةً بإنشاء أكثر من خمسمائة صيدلية في الوحدات المجمعة بالقرى، وكان توفير الدواء لأهل الريف مشروعًا مستقلًّا على هامش هذه الثورة الصناعية.

لكنَّ وهنًا ما اعترى ضمير الصناعة الوطنية مع عودة الشركات الأجنبية ووكلائها إلى الساحة بعد «معاهدة السلام» في نهاية السبعينيات. بدأ الضعف يتسلل إلى الصناعة الوطنية بقيام السادات بإلغاء المؤسسات الحكومية التي تدير وتدعم وتحمي هذه الصناعة، وترك التجربة تدير

نفسها بنفسها. في الوقت نفسه كانت عودة الشركات الأجنبية محملة بمرتبات مغرية سحبت العمالة المتميزة، وغياب تام لقواعد السياسة التنافسية التي كانت تحمي المنتج المصري، وحرب خفية كانت تهشم سمعته ببطء. تراجعت نسبة تغطية الإنتاج المحلي للاستهلاك في مصر إلى ما يقرب من 5% فقط.

على الرغم من ذلك يعرف أهل المهنة أن ما أسسه أوائل مُصنعي الأدوية في الستينيات هو الذي مهّد الطريق بنعومة لكل من جاء بعدهم، حتى وصل حجم إنتاج الدواء في 2021 إلى نحو 8 مليارات دولار، بعدد مصانع تجاوز المائة والخمسين مصنعًا، وأكثر من اثنين وستين ألف صيدلية في كل أنحاء مصر، وعدد قليل جدًّا من الأجزاخانات التي تختبئ في شوارع قديمة ترفرف حولها روح الدكتور كمال ورفاقه الأجزجية.

محمد عوض محمد

صنايعي تنظيم الأسرة

أفتش عن النقطة التي بدأت عندها الدعوة لتنظيم الأسرة في مصر. في خلفية العمل توقعات أن تكون البداية عند طبيب مشغول بالصحة العامة، أو عالم اقتصاد مشغول بالوضع المادي للأفراد والمجتمع، أو رجل سياسة يرى في زيادة السكان إعاقة ما. لم أتوقع أن أجد البداية عند عالم جغرافيا.

لم يكن الدكتور محمد عوض محمد مجرد رجل جغرافيا، لكنه الأب الروحي لهذا العلم في مصر، من أشهر طلابه على سبيل المثال الدكتور جمال حمدان؛ التلميذ الذي كان يفخر بأنه نسخ بخط يده كتاب «نهر النيل» الذي ألَّفه أستاذه.

جغرافية عطاء الدكتور عوض تمتد بمساحة الكرة الأرضية تقريبًا. هو واحد من أربعة اشتركوا في وضع ميثاق الأمم المتحدة، كان عضو وفد مصر المسافر إلى سان فرانسيسكو في عام 1945 للمشاركة في وضع القواعد التنظيمية لهذا الكيان. خلال هذه الجلسات كان الدكتور عوض رئيسًا لشعبة العلوم الاجتماعية التي أصبحت فيما بعد هيئة اليونسكو العالمية، والتي أصبح رئيسًا لها في الفترة 1960-1962.

خلال انشغاله بتأليف كتابه القيِّم «سكان هذا الكوكب» الصادر في عام 1936، الذي يناقش توزيع السكان في كل بقاع العالم وما يترتب عليه من آثار اقتصادية وصحية بل وحتى دينية أيضًا، لاحظ أن الحال في مصر - كتطبيق - ليست على ما يرام؛ السكان يتكاثرون بسرعة، والموارد لا تتزايد بالسرعة نفسها، فقرر في العام نفسه إنشاء جمعية لتبني تحديد النسل أسماها «الجمعية المصرية لتحديد النسل»، وبدأ في عقد الندوات وجلسات المناقشة في حضور العلماء والمتخصصين من كبار الأطباء إلى الشيخ محمود شلتوت (شيخ الأزهر فيما بعد، وأول من حمل لقب الإمام الأكبر). كان يفتش عن أنسب طريقة لتسكين الفكرة بهدوء في الوجدان العام.

في إحدى الندوات اعترض أحد المسؤولين الكبار على ما يحدث، وهاجم عوض قائلًا: «إيه اللي إنت بتعمله ده؟! هل تركت التدريس في الجامعة من أجل هذه الأفكار؟!». قال عوض: «إن هذه الأفكار هي صميم عملي. دي جغرافيا». قال المسؤول: «هل تُسمي علاقة الرجل بزوجته جغرافيا؟!». قال عوض: «علاقة الرجل بزوجته تؤثر في السكان، وهذا من صميم الجغرافيا».

كانت هناك موجة غضب مغلَّفة بالغيرة الدينية تستقبل

الفكرة في المنتديات المغلقة، نصحه كثيرون بالحصول على فتوى إذا كان ينوي الاستمرار، وكان المفتي في ذلك الوقت الشيخ عبد المجيد سليم.

ذهب عوض إلى الدكتور طه حسين، وعرض عليه الأمر، فساعده واستطاع أن يحصل على فتوى من الشيخ عبد المجيد بإباحة تنظيم الأسرة.

الفتوى ـ وهي الأولى من نوعها رسميًا ـ ما زالت موجودة على موقع دار الإفتاء بتاريخ يناير 1936 رقم 2708، ونصها:

ما قول فضيلتكم فيما يأتي: رجل متزوج رُزِق بولد واحد، ويخشى إن هو رُزِق أولادًا كثيرين أن يقع في حرج من عدم قدرة على تربية الأولاد والعناية بهم، أو أن تضعف أعصابه عن تحمل واجباتهم، أو أن تسوء صحة زوجته. فهل له أو لزوجته أن يتخذ بعض الوسائل التي يشير بها الأطباء ليتجنب كثرة النسل بحيث تطول الفترة بين الحمل والحمل فتستريح الأم ولا يُرهق الوالد؟

رد فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم:

يجوز شرعًا اتخاذ بعض الوسائل لمنع الحمل، وعلى الزوجين أن يتراضيا بشأن هذا الأمر. ويجوز اتخاذ أحد الزوجين

لوسيلة منع الحمل ولو لم يرضَ الآخر إن كان هناك عذر. مع الأخذ في الاعتبار أن منع الحمل بإسقاط الحمل من الرحم بعد استقراره فيه وقبل نفخ الروح لا يجوز إلا بعذر، أما بعد نفخ الروح فلا يباح إسقاطه.

كانت هذه الفتوى حجر أساس نقل الندوات وجلسات النقاش بشجاعة وثبات من ملاعب الخاصة إلى العامة في الحارات والقرى. تبنَّت الصحف مناقشة الفتوى وأفكار الجمعية. واستغل الدكتور عوض الفرصة لترسيخ مشروعه في الوجدان الشعبي بأن اشترك مع الجمعية الطبية في تنظيم «أسبوع تحديد النسل» كل شهر تحت رعاية الأطباء؛ مجموعات تطوف بالمدن والقرى تعرض الفكرة وكل ما يتعلق بها دينيًّا وصحيًّا واجتماعيًّا.

طرح الدكتور محمد عوض الفكرة، ثم وفَّر لها إطارًا تنظيميًّا في شكل جمعية مشهرة من حقها عقد الندوات والجلسات والزيارات الميدانية، بعدها اتخذ الخطوة الأهم بأن وفَّر للمشروع الغطاء الديني الذي تحتاج إليه فكرة جديدة من نوعها على مجتمع متدين بطبعه بفتوى من أحد المشايخ الذين كانوا من تلاميذ الشيخ محمد عبده، ثم وفَّر لها الغطاء العلمي بأن أشرك في المسؤولية الجمعية الطبية المصرية (نقابة الأطباء فيما بعد)، ولم يبخل على مشروعه

بالجهد في دعمه إعلاميًّا عبر الصحف والمجلات، حتى أصبحت الفكرة قوية بما يكفي لأن تتحرك بحرية وتتناقلها الألسنة والأدمغة، وتحولت إلى واقع يضم كل فترة داعمين جددًا، حتى اللحظة التي بدأ معها رسميًّا تصنيع حبوب منع الحمل في مصر، ثم قرار جمال عبد الناصر رقم 4075 لسنة 1965 بإنشاء المجلس الأعلى لتنظيم الأسرة التابع لرئيس الوزراء.

حصل الدكتور محمد عوض محمد على البكالوريا في عام 1913، والتحق بمدرسة المعلمين. اعتقل سنة 1915 في أثناء الحرب العالمية الأولى بتهمة تدبير المكائد ضد الدولة، سُجن هنا ثم نُقل إلى مالطة وكان عمره عشرين عامًا، وهناك تعلَّم اللغات الألمانية والتركية والفارسية، وترجم «فاوست». وعقب العودة في عام 1919 كان قرار مجلس الوزراء بحرمانه من التعليم والشهادات ومن دخول المدارس أو تولي وظائف الدولة، فتقدم لامتحان مدرسة المعلمين من المنازل. عمل مدرسًا وصحفيًّا ومترجمًا. وساعده النجاح بتفوق على الحصول على بعثة دراسية حصل خلالها على الماجستير من جامعة ليفربول، ثم الدكتوراه من جامعة لندن، وعُيِّن بعدها أستاذًا بجامعة فؤاد الأول. أسس معهد الدراسات الأفريقية في مصر. وعُيِّن وزيرًا للمعارف في عام 1954. تُوفِّي في يناير 1972.

معرض صور

الفصل الخامس



جورج ستيفنسون مؤسس أجزاخانة ستيفنسون



الدكتور رياض أرمانيوس مؤسس معمل الدلتا



اقتل
هذا الألم!

« أبو شنب » انه صديقك منذ أكثر من ٧٠ عاما ... يجلب لك راحة سريعة من آلام الرطوبة، عرق النسا، ألم الظهر، اللمباجو، والروماتيزم. إن مفعول مروخ سلون الملطف يزيل جميع الآلام العضلية. فقط ضع قليلا من النقط على موضع الألم، بدون دعك !... فتحصل على راحة سريعة محققة.

SLOAN'S LINIMENT
مروخ سلون
أبو شنب

مروخ سلون
يحقق لك راحة سريعة من
الروماتيزم - آلام الظهر - الرضوض والالتواءات

نموذج لإعلانات الدواء الشائعة في الثلاثينيات



شعار شركة تصنيع الأدوية التي أسسها طلعت حرب



ملح الجناين والكالسيوم بالشيكولاتة أشهر منتجات الشركة الجديدة

إذا كان كل برد بمثابة معركة

جرب هذه الطريقة السهلة التى تستعمل من الخارج للتخلص من البرد بسرعة

ليست هنالك مضايقة ولا عناء أو نضال
إذا عالجت برد أى طفل « بفكس ڤابوراب » باستعماله من الظاهر ، حيث لا تعمل سوى أن تدلك به الحلق والصدر والظهر وقت النوم. والأطفال يشعرون بلذة لتأثير حرارته ويستطيبون رائحة بخاره ، وبديهى أن ليس هناك خوف من أن يحدث أى اضطراب حتى لمعدة الأطفال الصغيرة.

وتنال الراحة بأقصى سرعة ، إذ أن « ڤابوراب » يكفل عاجلا راحة للأنف المسدود والحلق والصدر المتألمة ، وذلك بطريقتين.

١ — **بفضل بخاره الشافى** الناجم من تأثير حرارة الجسم على ڤابوراب ، وهذا البخار يستنشق ويتغلغل فى مجارى التنفس التى لا يصل إليها رأساً سوى البخار ، وهنالك يحدث مفعوله المفيد ، فيخفف البلغم ويريح فى التنفس وينقذ من الكحة.

٢ — **يعمل كلزقة** إذ أن « ڤابوراب » يؤثر على الجسم فيسحب الألم من الحلق والصدر ويزيل الانقباض منه وحينئذ ينام الطفل نوما هادئا ، حيث « ڤابوراب » يحدث مفعوله المفيد لحظة بعد أخرى. وفى الصباح تلاشت عادة أشد حالات البرد.

٣٦ مليون والدة فى أكثر من ٧١ قطراً يستعملن « ڤابوراب » سنويا ، وقد جربته لك. والآن برهن لنفسك على أن « ڤابوراب » يستطيع بسرعة وبسهولة أن ينقذ أفراد العائلة من البرد.

يكفى أن تدلك بڤابوراب بسرعة ...

يسلك الأنف المزكوم
يخفف ألم الحلوق
يريح الصدر الضيق
يريح من الكحة

يُباع حاليا فى حجمين متناسبين

VICKS VAPORUB

فكس ڤابوراب

يستعمل منه سنويا أكثر من ٢٦ مليون حق

«فيكس فابوراب» وقت أن كان الدواء يباع بـ«الحُق»

الصحة قبل كل شيء



علاج جديد لفشل التلاميذ في التعليم



«الشِشم» علاج العيون المفضَّل في الأربعينيات



الدكتور النبوي المهندس صاحب النقلة الحقيقية في صناعة الدواء المصري يتلقى تكريم عبد الناصر والرئيس الروسي خروشوف



عبد الناصر وخروشوف والنبوي المهندس في افتتاح شركة النصر لصناعة الكيماويات الدوائية



بدء تصنيع الدواء في مصر



أول منتجات شركات ومصانع الدواء المصرية (من إنتاج شركة ممفيس)



قسم تغليف الأدوية بأحد المصانع الجديدة

بودرة
حامودرم
تخلصك على الفور ..
من متاعب جو الصيف !
فاعلية مؤكدة في حالات : حمو النيل - الالتهابات الجلدية
للكبار والصغار
إنتاج : شركة النيل للأدوية
احدى شركات المؤسسة المصرية العامة للأدوية
مبيعات التجميل / ٣ شارع جواد حسني بالقاهرة
ت ٥٢٦٤٩/٥٣٣٤٨/٥٨٣٢٧
متوفر بالصيدليات ومحلات مستحضرات التجميل

من إنتاج شركة النيل للأدوية



قسم المضادات الحيوية في مصانع شركة «سيد»



من إنتاج شركة الإسكندرية للأدوية

التجربة
خير دليل

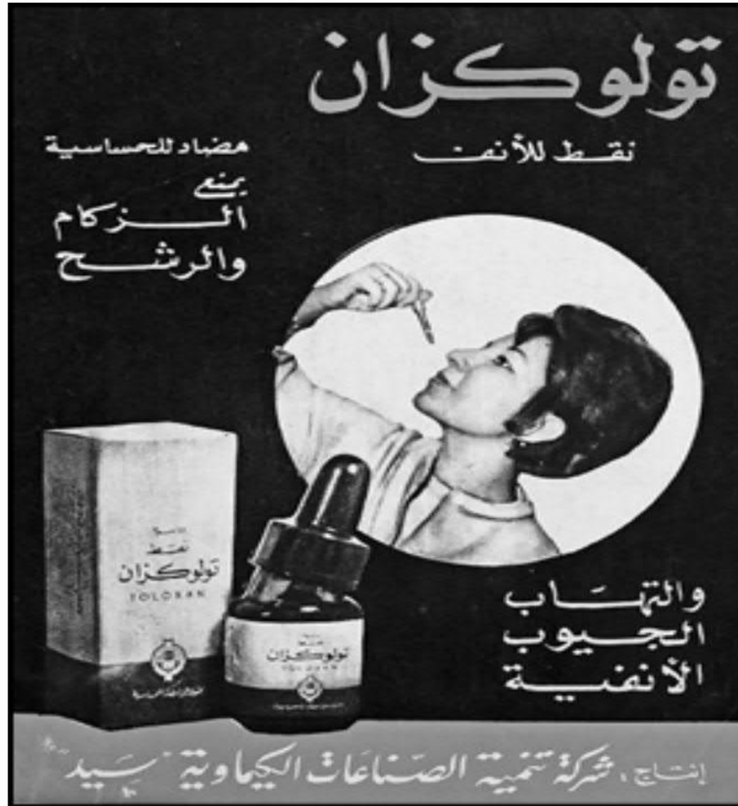
أقراص جلوتافوس
هى سر نجاحك

جلوتافوس مقوى للذاكرة
جلوتافوس لزيادة قدرة التركيز وسلامة التفكير
جلوتافوس منشط لوظائف الجسم الطبيعية
جلوتافوس فاتح للشهية

جلوتافوس

من إنتاج : شركة القاهرة للأدوية والصناعات الكيماوية

من إنتاج شركة القاهرة للأدوية



من إنتاج شركة «سيد»



الشيخ عبد المجيد سليم صاحب أول فتوى رسمية تبيح تحديد النسل



الجغرافي الكبير محمد عوض محمد مؤسس «الجمعية المصرية لتحديد النسل»



بعد انطلاق الكلام الرسمي عن زيادة النسل في مصر في نهاية الستينيات الفنان الكبير حجازي يدلي بوجهة نظره

الفصل السادس

ميشيل باخوم
صنايعي كوبري أكتوبر واستاد القاهرة

(1)

أزور عمتي في شارع يحمل اسمًا موسيقيًا جذابًا: «ميشيل باخوم». سنوات وأنا أحاول أن أخمن هوية هذا الرجل، مر وقت طويل قبل أن أعرف أنه معماري وشريك في «محرم باخوم»؛ المكتب الهندسي الذي قدَّم للبلد وسكانه ما هو أكبر من مجرد منشآت ومبانٍ، قدَّم تاريخًا اجتماعيًا: قصص الوداع والعودة إلى الوطن في «المطار القديم»، حفلات الزفاف وثنائيات الغرام وجلسات الونس والصيد والتأمل والتخفف من الأحزان والبحث عن أفكار للحياة فوق «كوبري أكتوبر»، لحظات الفرح والإثارة والدراما وصناعة الأمجاد وزلزلة الغناء الجماعي للنشيد الوطني في «استاد القاهرة».

سافر ميشيل باخوم إلى أمريكا لنيل الدكتوراه الثانية بعد أن اتخذ قرارين: الأول أنه سيعود إلى مصر، والثاني أنه لن يتزوج أمريكية قد تعوقه عن تنفيذ هذا القرار. حتى عندما عرضت جامعة إلينوي أن تسدد لمصر تكلفة البعثة على أن يظل في أمريكا وينضم إلى هيئة التدريس في إلينوي كان رفضه قاطعًا، ولم يغره ثناء عميد الجامعة الذي قال: «لم

يزرنا منذ 22 عامًا طالب بهذه العقلية». ولم يكن هذا غريبًا على باخوم أول القُطر المصري في الثانوية العامة (القسم العلمي) 1931، والحائز جائزة الأمير عمر طوسون بسبب تفوقه، والحاصل على دكتوراه جامعة فؤاد عام 1945 قبل أن يحصل على واحدة أخرى من أمريكا في منتصف الأربعينيات.

عاد باخوم من أمريكا في منتصف عام 1949، واستأجر غرفة في شقة بشارع شامبليون، أسس فيها مع الدكتور المهندس أحمد محرم كيان «محرم باخوم». وبمرور الوقت أصبحت هذه «الشركة الغرفة» طابقًا كاملًا يضم أربع شقق. تخصص باخوم في الخرسانة، وكان يتتبع علومها وكل جديد فيها بشغف للمزيد من التعلم جعله يسافر من جديد للدراسة في جامعة كولومبيا، ثم العمل في إحدى الشركات الكبيرة في نيويورك، ثم التقط خيط «الخرسانة سابقة الإجهاد» وأدخلها إلى مصر. كانت معجزة معمارية، لأنها تقلل تكاليف البناء، وتسمح بمرونة كبيرة في الأفكار، وكان تطبيقها الأساسي في ألمانيا بعد الحرب، حيث كان الحديد نادرًا والتمويل ضعيفًا. فزار مؤتمرات كثيرة هناك، كان يرجع بعدها يقضي الوقت في البحث وعمل التجارب في معمل الخرسانة بجامعة القاهرة الذي كان يرأسه حتى نهاية الخمسينيات، والذي تتوسط جدرانه صورة كبيرة لباخوم

حتى اليوم.

(2)

حتى هذه اللحظة لم يكن اسم باخوم قد ظهر في الصحف المصرية سوى مرة واحدة، وكان ظهوره الأول في الصحف غير مرتبط بقدراته الهندسية والعلمية، لكنه كان متعلقًا بقدراته الإنسانية.

في يونيو 1958 كان هناك خبر صغير في «الأهرام» يقول:

كتب الدكتور ميشيل باخوم، الأستاذ بكلية الهندسة، تعهدًا بدفع مصروفات 12 طالبًا بالبكالوريوس ليحميهم من الطرد وضياع مستقبلهم. لم يكن الطلبة قد سددوا المصروفات، وفي أثناء امتحان نهاية العام أصدر عميد الكلية الدكتور عبد العزيز صالح قرارًا بطردهم من لجنة الامتحانات، وأُخرجوا بالفعل منها، وحاولوا المستحيل للعودة إليها دون جدوى، ثم سمح لهم العميد بإتمام الامتحان، بعد أن كتب الدكتور باخوم تعهدًا على نفسه بسداد هذه المصروفات، وقد وافق العميد على التعهد.

(3)

في نهاية عام 1968 قررت وزارة النقل تحويل الميزانية الممنوحة لها لحل أزمة المواصلات إلى بناء «كوبري

رمسيس» (كان العمل في الكوبري قد انتصف وقت العبور، فتم تغيير اسمه إلى «كوبري 6 أكتوبر»). وكان أول المبالغ المنصرفة تحت بند تعويض أصحاب الأراضي والبيوت التي سيتم نزع ملكيتها للبدء في تنفيذ الكوبري، وكانت دفعة التعويض الأولى بقيمة مائة ألف جنيه من نصيب ـ حسب تعبير جريدة «الأهرام» ـ سكان «عزبة العجوزة» في الدقي، مع توفير وحدات سكنية بديلة لسكان المنطقة.

عند التنفيذ كان باخوم اختيارًا نموذجيًا بمعجزة الخرسانة سابقة الإجهاد التي تناسب دولة استنزفت معظم «دولاراتها» في حرب أكتوبر فأصبح مستحيلًا الاستعانة بشركات عالمية. قال باخوم وقتها بثقة: «مش عايزين حاجة من حد». بدأت المرحلة الأولى من منطقة المتحف الزراعي حتى شاطئ النيل الصغير. الهدف عبور النيل الكبير بأوسع شرفة ممكنة، مستشرفًا زحام الأجيال المقبلة، وبأقل تكلفة متاحة، وتصميم يسمح للسفن والمراكب بالعبور دون إزعاج.

استمر العمل في الإجازات الرسمية وخلال شهر رمضان. كانت الأوامر التي قبِلها الجميع بدون تفكير أن إجازة العيد لن تكون أربعة أيام ولكن ست ساعات فقط تبدأ بعد انتهاء صلاة العيد. تحوَّل العمل من مجرد مشروع إلى مدرسة هندسة كبرى، فحسب شهادة العاملين كان المهندس يحصل

على خبرة عمل عشرة أعوام بالعمل عامين في هذا المشروع الذي تجمعت فيه كل فنون قطاعات الأعمال الإنشائية والهندسية.

كان كل عامل يعي المسؤولية الأدبية في أن يحمل المشروع اسم انتصار مصر الطازج والأهم في تاريخها الحديث. أنتج العمل في كوبري 6 أكتوبر (تحت لافتة «محرم باخوم») مهندسين أصبحوا مرجعية في الخلطات الخرسانية، وإغلاق المجرى المائي، وتنفيذ خرسانة ذات قوة تحمُّل تصل إلى 500 كيلوجرام في السنتيمتر المربع، وبناء الممرات العلوية بطول شارع الكورنيش لنقل المعدات والمؤن والمواد البنائية بعيدًا عن المارة، بخلاف أستاذية استخدام الخرسانة سابقة الإجهاد التي ساعدت، بالإضافة إلى توفير ملايين من أوراق العملة الصعبة، في عمل فتحات متباعدة تحمل الكوبري وتسمح بتسيير الملاحة النهرية.

(4)

كانت القاهرة كعاصمة في منتصف الخمسينيات ينقصها الكثير مقارنةً بعواصم الدول الكبرى، أهم ما ينقصها استاد كرة قدم كبير. تم الاتفاق على تنفيذ الحلم، ووضعت القيادة حجر الأساس للمشروع في «مدينة الأوقاف» (المهندسين حاليًا).

بعد فترة قررت القيادة إقامة المشروع في المنطقة التي كان يتم تجهيزها لإنشاء عاصمة إدارية جديدة كان اسمها المبدئي «عاصمة الثورة»، وتقع في المنطقة بين العباسية ومصر الجديدة (مدينة نصر حاليًا). وتم تجهيز المنطقة، وفي الوقت نفسه تم استقدام الخبير الألماني فيرنر مارش، أستاذ التخطيط في جامعة برلين، لوضع المخطط العام للمشروع والرسوم الأولية الخاصة به، على أن يبدأ التنفيذ سريعًا.

لكن مفهوم «سريع» كان نسبيًا، ويبدو أن الخبير الألماني لم يشعر براحة كاملة في التعامل مع جهات حكومية، حتى إنه علق لمندوب «الأهرام» على كلام المسؤولين بأن العمل سيبدأ قريبًا قائلًا: «أسعدني سماع أن الحكومة مهتمة، فقد مرت بي لحظات كان يخيل لي فيها أن هذا المشروع لن يتم تنفيذه».

لكن أرشيف تتابع الأحداث يقول إن الخبير الألماني لم يظهر في الصورة مجددًا سوى مرَّة واحدة عند دعوته لحضور حفل افتتاح الاستاد، قبلها لم يتردد اسمه بين تصريحات حكومية كثيرة بدا واضحًا فيها أن لجانًا حكومية وضعت لمستها على تصميم الخبير الألماني، فقد قررت اللجنة أن يكون للاستاد أربعة مداخل بدلًا من اثنين حسب

تصميم الخبير، كما أن اللجنة قررت أن تطوف باستادات عالمية لتقتبس منها أفكارًا تعجبها، فاقتبست لوحة النتائج الإلكترونية من استاد بودابست، ومن دول أخرى نظام دخول للجماهير من أعلى إلى أسفل والتفريغ بالعكس، وعادت اللجنة بخبراء من تشيكوسلوفاكيا وروسيا وغيرهما من أجل تحويل أحلام اللجنة إلى حقيقة، ثم انهار الحلم كله بعد العدوان الثلاثي.

ثم حدث أن فتح الانتصار السياسي الذي حققته مصر عقب حرب بور سعيد شهيتها لتنفيذ الأحلام المؤجلة، وكان أول قرار من ناصر هو تقليص فترة إنجاز المشروع من تسع سنوات إلى ثلاث، ليس حبًّا في الرياضة فقط، ولكن لأن الاستاد سيكون مفتاح مدينة الثورة الجديدة. وضخ إلى المشروع مبالغ جديدة، لنصبح أمام أفكار كثيرة وبعض المال لكن بلا جهة تنفذ الحلم، إلى أن ظهرت شركة «محرم باخوم»، وتقدمت إلى مناقصة التنفيذ، ورست عليها المناقصة بمبلغ 499 ألف جنيه، في حين كانت الميزانية المطلوبة لتحقيق المشروع كما ينبغي تزيد على المليون جنيه.

بدأ العمل، وعلى هامشه كان العاملون في المشروع يمررون إلى الصحف معلومات عن تفاصيل تعوق انطلاقهم،

فكتب نجيب المستكاوي نصف صفحة في «الأهرام» في أكتوبر 1958 بعنوان «أنقذوا استاد القاهرة»، نقل من خلالها الصورة كاملة، وأعلن عن حاجة المشروع إلى دعم الدولة حتى لا يصبح مجرد ملعب كرة قدم بمقاعد أسمنتية ولا شيء آخر.

قررت الحكومة الاستغناء عن بعض الأفكار توفيرًا للنفقات، فتم إلغاء تكييف الهواء، وماكينات الديزل الاحتياطية، وأجهزة التنبيه ضد الحرائق، وشبكة التلفونات، وعدد من المصاعد، وأجلت إنشاء لوحة النتائج الضوئية. فتم توفير مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه، استؤنف بها العمل على وعد بتحقيق حلم القيادة بافتتاح الاستاد في الاحتفال بعيد الثورة 1960 وهو ما تم بالفعل.

تحدد موعد افتتاح الاستاد بحضور جمال عبد الناصر وضيفه رئيس السودان إبراهيم عبود، في 24 يوليو 1960، وتقرر أن يحضر الحدث أكثر من مائة ألف مواطن، نظمت الدولة طريقة حضورهم ونشرتها في الصحف قبل الافتتاح بأيام، وكانت كالتالي:

سكان المنيل، والمعادي، وحلوان، والسيدة زينب، وباب الشعرية، ستُصرف لهم تذاكر حمراء اللون، وستكون في انتظارهم مائة أتوبيس في ميدان الجيزة وميدان عابدين

لنقلهم مجانًا إلى الاستاد، على أن يكون دخولهم من بوابتَي 1 و2.

سكان مصر الجديدة، والمطرية، والزيتون، وحدائق القبة، ستُصرف لهم تذاكر صفراء اللون، وستنتظرهم مائة أتوبيس في ميدان روكسي، والدخول من بوابتَي 3 و4.

سكان الجزيرة، والزمالك، وإمبابة، وشبرا، وروض الفرج، وبولاق، ستُصرف لهم تذاكر خضراء اللون، وستنتظرهم مائة أتوبيس في ميدان الجيش، والدخول من بوابتَي 7 و8.

يومها وقف عبد الناصر يقول: «نفتتح هذا الملعب، ونشعر بالحمد في عيد الثورة الثامن لله الذي أعاننا على البناء، ومكننا من الفرصة التي نحتفل فيها اليوم بهذا العمل الكبير».

بعدها تم منح وسام الجمهورية لباخوم تقديرًا لنجاحه.

في يناير 1970، كان فريق الإسماعيلي يستعد لنهائي بطولة أفريقيا أمام «الأنجلبير» بطل الكونغو، وقتها تحدث الجميع عن كارثة متوقعة في الاستاد الذي يسع ثمانين ألفًا بينما كان عدد الحضور لتشجيع الإسماعيلي أكثر من مائة وثلاثين ألفًا. كان الجميع يقف في انتظار لحظة انهيار المدرجات، لكن ثقة باخوم في عمله انتصرت في النهاية، بعد

أن تحمَّلت المدرجات هذا العدد الذي كان يقفز ويدبدب فوق الأرض مع كل هدف يحرزه الإسماعيلي حتى انتهت المباراة بنتيجة 3-1 لصالحه، ليفوز الإسماعيلي بالبطولة.

صار استاد القاهرة نقطة ارتكاز البطولات الكبرى والمباريات المهمة، وميدانًا للبهجة المشتعلة وصناعة البهجة والأمجاد، وكان خلف كل هذا ـ حسب شهادة الابن الدكتور مراد باخوم ـ رجل «ملوش في الكورة»، ولا يجد متعته إلا في الموسيقى الكلاسيكية.

(5)

يحمل باخوم جينات جده وجدته اللذين حضرا إلى القاهرة عام 1905 سيرًا على الأقدام من «طهطا ـ قرية الشيخ مسعود». كان جده يعمل خطاطًا ينسخ الكتب، وفقد مورد رزقه بعد دخول وانتشار المطبعة مع بداية القرن، وقرر عدم الاستسلام للهزيمة، فهاجر إلى العاصمة حيث تعيش شقيقته، وهناك استأنف كفاحه.

باخوم أيضًا كان مكافحًا، حكى لي الدكتور مراد ميشيل باخوم عن قدرة والده الخرافية على العمل: يبدأ يومه في الثالثة صباحًا، ويعمل حتى السادسة صباحًا، كان يراجع المحاضرة التي سيلقيها على طلابه في الجامعة، يكتبها بيده، ويحفظها، ثم يدخل إلى المحاضرة كما حفظه الطلاب

بلا أي أوراق في يده ليشرح من ذهنه بالساعات، يحصل على ساعة راحة من السادسة صباحًا إلى السابعة قبل أن يغادر منزله ليغطي التزاماته الميدانية والأكاديمية، ليعود في الواحدة ظهرًا من أجل ساعة راحة أخرى، ثم إلى مشاريعه ومكتبه حتى التاسعة مساء، يعود بعدها ليقضي ساعة مع أسرته قبل أن يذهب إلى النوم في العاشرة.

وهو أيضًا ـ مثل جده ـ لم يألف يومًا فكرة الاستسلام: عندما بدأ نظره يضعف وتغيم عيناه بالتدريج، اختار صديقًا له يعمل في الإذاعة، واتفق معه على أن يسجل له بصوته الكتب التي يحتاج إلى قراءتها، فلم يتوقف عن البحث والمعرفة. لم يستسلم لإغراءات نشر الأبحاث المهمة في المجلات العالمية، وأصر على نشرها في مجلة جامعة القاهرة حتى يجذب أنظار العالم إليها. لم يستسلم لإغراءات مادية يقتفي أثرها بعض أساتذة الجامعة، فكان مشهورًا بأنه يطبع المذكرات والكتب على نفقته، ويتركها عند «عم حسانين» ليراقب توزيعها على الطلبة مجانًا، كان منحازًا للطلبة.

جمعه اللقاء في منزل صديق مشترك مع اللواء محمد نجيب. كان نجيب معجبًا بإنجازات وعلم باخوم، وفتش عما يعبر من خلاله عن تقديره له، ولم يجد سوى مصحف أخضر

اللون. كتب له نجيب في صفحته الأولى إهداء بتوقيع «محمد نجيب ـ رئيس الجمهورية السابق». وقد ظل هذا المصحف على كومود إلى جوار فراش ميشيل باخوم حتى رحيله.

لم يستسلم باخوم للراحة بعد نجاحات كان يرى مصر كلها تنعم بها، مثل كوبري أكتوبر واستاد القاهرة والمطار، وفتش عن نجاحات جديدة، فكان مصنع كيما أسوان، ونفق أحمد حمدي، والكاتدرائية المرقسية في العباسية، ومصنع الحديد والصلب في حلوان. عرف باخوم أن القدر اختاره ليصبح المهندس المدني الذي يقف خلف منشآت ستصبح تفصيلة مهمة في سيرة حياة وذكريات سكان هذا البلد. فهم أنها شراكة للتاريخ، وبناءً عليه لم يستسلم باخوم للتوصيف الأكاديمي في جملة «أستاذ الإنشاءات»، وكافح حتى تصبح توصيفًا وطنيًا إنسانيًا يليق بشراكة كانت أعمق من الحجارة والخرسانة، شراكة من دم ولحم.

كان الظهور الأخير للدكتور ميشيل باخوم في الصحافة المصرية في 22 أبريل 1981، حيث نشرت «الأهرام» خبر رحيله في الصفحة الأولى قائلة إن باخوم كان مهندس كثير من المشروعات الحيوية بمصر، ورحل عن 68 عامًا. وفي الصفحة الأخيرة عبَّر الكاتب الكبير كمال الملاخ في عموده

عن تقديره لعبقرية رجل سهر وبحث ودقق وأسس مئات المشروعات التي تخدم مصر وأهلها، وطالبَ جامعة القاهرة أن تقيم في ساحة حديقتها تمثالًا نصفيًا لميشيل باخوم تعبيرًا عن قيمة ما قدمه، وهو اقتراح لم يستمع إليه أحد حتى هذه اللحظة.

أحمد محرم
صنايعي شخصية العاصمة

(1)

بداية الخمسينيات كان أحمد محرم يحتفل بأول إنجاز لمكتبه الهندسي الصغير، كان الإنجاز بسيطًا؛ مخزن أدوات طباعة في بدروم إحدى العمارات.

بداية الثمانينيات كان أحمد محرم يحتفل بحصوله على جائزة الدولة التقديرية في الهندسة بعد إنجاز يمكن تمييزه بسهولة في العاصمة التي شكّلت مشروعات محرم جزءًا كبيرًا من ملامح شخصيتها: مترو الأنفاق، الطريق الدائري حول القاهرة الكبرى، محور 26 يوليو، كوبري 15 مايو، كوبري روض الفرج، كوبري الجامعة، كوبري غمرة الملجم، جراج التحرير، جراج الأوبرا، جراج العتبة، مشروع الصرف الصحي للقاهرة الكبرى (منطقة شرق النيل)، مستشفى ناصر (كورنيش النيل)، مستشفى دار الفؤاد (6 أكتوبر)، فندق الميريديان، مبنى وزارة الخارجية (كورنيش النيل)، أبراج عثمان (المعادي)، طريق الساحل الدولي، مجمع المحاكم بشبرا، أرض المعارض بمدينة نصر، مطار القاهرة الدولي المحطات النهائية 1 و2، مصنع الإلكترونيات للهيئة العربية

للتصنيع.

ما بين التاريخين لم يتوقف محرم يومًا واحدًا عن واحد من أنبل الأعمال الإنسانية: البناء.

(2)

عاد أحمد محرم من إنجلترا في منتصف الأربعينيات يحمل درجة الدكتوراه في الهندسة المدنية من جامعة لندن. كان في استقباله صديق الدراسة ميشيل باخوم، يقول باخوم: «إنها المحبة»، ويقول محرم: «لقد جمع القدر بيننا». اتفقا على تأسيس مكتب استشاري هندسي، بأربعة موظفين (مهندس معماري، مصمم هيكلي، رسام، سكرتير). انطلقت الشراكة في بداية الخمسينيات، وكان أول مشروع كبير هو بناء مصنع للأدوية على أطراف القاهرة، ثم بدأ الاعتماد على «محرم باخوم» في بعض مشروعات الدولة، تحديدًا الطرق والجسور، ثم اعتمدت عليه الحكومة في التفاوض لتسوية ديونها لإحدى الشركات الألمانية التي كانت مسؤولة عن تشييد كوبري الجامعة، حاولت الدولة كثيرًا أن تخفض المديونية أو تؤجلها ولم تحقق نجاحًا، فطلب أحمد محرم الفرصة للتعامل مع الأمر، وسافر إلى ألمانيا، ولم يعد فقط بالنجاح في المهمة لكنه رجع ومعه نافورة المياه الضخمة الشهيرة التي تتوسط النيل أمام مبنى فندق الميريديان،

والتي قدَّمها الألمان هدية لمصر.

كان عبد الناصر قد التقط نبوغ محرم على هامش المشروعات التي شارك في تنفيذها، فأصدر قرارًا في بداية الستينيات بتعيينه نائبًا لوزير الإسكان والمرافق، ويبدو أن القرار كان بمثابة فترة لتدريب محرم ومراقبته من قِبل ناصر شخصيًّا. يروي محرم أن ناصر كان يجلس بالساعات يستمع إلى رأي جميع الحضور من ذوي العلم والخبرة واحدًا واحدًا، قبل أن يبدي رأيه مستنيرًا بما استشفه منهم. وبعد فترة قرر ناصر تعيين أحمد محرم وزيرًا للإسكان عام 1962.

ظل محرم في منصبه لمدة ثلاث سنوات، تولى خلالها مسؤولية بناء القرى التي سيتم تهجير أهالي النوبة إليها قبل افتتاح السد العالي، وأسس لجنة تطوير وإصلاح القرية المصرية، بخلاف مشروعات الجيش والدفاع، والصرف الصحي. كان محرم وزيرًا متقشفًا يحكي أن الوزارة خصصت له سائقًا وسيارة، لكن البنزين على حسابه. عانت شركته ماديًّا في أثناء فترة توليه الوزارة؛ لم ينعكس وجوده في السلطة عليها بأي مزايا، بل تعثرت قليلًا أحوال موظفي الشركة والعاملين فيها. لذلك عندما عُرض عليه تولي الوزارة مرَّة ثانية (كما روت السيدة أرملته) في النصف الثاني من

السبعينيات في عهد الرئيس السادات، كان يدرك بحكم الخبرة التي اكتسبها في فترة الوزارة الأولى ما يمكن أن تتعرض له شركته وأسرته من صعوبات نتيجة حرصه الشديد على ألا يحدث أي تضارب مصالح بين عمل شركته ومنصبه الوزاري. كل من عاصروا هذه الحقبة يدركون مدى صعوبة الاعتذار عن هذا المنصب الرفيع، مما جعل محرم قلقًا، حتى دخل البيت ذات يوم فرحًا قائلًا لأهله إنه قد قام بالاعتذار عن عدم تولي الوزارة.

أغلب الظن أن الفترة التي قضاها محرم وزيرًا للإسكان قد ساعدته كثيرًا في تخطيطه فيما بعد للمشروعات التي امتدت بطول العاصمة وعرضها، بعد أن أصبح على معرفة واسعة بالبنية التحتية للأرض التي استقبلت مشاريعه الناجحة، وعلى رأسها مترو الأنفاق.

(3)

كانت مشاكل النقل في القاهرة قد تفاقمت بشكل استوجب البدء في تنفيذ مشروع قديم بدأ التخطيط له منذ أيام الدكتور «سيد عبد الواحد»؛ آخر وزير مواصلات في العهد الملكي، فتم التعاقد مع إحدى الشركات الفرنسية للإشراف على تصميم وتخطيط الخط الأول من مترو الأنفاق.

فتشت الشركة الأجنبية عن خريطة القاهرة التحتية التي

يمكن اعتمادًا عليها تخطيط مسار المترو، وكان أحمد محرم حاضرًا بمهارته الهندسية أولًا، ثم بخبرته في العاصمة وزيرًا للإسكان، ثم مسؤولًا عن مشروعات الصرف الصحي بها والتي استدعى تنفيذها دراسة كل المرافق وخطوط التلفونات ومواسير المياه وغيرها مما يستقر في بطن العاصمة.

تولى محرم إدارة المشروع والتخطيط له وتصميم مساراته. كان الطموح «خط أول» من جنوب العاصمة إلى شمالها بطول 45 كيلومترًا، يستوعب ما يقرب من 85 ألف مسافر يوميًّا، فبدأ العمل في خط «المرج-حلوان»، بمخطط يستمر العمل فيه بين عامي 1981 و1986. وبنجاح المهمة بدأ العمل في الخطوط التالية. وفي الوقت نفسه أثار النجاح شهية دول عربية أخرى، فتم الاعتماد على الدكتور محرم في تصميم وتخطيط أكثر من خط مترو خارج مصر، أشهرها مترو دبي.

كانت معوقات العمل في هذا المشروع الضخم كثيرة، لكن شكوى محرم وحربه الأساسية كانت ضد الفساد. كان قرار محرم أن يواجه الفساد بالعنصر البشري؛ كان يدقق في اختيار من يستحق الانضمام إلى شركته، ويمنح من يستحق أكثر مما يستحق، ليؤسس مناخًا للعمل بكوادر نزيهة ترى في

الفساد إهانة شخصية قبل أي شيء. كان مشغولًا بكرامة موظفيه، وفي بداية الثمانينيات حدث أن سكرتيره الخاص قام بنهر أحد المهندسين حديثي التخرج، فقام المهندس بإرسال شكوى للدكتور محرم الذي استدعاه وأجلسه على الكرسي المجاور لمكتبه، وطلب سكرتيره الخاص ثم سأله: «ما اسم شركتنا؟». قال السكرتير: «المهندسون الاستشاريون العرب (محرم باخوم)». فرد الدكتور محرم: «المهندسون... يعني الزميل المهندس اللي قاعد قدامك هو اللي بيجيبلنا مرتبي ومرتبك».

(4)

غُرف الدكتور أحمد محرم بحسه الرفيع بالمسؤولية الوطنية، لم تعطله انطباعاته الشخصية عن رؤساء الجمهورية المتعاقبين عن تقديم خبرته ومجهوده، فتسابقوا جميعهم في تكريمه أكثر من مرَّة: حصل على وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام 1964، ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى عام 1980، وجائزة الدولة التقديرية في العلوم الهندسية عام 1983، وظل رئيسًا لجمعية المهندسين المصريين لمدة اثني عشر عامًا بقرارات جمهورية.

وبخلاف التخطيط والبناء، أنقذ محرم بالترميم وإعادة التأهيل الكثير من ممتلكات مصر المعمارية: ترميم الجامع

الأزهر الشريف، قصر عابدين، قصر رأس التين، المباني التي تأثرت بزلزال 1992 ومنها مبنى جمعية المهندسين المصرية، إعادة تأهيل استاد القاهرة الدولي عقب السماح بدخول جماهير تفوق ضعف العدد المسموح به.

كان عمره قد تجاوز المائة عام عندما نزل من بيته للمشاركة في الانتخابات الرئاسية في عام 2014، ثم رحل بعدها بثلاثة أعوام. نعته رسميًّا الدولة المصرية، وجهات كثيرة، في مقدمتها كلية هندسة القاهرة ببيان جاء فيه:

تنعى كلية الهندسة بجامعة القاهرة، وفاة الدكتور أحمد محرم، أستاذ الإنشاءات بكلية الهندسة جامعة عين شمس، الذي تخرج في أول دفعة عام 1935 لكليات الهندسة بعد ضم مدرسة المهندسخانة إلى الجامعة المصرية (جامعة القاهرة حاليًّا). فقدت المهنة عالمًا جليلًا ومهندسًا عظيمًا، خدم الهندسة والتعليم الهندسي في مصر والعالم العربي خدمات جليلة، وله مدرسة علمية ومهنية يشار لها بالبنان.

سيد عبد الواحد
صنايعي مسار مترو الأنفاق

عندما بدأ العمل على مشروع مترو الأنفاق، كانت خريطة مسار الخطوط محل خلاف، حسمه المخطط الذي رسمه الدكتور المهندس سيد عبد الواحد في نهاية الأربعينيات للمشروع نفسه، خلال الفترة التي شغل فيها منصب مدير مصلحة السكك الحديدية قبل أن يشغل منصب وزير المواصلات.

تعريف المهندس سيد عبد الواحد لمهمة وزارة المواصلات وفلسفة العمل في مصلحة السكك الحديدية يكشف لنا الكثير عن طريقة تفكيره التي لم يتم توثيقها كما تستحق:

«وزارة النقل والسكك الحديدية مرفق يؤدي خدمات عامة قبل أن تكون مصدرًا من مصادر الإيراد. تيسير أسباب السفر والراحة، ونقل المواد التموينية والبضائع المختلفة على النحو المُرضي، هما مقياس قوتها، وهذه هي القاعدة المتبعة في سكك حديد العالم. لا يجب أن تقف الضائقة المالية في وجه تحسين الخدمات».

استلم عبد الواحد منصب وزير المواصلات ببرنامج عمل واضح التكلفة والخطة الزمنية. في حوار صحفي عقب

عودته من المؤتمر الدولي للسكك الحديدية في روما في عام 1950 قال إن خطته: تحديث الوسائل التي تكفل راحة الركاب في عربات القطار، ومنع الضوضاء، وتوفير الإنارة والتدفئة، وتكييف الهواء، واستغلال الوحدة من الباب إلى الباب استغلالًا كافيًا. استيراد سبعين ألف طن من القضبان بمبلغ مليوني جنيه، عدا مليون فلنكة بمثل هذا المبلغ، والهدف تجديد جميع أجزاء خط القاهرة-الإسكندرية، بحيث يتسنى للقطارات أن تقطع المسافة بينهما في أقل من ساعتين. تحسين المواصلات التلفونية، وتنفيذ مشروعاتها الهامة، ليكون التلفون جديرًا بالغرض المقصود من تركيبه واستعماله، بحيث يُعفى الجمهور مما يعانيه من مضايقات بسببه، وتتوقف الشكاوى التي تنشأ عن الصعوبات الفنية القائمة في سنترالات القاهرة وخدمة الترنك. البدء في بناء مستشفى المصلحة الذي قدّر له ربع مليون جنيه.

روايات متضادة عن النقطة التي بدأت من عندها مهمة رسم مسار مترو أنفاق في شوارع القاهرة: رواية عن أنها اقتراح من الملك فاروق، وأخرى تقول إن سيد عبد الواحد عاد بها من الخارج (بعثة دراسية لنيل درجة الدكتوراه من سويسرا، حصل عليها بعد ستة أشهر فقط من وصوله) وأقنع بها الملك.

المعلومات التي عثرت عليها في أثناء البحث عن سيرة الدكتور عبد الواحد كانت محدودة ومتكررة بصيغ مختلفة، معظمها نقلًا عن سطور قليلة عن الراحل موجودة على موقع الهيئة العامة للاستعلامات. وبخلاف حوارات صحفية قصيرة معه بوصفه مسؤولًا حكوميًا (آخر وزير مواصلات في العهد الملكي)، لم أعثر على ما يستحق أن يُروى إلا في التقرير الصحفي الذي نشرته جريدة «الأهرام» في أكتوبر عام 1952 عقب وفاة عبد الواحد، وكان واضحًا من النعي أنه ترك الوزارة بعد قيام الثورة وعاد إلى موقعه في رئاسة مصلحة السكك الحديدية:

اختار الله إلى جواره الكريم في الساعة الثامنة والربع من مساء أمس، المغفور له الدكتور سيد عبد الواحد، المدير العام لمصلحة السكك الحديدية، وهو جالس إلى مكتبه يصرِّف شؤون المصلحة.

وكان قد غادر منزله في الساعة السادسة مساءً، قاصدًا مكتبه في سيارته التي يدفع ثمنها أقساطًا شهرية، وبعد حوالي ثلاث ساعات عاد إليه مسجى في عربة الإسعاف.

وقد أمضى الفقيد العزيز طيلة النهار أمس بادي المرح كثير الدعابة، وحينما وصل إلى مكتبه مساءً ناقش مع مهندسي الإدارة مشروعًا كان يوليه اهتمامًا وعناية، وهو مشروع

امتداد شبكة السكك الحديدية المصرية إلى السودان، وعرض عليهم كتابًا تلقاه من إدارة المواصلات في السودان بهذا الشأن، وطلب بحث تفصيلات المشروع، وتحديد موعد لسفر البعثة الهندسية إلى الموقع المعين لمد الخط منه للسودان.

وفيما هو يواصل أعماله شعر بانقباض في صدره وثِقل في رأسه، ومال لون وجهه إلى الزُّرقة، فخلع حذاءه وفتح قميصه، لكن صوته أخذ يخفت، وبدا أنه لا يقوى على الحركة، فسارع مدير مكتبه باستدعاء أطباء الإسعاف، وحضر الدكاترة أحمد سري ومصطفى الشربيني ورياض جرجس، ولكن القضاء قد حمَّ، وانتقل الدكتور عبد الواحد إلى رحمة الله.

وساد جو المصلحة وجوم وكآبة شديدان، وأُبلغ النعي إلى السيد حسين أبو زيد وزير المواصلات، فحضر على الفور، كما حضر العديد من كبار الموظفين الذين علموا بالنبأ الأليم.

وحوالي الساعة التاسعة نُقل جثمان الفقيد إلى منزله في عربة الإسعاف، وكان الوزير وكبار الموظفين في توديعه خاشعين دامعين، وصاحبوه في موكب صامت حزين حتى أُودع منزله بين الحسرات والزفرات والأنَّات.

هكذا طُويت صفحة الدكتور سيد عبد الواحد، وهو لم يتم

الثامنة والأربعين، وكان من النوابغ. تخرج من المهندسخانة 1924، وكان أول فرقته، وأوفد إلى سويسرا في بعثة فنية، والتحق بجامعة زيورخ، فأكبر فيه أساتذته نبوغه وعينوه مساعد أستاذ، وابتكر نظريات هندسية جديدة سُجلت في دائرة المعارف الألمانية وأصبحت معروفة بنظريات البروفيسور عبد الواحد.

لما عاد إلى مصر عُيِّن رئيسًا لقلم الطرق والكباري، ثم وكيلًا لمصلحة المواصلات، إلى أن اختير وزيرًا للمواصلات في وزارة السيد حسين سري، فلما استقالت أعيد مديرًا للمصلحة.

من آثاره الباقية: إنشاؤه نفق شبرا، ونفق الهرم، وإقامة كوبري الفردان الذي كان من أسباب تغير وجه الحرب وانتصار الحلفاء، وكان يُعنى بدراسة كثير من المشروعات الكبرى، على رأسها إنشاء شبكة أنفاق القاهرة.

أوفد الرئيس اللواء محمد نجيب على إثر تلقيه هذا الخبر المؤلم، السيد صلاح الشاهد تشريفاتي رئاسة الوزارة، لإبلاغ تعزيته الخالصة لأسرة الفقيد، وستُشيع الجنازة من ميدان الإسماعيلية الساعة الحادية عشرة صباح اليوم إلى جامع الكخيا، والعزاء مقصور على تشييعها.

معرض صور
الفصل السادس



الدكتور ميشيل باخوم



الدكتور أحمد محرم



محرم طالبًا



باخوم ومحرم في بداية الطريق



باخوم ومحرم في افتتاح أحد مشروعاتهما



احمد محرم
نائبا لوزير الاسكان

اصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارا بتعيين الدكتور احمد محرم استاذ الانشاءات بكلية الهندسة بجامعة عين شمس نائبا لوزير الاسكان والمرافق.

والدكتور احمد محرم في الثامنة والاربعين من عمره، وقد تخرج من كلية الهندسة بجامعة القاهرة عام ١٩٣٦ ثم حصل على الماجستير عام ١٩٤٦ والدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٤٦ في الخرسانة.

وهو يعتبر من اكبر خبراء الانشاءات في الجمهورية العربية وهو يقوم بالاضافة الى عمله في الجامعة بتصميم عدد من المصانع الكبرى في بلادنا.

وهو متزوج وله ولدان وبنت.

خبر اختيار عبد الناصر لمحرم نائبًا لوزير الإسكان



محرم وباخوم وابتسامات النجاح



من موقع العمل في كوبري أكتوبر

وفاة ميشيل باخوم
مصمم مطار القاهرة وكوبرى ٦ اكتوبر

توفى فجر امس الدكتور مهندس ميشيل باخوم – ٦٧ سنة – ، استاذ الهندسة المدنية بجامعة القاهرة ، وصاحب اقدم مكتب استشارى هندسى فى مصر بعد عام كامل من الصراع ضد مرض السرطان .

وقد اشرف على تصميم وتنفيذ عديد من المشروعات الضخمة فى مقدمتها مطار القاهرة الدولى وكوبرى ٦ اكتوبر ■

خبر وفاة باخوم



استاد القاهرة يشهد أولى مبارياته



المهندس سيد عبد الواحد صنايعي مسار مترو الأنفاق



الدكتور سيد عبد الواحد

وفاته فجأة فى مكتبه مساء امس

الاحتفال بجنازته اليوم من ميدان الحرية

تقرير «الأهرام» عن مسيرة الراحل



من موقع العمل في كوبري أكتوبر

الفصل السابع

عبد الحميد عبد الحق

صنايعي مدينة المهندسين

(1)

الابن في منتصف السبعينيات، كانت فرحته بالكلام عن والده تقطع الحكايات، يتأثر كالأطفال في منتصف واحدة فيغير الموضوع. كنت سعيدًا بأن فتح الكلام عن أبيه كل هذه النوافذ المغلقة، قاومت كل رغبة في قطع اندماجه مع ذكريات الأب، ادخرت جفاف الأسئلة، وكنت أتحين أي فرصة لاستكمال الحكايات الناقصة؛ أن يرن هاتفه مثلًا، رن كثيرًا فأغلقه، وصلت القهوة لشخص واحد، لا أحد يقطع جلستنا، ظل يحكي ويسرح بعيدًا، وكلما تعثر في تذكر اسم أو تاريخ أو عنوان كان يعدني بأنه سيخبرني به قبل أن أقوم.

كان الوضع يشعرني بتوتر ما، أجمع معلومات ناقصة، المهنة تؤرقني، أفكر إذا كان ما يقال صالحًا للكتابة، هذا القلق يحوِّل الواحد إلى ضيف ثقيل الدم، اخترت أن أهرب من سخافة المقاطعة وبرودة مهنية لا تشبه حوارًا يضج بالعاطفة، وقررت أن أستمع وأستمتع، وأن أترك للحكايات حرية أن تفرج عما تخبئه، هنا بالضبط ارتاحت الحكايات مثلي في مقعدها ثم قدمت نفسها كاملة.

(2)

حين وصل مندوب الملك فاروق إلى بيت عبد الحميد عبد الحق، ليسلمه دعوة الحضور لتسلم رتبة الباشوية ومقابلة الملك، وجده يجلس مع حارس البيت يتبادلان الحديث والضحك.

وصل عبد الحق إلى قصر الملك متأخرًا نصف ساعة عن ميعاده، عاتبه الملك على التأخير، فقال: «وهو أنا قطر يعني يا مولانا؟»، فضحك الملك وقال: «أصعب».

ابن الباشا نقيب المحامين الذي كان يشارك حارس بيته الجلسة والحوار، الرجل صاحب الدلال النادر على ملك البلاد، هو أصغر نائب في البرلمان، زعيم المعارضة، وتولى مسؤولية ثلاث وزارات: الشؤون الاجتماعية، الأوقاف، التموين. رجل صعيدي، لم يتخلَّ عن لهجته التي صدح بها كثيرًا مستجوبًا الحكومات، حتى أطلقوا عليه لقب «بلبل مجلس النواب»، ولم يضع قدميه في مكان إلا ورحل عنه تاركًا بصمة تحولت إلى جزء من نسيج بلد وشعبه.

قبل أن يتولى وزارة الأوقاف تولى وزارة الشؤون الاجتماعية لمدة عام، تركها بعد أن وضع أساس تفصيلة في حياة المصريين تخدم اليوم، بعد أكثر من سبعين عامًا، ما يقرب من 12 مليون مواطن ممن ليس لديهم معاش ثابت،

تحت بند «معونة الشتاء».

عندما بدأت «معونة الشتاء» في عهد عبد الحق كان الهدف منها إقامة مساكن دافئة للفقراء والمشردين، عن طريق طوابع يتم بيعها على هامش استمارات السكة الحديد أو وزارة التعليم، ومع بداية الستينيات أصبح جمع «معونة الشتاء» يتم على كل الخدمات التي تقدمها الدولة.

عندما شاع خبر ترشيح اسم عبد الحق لوزارة الأوقاف، تحمس كثيرون للفكرة، وكان في مقدمتهم الشاعر الكبير إبراهيم ناجي الذي خاطب عبد الحق قائلًا:

قُم تَقلَّد تَقلَّدِ

يا أميري وسَيدي

وبإيمانِ رُكَّعٍ

وتَسابيحِ سُجَّدِ

بايَعَ الحَق عَبده

والبَرايا بمَشهَدِ

انشغال عبد الحق بالفقراء لم ينقطع بعد انتقاله من وزارة الشؤون الاجتماعية إلى وزارة الأوقاف، بالعكس، كان اهتمامه بهم إحدى الدعائم التي قامت عليها فكرة إنشاء

«مدينة الأوقاف»، «المهندسين» لاحقًا.

(3)

«ثروة وزارة الأوقاف هي رأس مال الفقراء والمساكين، وذخيرة نظام التأمين الاجتماعي المعمول به في أكثر الدول المتمدنة».

كان عبد الحق يستغل أي فرصة لتقديم تعريف للوزارة التي يتولى مسؤوليتها، يعفيه التعريف من شرح قراراته وتفسير خططه، سطران يشرحان كل شيء، ويسهل استخدامهما لمحاكمته إذا حاد عنهما.

تعريف وزارة الأوقاف جعله يبروز دعاية المدينة الجديدة بـ: «إني أدعوكم جميعًا إلى شراء البيوت في هذه المدينة، فإن أموالها ستعود إلى الفقراء والمساكين. فمن اشترى منكم قصرًا فقد حصل على اثنين أحدهما في المدينة والآخر في الجنة».

كان الملك فاروق يناقش مع عبد الحق مشكلة اكتظاظ السكان داخل العاصمة، أثار إزعاجه أن معالجة الأمر كانت محبطة وغير مجدية، لأن نمو العاصمة كان يتم عن طريق ضم مساحات إليها بدون تقسيم أو تخطيط يحميها من أن تتحول إلى مكان طارد.

استقرت المناقشة في عقل عبد الحق بصيغة تكليف ملكي، فبدأ بدراسة جميع القوانين الخاصة بتنظيم المدن في العالم، وانتقى منها ما يراه مناسبًا للحياة في مصر. ثم وقع اختياره على المنطقة التي سينفذ فيها فكرته. أبدى الملك موافقة أولية، وتمنى له التوفيق في معركة يتوقعها.

(4)

اختار عبد الحق لمشروعه قطعة أرض مساحتها 2000 فدان في غرب القاهرة، كانت تلك الفدادين ملك وزارة الأوقاف، وأعلن أنه سيقيم عليها مشروعه الجديد: «مدينة الأوقاف».

بدأ الهجوم سريعًا، كان العنوان الرئيسي: «وزير الأوقاف يدمر سلة الغذاء». قالوا إنه يحرم البلد من فدادين زراعية تمده باحتياجات سكانه. لم يتأثر عبد الحق بالهجوم، تماسك وشرح للجميع وجهة نظره. قال إن هذه المنطقة هي الامتداد الطبيعي للعاصمة، والامتداد يحدث رغمًا عن الجميع بمرور الوقت. قال: «الناس كده كده هيبنوها، وإذا لم نخططها مبكرًا فسيكون البناء عشوائيًّا، فلنسبق الوقت والزمن والزحام بخطوة ونخطط لهذا الامتداد بما يجعله يضاف إلى قائمة الشوارع والأبنية التي يتحدث التاريخ عن نشأتها».

كانت أراضي وزارة الأوقاف تعاني من إهمال «المال السايب»، واستُغلت في مناطق متفرقة أسوأ استغلال، وبحسابات الوقت كان عبد الحق يقول إن ثمن بيع هذه الأرض قد يصل إلى 20 مليون جنيه، هي ثروة فقراء ومحتاجي هذا البلد.

خطَّط عبد الحق للمشروع في صحبة المصري الوحيد الذي درس وتخصَّص في تخطيط المدن. عندما قدَّم المشروع للصحفيين بدأ كلامه بـ: «الفضل يرجع إلى المهندس محمود رياض رئيس قسم التصميمات في الوزارة، المتخصص الوحيد في تخطيط المدن، والحاصل على شهادة فيها من جامعة ليفربول على يد البروفيسور إير كرومبي المعهود إليه إعادة تخطيط لندن».

قبلها بعدة أعوام كانت الصحف المصرية تحتفي بالشاب النابه محمود رياض أفندي، أول دبلوم الامتياز في مدرسة الهندسة في عام 1928، وعضو بعثة وزارة الأوقاف إلى إنجلترا؛ بمناسبة اختياره للتدريس في مدرسة العمارة بجامعة ليفربول. وكانت المرَّة الأولى التي يُنتخب فيها مصري للتدريس هناك. قالت الأخبار إن وزارة الأوقاف قررت أن تصرف له مكافأة مرتب شهر على هذا الإنجاز غير المسبوق، ولحصوله على الشهادة النهائية للجمعية الملكية

للمهندسين المعماريين البريطانيين.

تعامل عبد الحق مع «مدينة الأوقاف» باعتبارها خدمة وطنية وشعبية متبادلة، فرصة لإقامة مساكن نموذجية في بساطتها وجمالها، وجعل أساس المشروع: «الصحة، والسلام، والجمال، والراحة، والنفع العام».

الصحة بتوفير المياه والصرف الصحي وأعمال المجاري، والتوسع في مساحات التقسيم، وتحديد نسبة المباني في الأرض، حتى تتوفر التهوية والضوء في المساكن والمكاتب والمحلات، مع مساحات للتسلية والرياضة والترويح عن النفس.

لم يكن السلام من وجهة نظره مجرد مبانٍ متينة فحسب، بل أن يكون توزيعها والوصول إليها بالطرق والشوارع والممرات المخططة جيدًا، بحيث تمنع كثرة الازدحام، وتقلل من وقوع حوادث الاصطدام وأخطار الحريق. وقدَّم التخطيط شارعين رئيسيين، عرض كلٍّ واحد 100 متر، وينتهي أحدهما إلى نقطة تبعد 12 كيلومترًا وتصل إلى «مينا هاوس»، وسيكون ذلك عبر طريق بعرض 80 مترًا يبدأ من مدخل المدينة الجديدة وينتهي عند أهرام الجيزة، ليكون بمثابة العمود الفقري الذي تنمو القاهرة على جانبيه على مر الأيام (منطقة الهرم فيما بعد).

أما الجمال فهو مساحات الحدائق حول المساكن، والاتفاق مع وزارة الزراعة على زرع غابة مساحتها 200 فدان تمنع الرطوبة وتمتص التراب وتكون مفتوحة للجمهور، وستكون الغابة الأولى في تاريخ مصر.

الراحة ستكون بتوفير سبل المواصلات داخل المدينة ومنها وإليها، وإنه جاري الاتفاق مع شركة الترام في شأن تسيير مركبات كهربائية عجلاتها من الكاوتشوك.

أما النفع العام فهو متبادل بين توفير كل ما سبق للملاك، وثروة الفقراء التي ستجنيها الوزارة عند بيع الأرض.

قسم عبد الحق المدينة إلى خمس مناطق في تكوين قائم الزاوية: منطقة الفيلات، العمارات، الأعمال الخاصة من مكاتب أعمال وعيادات، المحال التجارية والمقاهي والصالات والمحال الصناعية غير المقلقة، منطقة المساجد والكنائس والمستشفيات والمدارس والمصالح الحكومية. ووضع للبيع حدًّا أدنى 200 متر، وحدًّا أقصى 3 آلاف متر، تخضع جميعها لقانون واحد يحدد مساحة المباني. ثم فتش عن اسم للمشروع، وخاف أن يستغل كارهو الفكرة أي تباطؤ، فأسماها مؤقتًا «مدينة الأوقاف». وطارد الملك فاروق حتى استطاع في مايو 1944 أن ينجح في استصدار المرسوم الملكي بتقسيم أراضي الأوقاف، وبدأ العمل في يونيو من

العام نفسه بتقسيم شوارع المدينة ورصفها.

سار العمل منتظمًا، وبدأت الفيلات والعمارات تتراص، واستقر السكان، وكانت «مدينة الأوقاف» وقتها محلًّا للتنزه وتأمل جمال المكان، وأثر إصرار وإخلاص عبد الحق ومساعده تلميذ المهندس الإنجليزي الذي خطط لندن.

مع نهاية الستينيات تحول اسم المنطقة من «مدينة الأوقاف» إلى «مدينة المهندسين»، وكانت هناك تفسيرات عدة.

(5)

«الحكمة في إنشاء وزارة التموين هي معالجة قصور مواد الاستهلاك عن الوفاء بحاجة المستهلكين. لو تُرك الأمر حرًّا لتمكَّن الغني دون الفقير من الحصول على كامل حاجته. وقد أنشئت هذه الوزارة في كل بلاد العالم للإشراف على توزيع مواد الحياة الضرورية توزيعًا عادلًا يستطيع معه الفقير الحصول على نصيبه مما يحتاج إليه».

تعريف عبد الحق لطبيعة عمل وزارة التموين يتنافى بالطبيعة مع مصلحة أصحاب الأعمال والتجارة. كان في مقدمتهم إمبراطور السُّكر أحمد عبود باشا، الذي أفسدت حساباته مجهودات عبد الحق لتخفيض سعر السُّكر، حتى

نجح واحتفلت الصحف بانخفاض سعر الأقة من ثلاثين قرشًا إلى عشرة قروش. زاره عبود باشا في مكتبه، وحاول أن يثنيه عن مجهوداته بأن عرض عليه هدية بسيطة قدرها عشرون ألف جنيه. لم يرد الوزير على العرض، لكن تولى الصعيدي الكامن بداخله إخراج عبود باشا بـ«زفة» من مبنى الوزارة. وتداولت الصحف مشهد عبد الحق وهو يصيح في عبود باشا: «جوم فز من مكانك!». وتقول حكايات غير موثقة إن عرض الهدية انتقل من مكتب وزير التموين إلى القصر الملكي، وهو ما عجّل برحيل عبد الحق عن منصبه بعد ما يقرب من عام، لكنه كان عامًا مليئًا بنشاط يستحق أن يُروى.

على مدى عام كان خبر زيارة عبد الحق لمدينة مصرية لمتابعة أحوال التموين بها خبرًا يوميًا. نشرت «الأهرام» أخبار زيارته لكفر الزيات، وطنطا، ودمنهور، والإسكندرية، والسويس، والمنوفية، والأفران، ومضارب الأرز، ومصانع النحاس، ومستودعات الكيروسين. على هامش هذه الزيارات كان مشغولًا بأمرين: محاربة السوق السوداء، وزيادة وزن رغيف الخبز مع المحافظة على السعر نفسه. نجح في الأول بتكوين فريق من خمسين مراقب تموين ينتشرون في أنحاء البلاد ويقدمون تقارير يومية. ونجح في الثاني بعد تعاقده على استيراد شحنات من القمح من

سوريا.

شغلت فكرة المطاعم الشعبية حيزًا من تفكيره، كان يطمح لتعميمها في عواصم المراكز والأقاليم. تقدم المطاعم الشعبية وجبات للمرضى والفقراء والعاجزين عن الكسب بدون مقابل أو بسعر رمزي يتراوح بين خمسة وعشرة مليمات، في حين أن هذه الوجبة تكلف الحكومة ما يتراوح بين عشرين وأربعين مليمًا، وكان عدد هذه المطاعم 12 في القاهرة تقدم 6000 وجبة، وفي عواصم الوجه البحري 6 مطاعم تقدم 2000 وجبة، وفي عواصم الوجه القبلي 17 مطعمًا تقدم 4750 وجبة، وكانت آخر الأخبار المنشورة عن هذا المشروع في مايو 1949 خبر افتتاح ستة مطاعم جديدة في الزقازيق ودمنهور وأسيوط ومغاغة وأخميم.

(6)

أنا أريد أن أشكر الأستاذ الكبير عبد الحميد عبد الحق على ما أداه في وزارة التموين.

رأيته في بيته يوم الجمعة يتابع شؤون وزارته، ورأيته في اجتماعات ولجان تجلت فيها نزاهته وشجاعته. رأيته في اجتماع لأصحاب مصانع الصابون يفاوضهم على تخفيض سعر بيع منتجاتهم لصالح المستهلك، ورأيته يحارب لمنع تصدير الأسمنت حرصًا على حركة البناء في مصر، ورأيته

في اجتماع لموظفيه يحاسبهم على شكوى أهالي شبرا من نقص في مقطوعية الزيت، ورأيته يتفاوض على رفع نصيب البيوت من الكيروسين، وزيادة مقطوعية البفتة والدمور وبقية أنواع الأقمشة الشعبية وتوفيرها للجمهور قبل الأعياد، ورأيته يتابع وكيل وزارته في سفريته إلى السودان وبرقة لاستيراد اللحوم. وعشنا ورأينا أنه ليس من المستحيل أن يكون في كل بيت زجاجة فائضة من الكيروسين، أو أقة زائدة من السكر، مشتراة من السوق الحرة لا السوق السوداء.

رأيته ورأيته في مئات المسائل التي تمس البلاد في صميم راحتها وغذائها وكسائها، يعمل دائبًا مخلصًا لا يخشى إلا ضميره ولا يقصد إلا مصلحة بلده.

إن الوطن يعرف الجميل للأستاذ عبد الحميد عبد الحق.

مقال الكاتب الكبير أحمد الصاوي محمد، رئيس تحرير «الأهرام»، في افتتاحية الجريدة يوم 30 يوليو 1949.

(7)

تأملت قيادة ثورة يوليو الوجوه التي يمكن الاستعانة بها من رجال الدولة في العهد السابق. كانت لمسة عبد الحميد عبد الحق مشغولة بالناس في تفاصيل لا علاقة لها ببعض،

هو أول المتبرعين لإنشاء أول حمّام سباحة في النادي الأهلي، وظل يدعم الفكرة حتى تم الاحتفال بافتتاحه في حضوره بلوحة أساس تحمل اسمه. وهو أول من قرر أن يكون ملحقًا بكل مسجد مساحة خارجية تقدم خدمات اجتماعية: مستوصف، توزيع أموال زكاة، دار مناسبات. وتابع تنفيذ الفكرة في أكثر من ألف مسجد بنتها وزارة الأوقاف في عهده. وكان اختراعه الأشهر الذي نقلته عنه فيما بعد بنوك كثيرة هو صندوق «القرض الحسن»؛ صندوق للإقراض بدون فوائد أو رسوم في حالات المرض والزواج والميلاد، بقيمة راتب شهرين أو ثلاثة يتم سدادها على فترة طويلة.

في الوقت نفسه، بخلاف شمعته الطيبة خارج مصر، كان عبد الحق من أوائل المسؤولين المصريين الذين استقبلهم بابا الفاتيكان بشكل رسمي، في زيارة تناقلت الصحف أخبارها في أغسطس 1947:

استقبله قداسة البابا في مقابلة خاصة، دار الحديث خلالها حول شتى الموضوعات التي تشغل الرأي العام العربي، ثم تطرق الحديث إلى الموقف الحالي في فلسطين، فبسط الأستاذ عبد الحق لقداسته وجهة النظر العربية، وطلب منه مناصرة العرب في قضيتهم العادلة ضد الصهيونية.

زاره رجال ثورة يوليو في بيته أكثر من مرّة بعروض عمل

مختلفة ومناصب مهمة رفضها جميعًا، قال إنه سيكون في خدمتهم كاستشاري. أُحبط رجال يوليو، بعد أن فرضت الصيغة التي اختارها عبد الحق نفسها على طبيعة علاقته بهم، ظل يقدم لهم خبرته، وقرر في الوقت نفسه أن يعود إلى المحاماة.

يصحو مبكرًا كل يوم، ويصطحب ملفات القضايا ليدرسها في جزيرة الشاي في حديقة الحيوانات، يتنقل بين أوراقه وبين إطعام أسراب البط. وفي نهاية الأسبوع يسافر إلى أبو المطامير ليلقي نظرة على الأرض التي كان يستصلحها هناك مع شقيقه. وظل اسمه يقدّم في الصحافة والحوارات العامة مسبوقًا بلقب «الوزير الشعبي» حتى رحل في منتصف عام 1962.

(8)

لماذا تغيَّر الاسم من «مدينة الأوقاف» إلى «مدينة المهندسين»؟

هناك حكايات كثيرة لا دليل على صحة إحداها، يتبقى قانون قبول أي تفسير منها.. راحة الواحد الشخصية، من بين تفسيرات كثيرة عثرت على واحد ارتحت له.

أحد كبار العائلة، سأل السؤال نفسه صغيرًا، فقيل له إن

اسم «المهندسين» جاء لأن العامة بعد أن بدأوا زيارة المنطقة وجدوا أن كل تفصيلة فيها خضعت لنظام ذكي. تداول الناس الدعوة لزيارة المكان وتأمل هندسته، لم يكن هناك اسم بعينه يعرفونه يقف خلف كل هذا الجمال فيربطون المحبة والإعجاب به، كل ما يعرفونه أن هذا المكان وهو يكبر كان خاضعًا لألمعية بعض «المهندسين».

معرض صور
الفصل السابع



عبد الحميد باشا

عبد الحق صنايعي مدينة الأوقاف (المهندسين لاحقًا)



في بعثة وزارة الاوقاف

الشاب النابه محمود رياض افندي عضو بعثة وزارة الاوقاف في ليفربول ننشر صورته بمناسبة اختياره للتدريس في مدرسة العمارة بجامعة ليفربول وهذه اول مرة ينتخب مصري للتدريس بهذه الجامعة

الصحافة تحتفي بمهندس تخطيط المدن النابغة محمود رياض مخطط مدينة الأوقاف



مَدينة الأوقاف

جلسة البيع غدا الثلاثاء ١٢ ابريل

الإعلان عن أول جلسة بيع لمدينة الأوقاف عام 1944

الاهتمام في بريطانيا

بمدينة الاوقاف الجديدة

لندن ٥ مارس — و.ا.ع — كان مشروع بناء مدينة تتسع لسكنى مائة الف نسمة على الضفة اليمنى لنهر النيل خارج القاهرة ، موضع اهتمام كبير فى لندن خلال الايام الاخيرة . ويتوقع فريق كبير من المهندسين البريطانيين ان يسفر تنفيذ هذا المشروع الجديد عن قيام مدينة من احدث مدن العالم واكثرها استكمالا

وقد قوبل هذا المشروع باهتمام بالغ من جانب السلطات المعنية فى بريطانيا بتخطيط المدن والتصميمات المعمارية. ويترقب معهد تخطيط المدن الذى يضم صفوة مختارة من اكبر المهندسين فى العالم ، كما تترقب وزارة تخطيط المدن والاقاليم — وصول بيانات وتفصيلات من القاهرة عن هذا المشروع

وابدى المستر بيلر احد موظفى وزارة تخطيط المدن والاقاليم اهتماما خاصا به فقد كان فى القاهرة قبل نشوب الحرب عندما نبتت الفكرة وبدىء البحث فى المشروع . وهو يعرف فريقا كبيرا من المصريين وله بهم صلات شخصية ، وقد صرح بقوله اننى على يقين بان هذا المشروع سيلاقى النجاح الجدير به

اهتمام بريطاني بالمشروع الجديد



عبد الحميد باشا عبد الحق يشارك الملك فاروق صدارة أحد الاحتفالات الدينية



«معونة الشتاء» أحد اختراعات عبد الحق



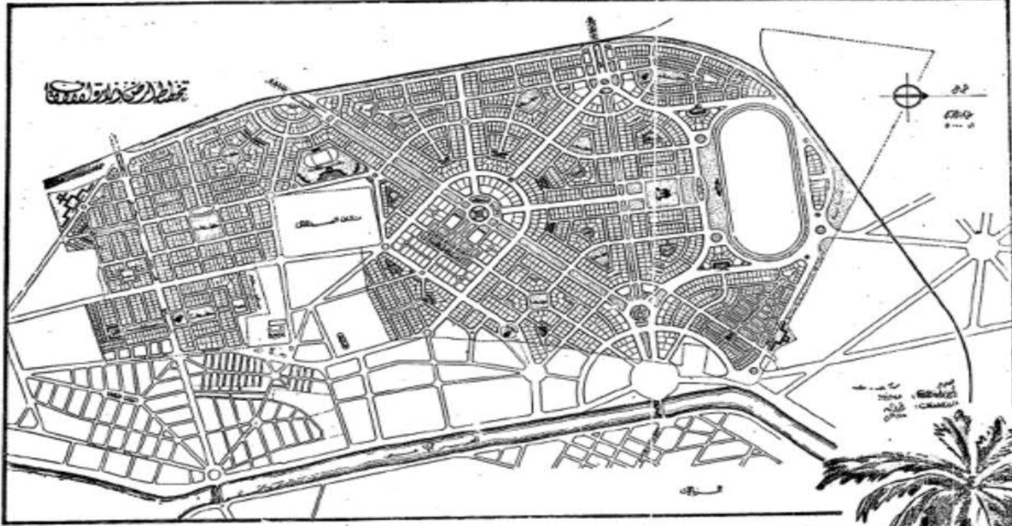
مساكن اقتصادية
فى مدينة الاوقاف

** تقرر اقامة مساكن اقتصادية جديدة فى وسط مدينة الاوقاف وفى الاراضى الفضاء التى لم تتم مبانيها حتى الان .. قررت ذلك بلدية القاهرة، وستنفذ المشروع بالاشتراك مع وزارة الاوقاف .

لمسة ثورة يوليو على مشروع مدينة الأوقاف بإقامة مساكن اقتصادية وسط المدينة

٦ - الاهرام - ١٩٤٤/٦/١٩ ٢٤٧ ·

هذه مدينة المستقبل
التي سيفخر بها وادي النيل



مدينة الزهور والشمس والنور.

ستحيط بها وتنتشر فيها الغابات لتمتص الرطوبة وتمنع الأتربة.

خططت طبقا لأحدث الأساليب والقوانين - شوارعها الرئيسية من أوسع شوارع العالم واتساعها ١٠٠ متر.

هناك مناطق خاصة للڤيلات ومناطق للعمارات ومناطق للأسواق ومناطق لجميع انواع الرياضة

روعيت مصلحة الأطفال بصفة خاصة فى اختيار متنزهاتهم ومدارسهم.

ستجد كل الطبقات مكانها اللائق بها.

سيخطط حي العمال على أحدث الأساليب الصحية ويمنحون شروط خاصة سخية.

ستوضع شروط تمكن طبقات صغار الموظفين من اقتناء منزل بسهولة.

انها المكان الصالح الوحيد الباقى لامتداد القاهرة



طبع بمطابع « الاهرام » ببولاق

إعلان على صفحة كاملة في جريدة «الأهرام» يصف المشروع الجديد ومستقبله

الفصل الثامن

سيد كُريم

صنايعي مدينة نصر وميدان التحرير

(1)

سأله الملك فاروق عن أول مشروع يحلم بتشييده على أرض مصر. قال سيد كُريم بدون تردد: «مبنى لجامعة الدول العربية ينافس مباني هيئة الأمم المتحدة». كان رد الملك سريعًا: «فلتبدأ العمل، واختر قطعة الأرض المناسبة». كان كُريم قد فكر مسبقًا في مكان لحلمه، وهو الأرض التي يستقر عليها حاليًّا مبنى الجامعة، لكن هناك مشكلة!

هذه الأرض مقر لوحدات الجيش الإنجليزي، قال الملك فاروق: «سيكون من الصعب إزاحتهم عن هذه المنطقة». طلب كُريم مهلة من الوقت ستصبح إزاحتهم بعدها سهلة بقوة القانون الدولي.

كان كُريم يعرف جيدًا أن واحدًا من الشروط الأساسية في قانون تخطيط المدن المسجّل بهيئة الأمم المتحدة ألا يكون بالمدينة أي تكنات عسكرية حتى لا تصبح هدفًا يؤذي المدنيين عند وقوع الحرب. خاطب هيئة الأمم المتحدة، وعرض عليها أزمة وجود معسكر للجيش الإنجليزي في قلب العاصمة يعوق تخطيطها ويعطل تنفيذ مشروع مبنى لهيئة

الأمم العربية. بعد فترة قصيرة ردت الأمم المتحدة بدعمها للمشروع وبرسالة إلى إنجلترا التي استجابت للقرار الأممي وسحبت قواتها من المنطقة.

تم هدم المباني التي خلَّفها الجيش الإنجليزي، وأقام كُريم مبنى جامعة الدول العربية، وقال للملك فاروق: «إن خروج الإنجليز من هذه المنطقة خطوة كبيرة، ويمكن اعتبارها تحريرًا جزئيًا لمصر. لذا أقترح أن نطلق على الميدان بعد تخطيطه اسم «ميدان التحرير»». ووافق فاروق.

قبلها بعدة سنوات، ومع نهاية الثلاثينيات، عاد سيد كُريم إلى مصر وهو يحمل من جامعة زيورخ بسويسرا درجتَي دكتوراه: واحدة في العمارة، والثانية في تخطيط المدن. استقر في هندسة جامعة فؤاد الأول أستاذًا مساعدًا ثم بدأت المشاكل!

قرر كُريم أن يحارب المناهج القديمة، قدّم لطلبته العمارة العالمية الحديثة كما تعلّمها، خلخل بمنهجه الأفكار التي تستقر في عقول الأساتذة قبل الطلاب منذ سنوات، استلم بالنقد المباني القديمة والنوافذ الضيقة والممرات التي لا تفضي إلى شيء، واشتغل بالدعوة إلى التفكير في الفراغات الداخلية والخارجية، وإدخال المساحات في التصميمات، وانسجام العمارة مع بيئتها. أثار منهجه ضجة كبيرة، وقوبل

بالرفض، لكنه لم يتراجع، بل وسَّع ميدان المعركة، وأنشأ أول مكتب استشاري هندسي في مصر ليتدرب فيه الخريجون، وأصدر أول مجلة للعمارة والفنون ينشر من خلالها أفكاره التي تلقاها مجتمع العمران باهتمام وجدية.

أخذت أفكار سيد كُريم دورتها حتى استقرت بين يدي الملك فاروق، فأرسل في طلبه.

(2)

كان كُريم يحضِّر أفكارًا لمبانٍ جديدة، أيقونات معمارية يخطط لنثرها في شوارع القاهرة. جهز أوراقه في انتظار أن يرسل فاروق في طلبه مرَّة أخرى بعد إشادة الجميع بمبنى الجامعة العربية والميدان. فعلها فاروق، لكن التكليف هذه المرَّة كان أكبر من مجرد مبانٍ.

جلس الملك إلى المهندس الشاب الذي درس تخطيط المدن، يسأله عن رأيه في شكل العاصمة. قال كُريم: «إن المدينة كائن حي ينمو ويكبر بمرور الوقت، والكلام عن القاهرة يبدأ من محاولة تخيلها بعد خمسين عامًا، كيف ستتلقى زيادات في كل شيء، من عدد السكان إلى عدد السيارات التي تجوب شوارعها؟». سأله الملك إن كان يستطيع أن يخطط القاهرة بناءً على هذا التخيل. قال كُريم: «يلزم بعض الوقت».

العاصمة التي يعيش فيها نهاية الأربعينيات مليون نسمة، وعدد سياراتها أربعة وعشرون ألف سيارة، من المتوقع أن تستوعب بعد خمسين عامًا أكثر من عشرين مليون نسمة ومليون سيارة. وضع كُريم هذه الأرقام في حساباته وهو يضع تخطيطًا يناسب مستقبل القاهرة. ظل لشهور يعمل على النظرية الخمسينية ليرسم عاصمة تستوعب وسائل نقل جديدة، مثل: مترو الأنفاق، والقطار الطائر، وثمانية كبارٍ علوية، وطرق دائرية، وخطة للمدن الجديدة التي سيفرض الوقت ظهورها على أطراف المدينة.

كان مخطط العاصمة الجديد مبهرًا، حتى إن الملك فاروق قرر أن يقدمه في احتفالية أقيمت في الجامعة الأمريكية دعا لحضورها شخصيات مصرية وعالمية. بعد أيام قليلة ظهر الملك فاروق على ظهر يخت «المحروسة» يودِّع مصر إلى الأبد.

(3)

فكر كُريم كثيرًا في إعادة عرض المخطط على القيادة الجديدة، ثم توجَّه بأوراقه لمقابلة اللواء محمد نجيب. أعجب نجيب بما سمعه وشاهده على اللوحات والماكيتات، وكلف إحدى اللجان بدراسة المشروع.

قبل أن تبدأ المناقشات كان نجيب يستقل قطارًا حربيًا بأمر الضباط الأحرار باتجاه عنوان غير معروف، إلى الأبد.

لعنة ما تختبئ بين لوحات مخطط القاهرة الخمسينية، تصيب من يتحمس للمشروع بسوء حظ عجيب ينفيه بعيدًا! قرر كُريم أن يحتفظ بالمخطط لنفسه، وصارح صديقه القديم أنور السادات بما يفكر فيه، لكن السادات كان له رأي آخر.

خرج السادات من مكتب عبد الناصر ليهاتف سيد كُريم طالبًا منه أن يُحضر كل ملفات المخطط لاستلامها منه وعرضها على لجنة شكّلها ناصر للدراسة.

ظل كُريم ينتظر تقرير الدراسة، حتى نقل له السادات ذات صباح ملخصًا لتعليق رئيس اللجنة: «الدكتور سيد كُريم مهندس عظيم، لكن المشروع الذي خططه للقاهرة الكبرى، بكل ما فيه من مطارات وأنفاق وكبارٍ علوية، لا يناسب مدينة سكنية، ولكنه يناسب مدينة ملاهٍ».

كان التقرير صادمًا حتى بالنسبة لناصر نفسه الذي طلب من آخرين دراسة المشروع من جديد. ولم تكن اللجنة الجديدة أفضل حالًا، قالوا لناصر: «الدكتور سيد بيخرَّف! مشروع مترو الأنفاق وحده يتكلف مليار جنيه، وهو مبلغ كفيل ببناء القاهرة كلها!».

طلب ناصر من السادات أن يراجع كُريم في صحة هذه التقارير.

نفى كُريم الأرقام التي ذكرتها اللجنة، وقال للسادات: «هذا المخطط لن يتكلف مليار جنيه، بل مليارات الجنيهات، وقد عثرت على طريقة لتمويل التنفيذ، فقد أجريت اتصالاتي بشركات عالمية عارضًا عليها المشاركة في هذا الاستثمار بأن تدير المشروعات التي سيتم تنفيذها مقابل نسبة من العوائد لصالح الحكومة، على أن تؤول ملكية هذه المنشآت للدولة بعد عشرين عامًا».

قدَّم كُريم للسادات مسودات اتفاقات مبدئية مع هذه الشركات، حملها السادات وطار بها فرحًا إلى مكتب عبد الناصر. قال ناصر: «هذه ليست عقود مشروع استثمار، هذه عقود مشروع استعمار!». صدرت الأوامر بإغلاق صفحة التعاون مع الدكتور سيد كُريم أو مكتبه الاستشاري.

نجحت اللجان المختلفة في إقصاء العبقري المتمرد، واقترحوا الاستعانة بخبير أجنبي «لتخطيط العاصمة». وصل الخبير، وطلب في أول لقاء مجموعة من البيانات والمعلومات والإحصاءات وكل ما له علاقة بوضع العاصمة الحالي على مستوى المرافق والطرق وعدد السكان والمباني، ليبدأ العمل.

انتظر الخبير الأجنبي لفترة طويلة، حتى اعتذر له المسؤولون عن صعوبة توفير البيانات الدقيقة التي طلبها. زاره سرًّا أحد المهندسين الذين شاركوا في هذه المهمة، وكان تلميذًا لسيد كُريم، قال للخبير إن ما يطلبه موجود فقط عند أستاذه، ودبر له مقابلة مع كُريم. في مكتبه أدهشه ما عثر عليه؛ تأمل تخطيط القاهرة كما أعدّه كُريم. في اليوم التالي اجتمع مع المسؤولين واعتذر لهم عن عدم الاستمرار في المهمة التي كُلِّف بها قائلًا: «لن أقدِّم ما هو أفضل من المخطط الموجود لديكم بالفعل».

بعد أسابيع تلقى سيد كُريم دعوة من لجنة المساعدات الفنية بالأمم المتحدة، وجد الخبير الأجنبي في انتظاره بين الحاضرين، طلب الكلمة وهو يشير ناحية كُريم قائلًا: «أقدِّم لكم خبيرًا مصريًّا أعد مشروعًا لو اجتمعنا نحن خبراء الهيئة فلن نستطيع أن نقدِّم أفضل منه!»، ثم نظر إلى سيد كُريم قائلًا: «أهلًا بك خبيرًا دوليًّا زميلًا لنا في هيئة الأمم المتحدة».

خرج سيد كُريم من هذا الاجتماع شخصًا تعتمد عليه الدول العربية في تخطيط مدنها وعواصمها: عمَّان، العقبة، دبي، الكويت، طنجة، دمشق الجديدة، بغداد الجديدة. وتُوِّجت هذه المرحلة بوسام خادم الحرمين الشريفين وهو

الأعلى من نوعه في المملكة العربية السعودية، بعد تخطيطه لمدينة الرياض كعاصمة للمملكة، والمساهمة في تخطيط توسعة الحرمين الشريفين وطريق الحج.

رجع كُريم إلى مصر ليلتقط أنفاسه، زاره السادات في مكتبه، وتأمل ماكيتًا نموذجيًّا ومبهجًا لمخطط مدينة جديدة. عاتبه السادات: «تخدم الدول العربية بمثل هذه النماذج والمخططات الرائعة وتبخل على بلدك الذي صنع منك مهندسًا عالميًّا؟!». قال كُريم: «الماكيت الذي أعجبك ليس لمدينة عربية كما تعتقد، ولكنه جزء من مخطط القاهرة الذي رفضته لجانكم مرَّتين!».

بعد أيام طلب منه السادات أن يستعد لمقابلة ناصر شخصيًّا.

(4)

تعلَّم ناصر من درس الاعتماد على رأي اللجان. المهندس الذي قالت التقارير عنه «بيخرَّف» يعتمد عليه الوطن العربي كما لم يعتمد على عبد الناصر نفسه!

كان حلم ناصر أن يبني مدينة جديدة تكون عاصمة الثورة ودليل تحققها في مجال العمران ومقاومة أزمة الإسكان. طلب السادات من كُريم أن يخطط هذا الحلم. بعد يومين تم

عرض المخطط على لجنة من وزارة الإسكان. قال الوزير: «إن المشروع مرفوض لأن كُريم يقترح له موقعًا عليه منشآت ومعسكرات للجيش»، ثم ألقى الوزير بالخرائط والماكيت على الأرض قائلًا: «إنت عايزني أواجه الجيش؟!».

تدخَّل ناصر وطلب مقابلة كُريم شخصيًّا ليناقشه في الفكرة.

مر السادات على كُريم واصطحبه في سيارته الخاصة مع الرسومات والماكيت إلى بيت عبد الناصر. وهناك فرش كُريم كل ما أحضره فوق مائدة الطعام، وبدأ يشرح تفاصيل مخططه لمدة تجاوزت الساعتين.

كان سؤال ناصر الأول: «لماذا اخترت هذا الموقع؟». قال كُريم: «إقامة المدينة على أرض معسكرات الجيش رسالة تقول للناس إن الجيش يتخلى عن الأرض لصالح الشعب، بخلاف مساحة الأرض الواسعة التي تغطي المشروع وتوسعاته مستقبلًا، كما أن نقل الثكنات العسكرية خارج حدود القاهرة يعني حمايتها من أخطار الحرب».

ارتاح ناصر لوجهة نظر كُريم فأثنى على ما عُرض عليه بشدة، وأصدر أوامره بتجاهل تقارير لجنة وزارة الإسكان، وتكليفها بتنفيذ المشروع مع قرار بنقل الثكنات العسكرية (ثكنات العباسية) إلى خارج القاهرة، ثم وقَّع قرارًا رئاسيًّا

بأن يكون سيد كُريم مسؤولًا عن الإشراف وتنفيذ كل التصميمات الخاصة بمنشآتها الرئيسية.

كانت وزارة الإسكان قد اقترحت للمدينة اسم «جمال عبد الناصر»، فرفض ناصر الاقتراح وأقر الاسم الذي اقترحه كُريم: «مدينة نصر». كان كُريم يرى في المشروع نصرًا لمشروعات الثورة العمرانية، وربما نصرًا لأحلامه في مواجهة اللجان.

(5)

صمَّم كُريم مدينة نصر بمخطط يشغل مساحة سبعة آلاف فدان.

اعتمد في مخططه على ثلاث كتل رئيسية: مدينة رياضية تضم استادًا كبيرًا وملاعب مختلفة بمقاييس أوليمبية. وأرض للمعارض الدولية مكان مستشفى الأمراض العقلية ستكون مبانيها مفتوحة حتى لا تخل بمنظر الاستاد. وغابة دولية ضخمة عبارة عن مجموعة من الحدائق تتولى كل دولة إنشاء واحدة تضع فيها نصبًا تذكاريًّا يشير لها، وسوف يتم إرسال مخطط الغابة إلى مختلف الدول لتختار كل واحدة مكان الحديقة التي ستقيمها.

وخطَّط لمساحة تستوعب أبنية الهيئات الحكومية التي

سيتم نقلها إلى مدينة نصر. أوضح كُريم أن نقل الوزارات والمصالح يوفر للدولة ثلاثة ملايين جنيه سنويًّا، كانت الدولة تدفعها إيجارًا لـ12 ألف حجرة في مباني وسط المدينة.

قسَّم مخطط المدينة إلى 12 حيًّا، كل حي مستقل بمدارسه وأسواقه ومرافقه العامة بمتوسط كثافة ألف نسمة. كان هذا التقسيم يضم: الحي العلاجي (مجموعة مستشفيات ومعهد شلل الأطفال)، ومساحة لبعض كليات جامعة عين شمس، ومساحة لمساكن شعبية للعمال الذين يقدمون الخدمات في المدينة، وحيًّا حكوميًّا يضم مختلف مباني الوزارات، وحي الفنانين بجوار الغابة الدولية (وهو حي ضخم للسينما يضم مجموعة استوديوهات وفيلَّات للعاملين ليكونوا بجوار أعمالهم)، وحي الفيلات التعاونية (مساحة أرض كل فيلّا 250 مترًا يتم البناء على 60 مترًا فقط)، وحي الطوابق الثلاثة (عبارة عن خمسمائة بيت لا يزيد ارتفاع الواحد على ثلاثة طوابق، تعرض للبيع بمقدم عشرين جنيهًا للمتر وتقسيط الباقي على عشرين عامًا، لتوفير عناء البناء وحل أزمة السكن).

في البداية تم إخلاء ثلاثة ملايين متر من المعسكرات ومنشآت الجيش (حوالي سبعمائة فدان)، ثم بدأت أعمال

المرافق التي قُدِّر لها ثمانية أشهر، ليبدأ البيع (أراضٍ وشقق) في عام 1961.

قررت الدولة تمويل المشروع من ثمن الأرض المباعة، ثم بدأت تضع لمستها على مخطط سيد كُريم: أعلنت وزارة الإسكان عن بناء أعلى برج بالقاهرة في وسط مدينة نصر؛ برج يرمز إلى النهضة الصناعية في الجمهورية العربية المتحدة. وإقامة أكبر نافورة في مصر؛ نافورة عرض حوضها مائة متر، سيمر من فوقها شارع عرضه أربعون مترًا. والترويج للمشروع بكل السبل المتاحة، بدايةً من جودة الجو هناك لأن المدينة أعلى من مستوى البحر مائة متر بينما العتبة أعلى بعشرين مترًا فقط، والتأكيد على أنها خالية من حرارة ورطوبة مصر الجديدة، نهايةً بكونها الأرض التي بدأ منها أول تحركات الجيش للثورة ليلة 23 يوليو 1952، مرورًا بالاحتفاء بأول ثمانٍ وعشرين أسرة استقرت هناك. والإشارة إلى الشركات الكبرى التي ساهمت في المشروع، مثل شركة مصاعد «شندلر». وإقامة العرض العسكري السنوي للقوات المسلحة بمناسبة أعياد الثورة لأول مرَّة في مدينة نصر صباح 23 يوليو بخطاب للمشير عبد الحكيم عامر. والإعلان عن تحويل مسار خطوط الأتوبيس من شارع الخليفة المأمون إلى شارع العروبة. وتسيير خط مترو من التحرير إلى نهاية مدينة نصر. ثم وضع حجر الأساس لمبنى

جامعة الأزهر هناك. وأخيرًا الإعلان عن أسعار إيجار الشقق في المدينة الجديدة؛ إيجار الشقة «غرفتين» سبعة جنيهات، «ثلاث غرف» أحد عشر جنيهًا، «أربع غرف» أربعة عشر جنيهًا.

(6)

مع اقتراب العمل في المشروع من نهايته في عام 1964، تم فرض الحراسة على كل ما يمتلكه الدكتور سيد كُريم: الأموال، والمسكن، والمكتب، والشقة، وسيارته الخاصة. وتجريده من كل ما يمتلكه من مستندات وخرائط.

(7)

هل كانت الحراسة عقابًا؟

فتشت كثيرًا، حتى في حوارات سيد كُريم، بحثًا عن سبب لفرض الحراسة عليه في عز النجاح. فكرت أنه ربما جاء عقابًا على نجاح تخطى الحدود، أو رد فعل على ثقة مفرطة من الزعيم مدججة بصلاحيات نافذة. لم أجد سببًا واضحًا. كان الوضوح من نصيب فكرة أن فرض الحراسة كان قرارًا أمنيًا لا مجال حتى لمراجعته أمام القضاء.

ثم عثرت على مقال للدكتور سيد كُريم في صفحة الرأي بجريدة «الأهرام» في بداية الستينيات، بعنوان «أيتها

البلدية، ماذا فعلتِ في كورنيش النيل؟!»:

أيتها البلدية، ماذا فعلتِ في كورنيش النيل؟

بقلم الدكتور مهندس سيد كريم

أحد مفاخر مشروعات الثورة التي وُضعت لتحدِّد معالم قاهرة الغد، عملت ثورة التعمير على تحقيقه، وعملت البلدية على تشويهه.

إن الغرض الأساسي من كورنيش النيل هو فتح شريان محوري يخترق القاهرة من الشمال إلى الجنوب، لحل مشكلة المرور من ناحية، ومن ناحية أخرى تجميل القاهرة ونقل نشاطها العمراني إلى شاطئ النيل بمنشآت سياحية وناطحات سحاب وكبارٍ معلقة وأتوبيسات نهرية وكازينوهات.

وفي سبيل ذلك مُنحت البلدية صلاحيات نزع الملكية من الأهالي.

فهل تحقَّق ما خُطط له؟

لقد عُدنا بحال المرور إلى وضعية القرن الماضي، وأُجريت تعديلات كانت نتيجتها ما يشاهده سكان القاهرة يوميًا من توقف حركة المرور توقفًا تامًّا.

وإذا انتقلنا إلى برامج التجميل لوجدنا أن ما أصابها من النكسة لا يقل عما أصاب المرور. فإذا ألقينا نظرة على أجمل منطقة في الكورنيش، وهي امتداد الكورنيش من مصر القديمة إلى المعادي، لوجدنا أن مشروعات التجميل التي قامت بها البلدية تتمثل فيما يلي:

أولًا: نزع ملكية 45 فدانًا على الكورنيش مباشرة، لإنشاء مستشفى المعادي.

ثانيًا: نزع ملكية 10 أفدنة أخرى بجوار المستشفى، ومطلة على الكورنيش أيضًا، لإنشاء محطة للطلمبات والمضخات.

ثالثًا: ترك الجزء الباقي ليُخطَّط بمعرفة صغار المُلاك والمزارعين، لتنشأ فيه مجموعة من المساكن المبنية بالحجر والطوب النيِّئ، والزرائب، والمخازن، ولا يجد بناء الزرائب على الكورنيش أي اعتراض من البلدية وإدارة الرُّخص أو رجال التنظيم.

في وقتٍ من النادر أن تظهر فيه أصواتٌ صاحبة وجهة نظر مختلفة تشتت تركيز عازفي الزفة، وقتٍ كان توجيه النقد فيه أقرب إلى الخيانة، ظهر صوت سيد كُريم ينتقد فنيات لا أشخاصًا. فهل مر الموضوع بسلام، أم أن هناك مَن توقَّع أن يكون سيد كُريم، بثقافته وتمرده ووجهات نظره وثقة الزعيم التي تمنحه جرأة النقد، صداعًا فتم التخلص منه؟

كان السادات يعرف القصة وما فيها، وعندما تولى مقاليد الحكم بعد سنوات قليلة اتصل بسيد كُريم، وطلب منه أن يتوجه فورًا إلى مكتب المدعي الاشتراكي ليتظلم ويتقدم بطلب لرفع الحراسة والتحقيق في أسباب فرضها.

فُتحت الملفات، كان الاتهام المدوّن في حق الدكتور سيد كُريم أنه استغل نفوذه المالي والإداري لصالحه، وأهدر مقدرات الدولة، وضيّع عليها أموالًا طائلة، وذلك في الفترة التي عمل فيها رئيسًا لمجلس إدارة شركة المعادي للعقارات في بداية الستينيات.

كان دفاع سيد كُريم بسيطًا للغاية: «أنا كنت رئيس مجلس إدارة شركة مصر للسياحة في هذا الوقت، وليست شركة المعادي».

(8)

شخصان أثّرا في مسيرة الدكتور سيد كُريم:

الأول هو جده المناضل محمد كُريم حاكم الإسكندرية وقت الاحتلال الفرنسي لمصر، والذي أصدر نابليون شخصيًا حكمًا بإعدامه رميًا بالرصاص. ورث عنه سيد كُريم جينات مقاتل لا يتقدم خطوة بدون أفكاره التي يؤمن بها؛ بدأ القتال من أرض الجامعة العربية ولم يتوقف وهو يعمّر على

طريقته مناطق شتى في مصر (تخطيط بور سعيد الشامل بعد عدوان 1956، تخطيط منطقة الميريلاند في مصر الجديدة 1965، تخطيط مدينة الغردقة 1981، مبنى دار «أخبار اليوم» 1948، مبنى دار «روز اليوسف»، عمارة الشمس جاردن سيتي، مبنى سينما «ريفولي»، عمارة «أوزونيان» 1949، مركز مصر السياحي في لندن، سلسلة مباني قصور الثقافة في مصر 1964، مستشفى أسيوط الجامعي 1962، مشروع متحف الحضارة).

الثاني هو الدكتور سليم حسن عميد الأثريين المصريين، والذي كانت تربطه صداقة بوالد سيد كُريم، وكان مصدرًا للكتب والمراجع التي تتناول مسيرة الفراعنة، والتي لاحظ أن سيد كُريم الطالب المراهق قد وقع في غرامها، فاختصه بجلسات عن ريادة القدماء ومعجزة «أمنحتب»؛ المهندس الفرعوني الذي طوّع الحجر لبناء عمارة أذهلت العالم. كان الكلام عن «أمنحتب» يقود سيد كُريم دون أن يدري باتجاه دراسة الهندسة، ثم قاده لدراسة التاريخ الفرعوني والكتابة عنه، فأصدر عدة مؤلفات تُرجمت إلى لغات كثيرة، منها: «المرأة المصرية في عهد الفراعنة» (1994)، «موسوعة لغز الحضارة» (1980)، «أخناتون» (1997)، «الكاتب المصري» (1997)، «القاهرة عمرها 50 ألف سنة» (1999)، «لغز الهرم الأكبر» (2000)، «الحِكم والأمثال في الأدب

الفرعوني» (2002)، «السحر والسحرة عند قدماء المصريين» (2006).

(9)

عثرت على حوارات صحفية قليلة مع سيد كُريم، اجتهد الزملاء الصحفيون في سؤاله عن الماضي، لكنني لم أجد سؤالًا واحدًا يحاول أن يعرف رأيه في «مدينة نصر» بعد أربعين عامًا. ما الذي تبقى من المدينة التي خططها بتكليف من عبد الناصر؟ وما الذي نقل المخطط من الفيلّات التعاونية ومدينة الفنون والغابة الدولية والعمارات ذات الطوابق الثلاثة إلى الأبراج والعشوائيات والشوارع الجانبية الضيقة والزحام؟ لم يفتح معه أحد الموضوع، أو ربما تحاشى هو الإجابة عنه. خبرة سابقة في انتقاد لمسة الدولة على التخطيط والعمران طردته من مكتبه الخاص وبيته لست سنوات، فما الداعي لتكرار هذه التجربة المؤلمة أو ما قد يشبهها؟

لم تكن الحراسة هي الغصة الوحيدة التي تمر بسيد كُريم عندما تأتي سيرة الدولة المصرية؛ كان سجل الجوائز التي حصل بها سيد كُريم على تقدير مختلف دول العالم حافلًا: جائزة الدولة بدرجة فارس من بلجيكا، وسام السيف الذهبي من الملك فيصل، وسام ملك العراق، أوسمة من حكومات

المغرب والجزائر. لكنه كان يحلم بأن يتباهى أمام سجل جوائزه العالمية بواحدة من مصر. رحل في عام 2005 عن أربعة وتسعين عامًا قبل أن يتحقق هذا الحلم!

عبد اللطيف البغدادي
صنايعي المُقطم وكورنيش النيل

يقول أرشيف الصحف والمذكرات وشهادات المعاصرين إن عبد الناصر كان يختار بنفسه الشخصيات التي يمكن الاعتماد عليها في شتى أمور إدارة حكم مصر. صادفه في بعض الأحيان سوء الحظ بدرجة عالية الكلفة؛ أسماء نعرفها جميعًا جلب وجودها الخسارة والسخرية والألم، مزيج لا يمكن إغفال نصيب ناصر من مسؤوليته عنه. وفي الوقت نفسه كان ناصر حسن الحظ باختياره لأسماء تركت أثرًا تحوّل إلى جزء من نسيج الوجدان العام وملامح شخصية بلد: الدكتور النبوي المهندس في مجال الصحة، حكمت أبو زيد في الشؤون الاجتماعية، صدقي سليمان في المصانع الحربية والسد العالي، عزيز صدقي «أبو الصناعة المصرية»، أسماء لا يمكن أيضًا إغفال نصيب عبد الناصر من نجاحهم فيما قدموه، يضاف إلى القائمة الأخيرة أقدم عضو في تنظيم الضباط الأحرار: الطيار المقاتل وقائد الجناح عبد اللطيف البغدادي.

لا معلومات واضحة عن سر اعتماد ناصر على البغدادي في ملف تطوير العاصمة، قبلها كان ناصر قد عيَّنه وزيرًا للشؤون البلدية والقروية، ثم سرعان ما أعلن البغدادي في الصحف

مع نهاية عام 1954 اعتماد التقرير النهائي لمشروع التخطيط العام لمدينة القاهرة؛ تقرير أعدته لجنة رئيسية و16 لجنة فنية برئاسة الدكتور شفيق الصدر والمهندس رشدي بطرس والمهندس محمد حافظ، وقد قام بمراجعة هذا التقرير وأقره المستر دينيس ويلسون أستاذ تخطيط المدن بجامعة سيدني بأستراليا.

استمر العمل في هذا المخطط لمدة عامين حتى رحل البغدادي إلى منصب جديد. لكنه كان نجم المرحلة خلال هذه الفترة، يظهر في شوارع القاهرة ليل نهار مع العمال ومعدات الحفر والبناء، وكانت الأفكار تتدفق باستمرار وتحتل مساحة شبه ثابتة في الصحف اليومية.

بدأ بتجديد شبكة الطرق البرية الرئيسية، أنشأ منافذ ومداخل متعددة للمدينة يجمعها طريق دائري يحيط بها، ثم أشرف على نقل وتجميع محطات أتوبيس الأقاليم وسيارات الأجرة إلى أطراف العاصمة في موقفين: واحد في المنيب للوجه القبلي، والآخر في عبود لمحافظات الدلتا.

تنظيم العاصمة وتنقية أجوائها شمل قيامه بإزالة أي تجمعات صناعية موجودة بين المساكن، الترسانة والمطبعة الأميرية في بولاق، ومضارب الطوب الموجودة بطول كورنيش الشمال، تم نقل المصانع والورش إلى تجمعات

صناعية على أطراف المدينة مع توفير مساكن للعمال هناك. أما المساحات التي تم إخلاؤها فكان قراره بخصوصها واضحًا وصارمًا: سيتم استبدالها بحدائق عامة ومساحات خضراء.

أقام في منطقة الدرَّاسة بعد تخطيطها أحياء جديدة على نمط صحي، وبإيجارات معتدلة، وتستقل كل منطقة سكنية جديدة بخدماتها من حيث المدارس والمساجد والأسواق والمستشفيات والحدائق ونقاط الإسعاف والبوليس والمطافئ. ثم بدأ نقل سكان المناطق العشوائية إلى هناك، وبدأ بسكان منطقتي الفوالة ومعروف.

كان مشغولًا بالبيئة والنظافة والتشجير، وربما هو المسؤول الوحيد تقريبًا - بعد جمال عبد الناصر - الذي كان يخاطب الجماهير مباشرة. تحمل الصحف رسائله وتوجيهاته للشعب التي يحاول من خلالها أن يحشد دعمهم لمشروع عاصمة تليق باسم مصر، من بين هذه الرسائل واحدة نشرتها «الأهرام» في يونيو 1954:

بني وطني الأعزاء

عندما أسندت إليَّ أعمال وزارة الشؤون البلدية والقروية، تدبرت الأمر فوجدت أنني لن أستطيع أن أؤدي رسالتي فيها على نحو يرضيكم ويرضيني إلا بصادق معونتكم.

إن القاهرة تلفظ يوميًا ما لا يقل عن ألف طن من الفضلات، تلتزم البلدية بجمعها ونقلها خارج المدينة، وتتطلب هذه الأعمال نفقات طائلة، يمكن توفير الجانب الأكبر منها إذا ما ألزم كلٌّ منا نفسه بأن يراعي النظافة في نطاق الطريق والمنزل والمتجر والمصنع.

وإنني لأتساءل: ما يضيرنا لو امتنعنا عن إلقاء علب السجائر الفارغة وقصاصات الورق وفضلات الطعام في الطريق وأودعناها الأوعية التي خصصتها البلدية لهذا الغرض؟ ماذا لو خصص كل منزل ومتجر ومصنع وعاء أو أوعية لجمع هذه الفضلات، ييسر لعمال البلدية جمعها وتخليصنا منها؟

وجود هذه الفضلات بالطريق العام عنوان سيِّئ لأهل المدينة، يعطي زائريها الأجانب الذين تشغلهم الإساءة إلينا فرصة تصويرها ونشرها بالخارج والتقول علينا بأننا شعب متأخر يعيش بين القمامة والذباب ولم يأخذ بعد بأسباب الحضارة. وأحب أن تعلموا أن الذباب هو ألد أعداء الإنسان، وينقل إليه الكثير من العلل والأمراض، ولا يجد بيئة للتكاثر أفضل من أكوام القمامة.

وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه رفع شأن مصر وإظهارها أمام العالم بالمظهر الكريم اللائق.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ربما كانت ثقة البغدادي في وعي عموم الناس غير كاملة، مما جعله يبحث عن إطار يجعلهم شركاء في المسؤولية بشكل رسمي، فظهرت الفكرة التي تحولت إلى قاعدة في منظومة العمل المحلي في مصر: تكوين مجلس بلدي لكل حي في القاهرة، يتولى سكانه انتخاب أعضائه.

مهمة المجلس في كل حي العناية بأموره، وتنظيم مرافقه المختلفة، كإصلاح الطرق، وإزالة المباني الخربة، وإنشاء الحدائق، وتعميم المجاري، وتوصيل المياه ومراعاة نظافتها، وتوفير الوسائل الصحية للمساكن. مع منح هذه المجالس من السلطات ما يمكنها من النجاح في مهمتها تحت إشراف بلدية القاهرة. وكانت البداية في حلوان ومصر الجديدة وشبرا الخيمة والجيزة والخليفة.

لم ينسَ البغدادي في زخم العمل الجاد مسألة الترفيه. عثر على ضالته في جبل المقطم، درس مع المتخصصين إمكانية الاستفادة منه، حتى خرج بمخطط يهيِّئ لسكان العاصمة هناك منتجعًا قليل الكلفة، بتحويل التلال إلى غابات وحدائق، مع توفير وسائل الترفيه والتسلية، وتجديد الجامع القديم المهجور، وتحويل القلعة المقامة فوق قمة الجبل إلى مسرح تاريخي، وإنشاء دار للسينما، وكازينوهات، وحمَّامات

للسباحة، وملاعب لمختلف أنواع الرياضة، ومحطات توصيل مياه وكهرباء، وتخطيط المنطقة لإقامة مساكن وفيلّات وأسواق تجارية.

ثم جاءت الخطوة التي تم اعتبارها درة التاج. كورنيش النيل الذي يصل بين القناطر الخيرية وحلوان، اقتلعت الأشجار القديمة عند فم الخليج، ورفع شريط الترام من مصر القديمة، وأزيلت شون الغلال التي كانت تقطع الطريق عند أثر النبي، وأزيلت الورش الأميرية في بولاق، بخلاف توطئة النهر في المناطق الضيقة لتوسيع الطريق. وكان حديث الناس وقتها الإنجاز الذي سيجعلهم يقطعون الطريق من القناطر إلى حلوان في أقل من ساعة، ومعجزة مرور الكورنيش من أسفل نفق إمبابة. وتم تنفيذ المشروع وقتها بتكلفة مليوني جنيه.

فكر بعدها البغدادي في كون اللمسات الجديدة التي أعادت إحياء العاصمة بحاجة إلى أن تكون ساطعة ليل نهار، فبدأ مشروع إنارة القاهرة: تم تركيب ألفي مصباح كهربائي بعد قراره باستخدام الكهرباء في الإنارة بدلًا من الغاز، واعتمد في تصنيع الأعمدة الجديدة على ورش البلدية، بعدها جاءت إنارة جوانب الكباري، ثم تركيب ألف كشاف تسلط الضوء على المساجد الأثرية وأبو الهول والقلعة وتماثيل الشوارع.

وكانت اللمسة الأخيرة تنفيذ مشروع إشارات المرور، وكانت البداية من تقاطع شارع 26 يوليو مع شارع عماد الدين.

بعد العدوان الثلاثي تم تعيين البغدادي وزيرًا لإعادة تعمير بور سعيد، وانتخب أول رئيس لأول مجلس نيابي بعد قيام الثورة في عام 1957، ثم تم تعيينه نائبًا لرئيس الجمهورية، واستمر في موقعه حتى تقدم باستقالته في مارس 1964 اعتراضًا على قرارات التأميم، واعتزل بعدها العمل السياسي قائلًا في مذكراته إنه أقدم على عدم قبول الاستمرار في مسؤولية المشاركة في نظام لم يضع مبدأ القيادة الجماعية موضع التنفيذ، وكان الاعتزال رده إزاء ما يجري من تصرفات خاصة، المسؤولية فيها تضامنية. تُوفِّي في يناير 1999، وشُيع جثمانه في جنازة عسكرية تقدَّمها حسني مبارك.

معرض صور
الفصل الثامن



المهندس سيد كُريم صنايعي مدينة نصر

مصر الجديدة

موقع مدينة الثورة
بالنسبة لاحياء
القاهرة وضواحيها

شمال

باب الحديد

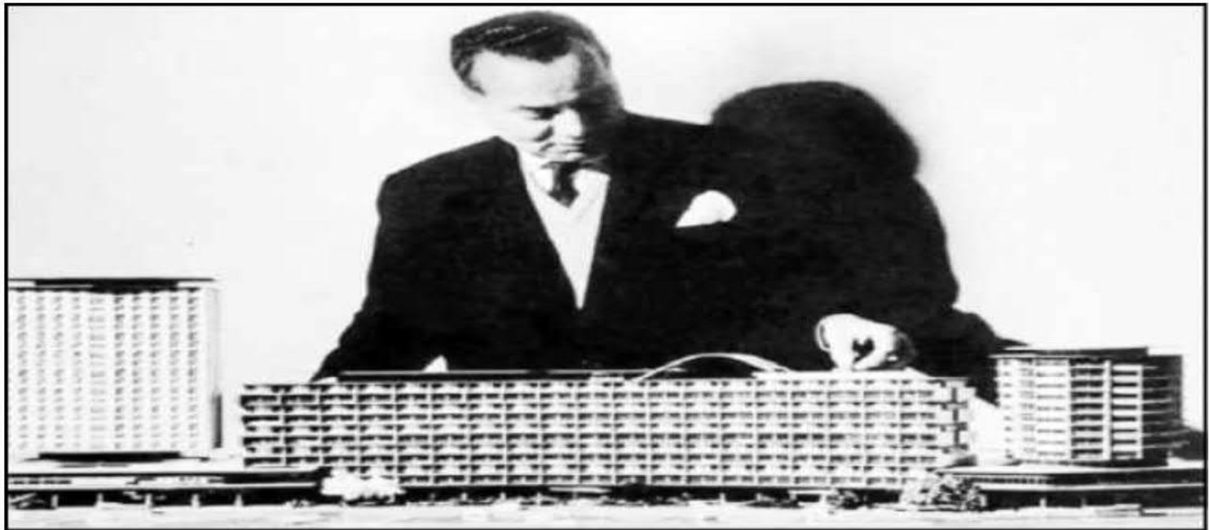
القلعة

من الجيزة

من الفيوم

من حلوان

خريطة توضح مكان مدينة الثورة الجديدة (مدينة نصر) لاحقًا



اقترح سيد كُريم أن يُطلق على الميدان بعد تخطيطه

اسم «ميدان التحرير»، ووافق الملك فاروق



أيتها البلدية.. ماذا فعلت في كورنيش النيل

كلمة صريحة

بقلم دكتور مهندس سيد كريم

نسخة من المقال الذي يعتقد المؤلف أنه كان بداية التخطيط لقرار فرض الحراسة على كُريم



حفيد المناضل محمد كُريم الذي كرَّمته مختلف دول العالم



الأهرام

عبداللطيف البغدادى يعيد تخطيط القاهرة من جديد

مانشيت صحفي يغطي جهود عبد اللطيف البغدادي في تطوير القاهرة



جبـل المقطـم .. يتحول قريبـا إلى مصيف جميـل !

عبد اللطيف البغدادي فوق هضبة المقطم يتابع تنفيذ فكرته بتحويل الموقع إلى منطقة ترفيه لسكان العاصمة



عبد اللطيف البغدادي قبل أن يعتزل العمل السياسي

كورنيش النيل ... من معجزات ثورة التعمير

الصحف تحتفي بكورنيش نيل القاهرة باعتباره أحد منجزات ثورة يوليو



قال البغدادي إنه تقدَّم باستقالته بعد شعوره بأن القيادة أصبحت فردية



البغدادي ومجلس قيادة الثورة

الفصل التاسع

كامل البوهي
صنايعي إذاعة القرآن الكريم

(1)

كان الوصول إلى نجل كامل البوهي سهلًا.

هذه هي المرَّة الأولى والأخيرة التي تظهر فيها مفردة «السهولة» في سيرة مؤسس إذاعة القرآن الكريم.

مشقة تليق بالمهام الكبرى، وحرب خفية بدأت ولم تنتهِ حتى بعد رحيله.

كامل البوهي صنايعي الإذاعة الأكثر استماعًا في بلد تُغلق فيه المحلات والمقاهي والورش ومطابخ المنازل ليلًا على الراديو مضبوطًا على موجاتها حتى صباح اليوم التالي. الإذاعة المصرية الوحيدة النشطة في حضور المستمع وفي غيابه.

(2)

أثناء بناء السد العالي انتشرت بين الناس فكرة اقتربت من اليقين، تقول إن الخبراء الروس المشاركين في المشروع سيزرعون الفكر الشيوعي بين العمال الذين سيعودون به إلى قراهم وبيوتهم، عرف عبد الناصر وقرر أن يرد على المسألة

شخصيًا في أحد خطاباته وقال: «العمال المصريين هم اللي علموا المهندسين الروس مص القصب». أغلق التعليق الساخر الباب بقوة في وجه الفكرة، لكنها سرعان ما عادت إلى الأضواء بعد حكايات عن انتشار الشيوعية داخل البعثات الأفريقية لجامعة الأزهر، وأن بعض الطلاب الأفارقة بدلًا من أن يعودوا إلى بلادهم دعاةً إسلاميين عادوا إليها دعاةً للشيوعية.

ثم كانت القصة التي تجاوزت حيز الكلام المنقول بلا إثبات إلى رؤية العين: نسخة محرفة من القرآن الكريم تغزو الأسواق، طبعة فاخرة مكتوبة بماء الذهب، وذات إخراج أنيق وورق مصقول، ورخيصة الثمن، لكنها تمتلئ بالتحريفات. تداول الناس هذا الخلل وفي مقدمته تحريف: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران: الآية 85)، حيث طُبعت النسخة المحرفة بعد حذف كلمة «غير».

بدأ الاستنفار شعبيًا، ثم انقلب مؤسساتيًا باجتماعات لعلماء الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف. تدارس عبد الناصر الأمر مع وزير الإرشاد القومي، فقال الوزير إن لديه الحل.

في عام 1957 قدّم البوهي إلى وزير الإرشاد القومي عبد القادر حاتم فكرة مدروسة بعناية، لكن يبدو أنه تجاوز

حراس المسافة بينه كموظف وبين الوزير، مما جعل الفكرة تموت في الأدراج، فاختار أن يترك البلد، حتى اليوم الذي خرج فيه عبد القادر حاتم من مكتب عبد الناصر مكلفًا فرق البحث أن تأتي له بالبوهي من «تحت طقاطيق الأرض».

(3)

في إحدى قرى المنوفية كان كامل البوهي واقعًا في غرام مشهد والده؛ أحد كبار شيوخ القرية، وهو يجلس في حوش داره والناس يستأذنون طوال اليوم للدخول عليه طلبًا للفتوى أو العلم أو النصيحة. مراقبة المشهد جعلته ينهي حفظ القرآن الكريم في سن صغيرة أملًا في أن يتخذ مقعدًا إلى جوار الأب. عندما اقترب من الالتحاق بالأزهر ليتخرج داعية، سيطرت عليه فكرة توسيع قاعدة الحلم، فالتحق بكلية الآداب وفي ذهنه أن يكون العمل كإذاعي مفتاحًا للدعوة بين جمهور أكبر.

تخرج في عام 1953 ثم التحق بالإذاعة المصرية في نهاية عام 1954 مذيعًا بإدارة البرامج الدينية.

في عام 1957 نظَّم البوهي أوراقه، وأجاب بينه وبين نفسه عن كل الأسئلة المتوقعة، وطلب مقابلة وزير الإرشاد القومي، وعرض عليه فكرة إنشاء محطة «المصحف المرتل»، لكن الجدية في التعامل مع الفكرة لم تكن حاضرة. ظل

البوهي ينتظر الرد لفترة كانت محملة بضغينة تجاه المذيع الذي تجاوز مديريه بهذه الجرأة، وبعد تيقنه من أن الفكرة دُفنت إلى الأبد، قبِل عرضًا لتدريس اللغة العربية في بلجراد (يوغسلافيا)، وهناك حصل على الدكتوراه، وألَّف أول قاموس عربي يوغسلافي (كان الوحيد من نوعه حتى وقت قريب)، واستثمر ما تعلمه في نشر الدعوة هناك في البوسنة والهرسك، إلى أن انتهت بعثته ورجع مع عام 1964، فوجد عبد القادر حاتم في انتظاره يطلب منه أن يبدأ في تنفيذ الفكرة التي عرضها عليه فورًا.

(4)

كانت فكرة البوهي أن تقدم المحطة تلاوة للقرآن الكريم بدون برامج على مدى الأربع والعشرين ساعة. وافق الوزير على فكرة الاستغناء عن البرامج، لكنه قرر أن تعمل الإذاعة على فترتين لمدة 14 ساعة. ثم استغل الوزير انعقاد مؤتمر المجمع الإسلامي الأول وأعلن عن انطلاق الإذاعة قريبًا، وقال: «سيكون البث من السادسة صباحًا حتى العاشرة، ثم من الواحدة ظهرًا حتى الحادية عشرة مساء، ولن يتخلله مواد أخرى غير القرآن المرتل».

جاء وقت البحث عمن سيسجل القرآن بصوته من كبار المقرئين.

نحن أمام عمل حكومي لا مجال فيه للأذواق الشخصية أو المجاملات أو الشهرة والمكانة، كانت مناقصة، طُلب من المقرئين أن يتقدموا إلى الإذاعة بمظاريف تحتوي على الأجر الذي سيحدده كل مقرئ مقابل المهمة. وصلت المظاريف سريعًا، وكانت الأسعار تنافسية، لكنها سقطت كلها أمام مظروف الشيخ «محمود خليل الحصري»، الذي كتب فيه أنه لن يتقاضى أجرًا ويقدم مجهوده إهداءً للإذاعة.

ظل الحصري نجم الإذاعة الأوحد، حتى انضم بقية كبار المقرئين مع بداية عام 1967 (مصطفى إسماعيل، محمود صديق المنشاوي، عبد الباسط عبد الصمد)، ثم حدث أن صلى عبد الناصر صلاة العيد في مسجد الحسين بإمامة الشيخ محمود علي البنا، أُعجب ناصر بصوته ثم سأله: «ليه مش بنسمعك في الإذاعة يا شيخ محمود؟»، كان عبد القادر حاتم حاضرًا فقال للشيخ البنا: «هذا قرار جمهوري سيتم تنفيذه صباح الغد»، فانضم الشيخ البنا، وتلاه الشيخ الطبلاوي، وتم ترتيب جدول للقرّاء ارتبط به المصريون، وكانت كل مجموعة تنتظر فقرة مقرئها المفضل.

قبل الإعلان عن بدء البث تمت تجربة أذيعت خلالها سورتا البقرة وآل عمران، وفي اليوم التالي أُعلن رسميًا عن افتتاح المحطة يوم 25 مارس 1964. ولتوجيه الناس إلى ترددها

نُشر أنها ستحل محل المحطة التي كانت تذيع أنباء العدوان الثلاثي في 1956 والتي تعرضت للقصف أثناء العدوان لأنها كانت من أقوى المحطات.

وفي الصفحات الأولى كان الخبر موحدًا: «قصد أمس إلى القصر الجمهوري في القبة وفد من علماء ومشايخ وطلبة الأزهر، ووجهوا الشكر إلى الرئيس على إنشاء إذاعة القرآن الكريم».

انطلقت الإذاعة، وكان استقبال المصريين لها استقبالهم لما هو أكبر من مجرد محطة إذاعية، ربما معجزة، واستقر في الوجدان الشعبي وتداول الناس في كل مكان أن القرآن الكريم قد جُمع ثلاث مرات: مرَّة في عهد سيدنا أبو بكر الصديق خوفًا عليه من الضياع بموت حفاظه، ومرَّة في عهد سيدنا عثمان بن عفان لحمايته من الاختلاف في وجوه القراءة، ومرَّة في عهد جمال عبد الناصر صوتيًّا عبر إذاعة القرآن الكريم.

(5)

بعد النجاح فتش البوهي عن سبل لتطوير مشروعه، وقال: «لم ينزل القرآن لنرتله فقط». كان مشغولًا بفكرة الإعلام الإسلامي الذي يتسع لأفكار لا تقف عند بث المصحف المرتل، وضع نصب عينيه المحطة الأكثر نجاحًا وقتها (البرنامج

العام)، واختار أن ينافسها، وهو أمر لو علم البوهي مقدار النار التي أججها في النفوس ربما لتراجع عنه.

كانت الميزانية المخصصة للمحطة تقيد انطلاقها، فكر البوهي في تطعيم البث بعلماء دين يجيبون عن أسئلة المستمعين، لكنه لم يجد من رجال الأزهر من يقوم بهذا العمل بدون مقابل.

خطط لنقل صلاة الفجر على الهواء كل يوم. ثارت الدنيا في وجهه، مرَّة بحجة عدم توفر ميزانية لسيارة إذاعة خارجية كل يوم، وعندما كان الحل تحميل تكلفة السيارة على ميزانية المحطة انتشرت فجأة قصة أخرى عن العار الذي يلاحق صورة مصر بسبب سلوك جمهور المستمعين عند بث قرآن صلاة الجمعة، مقالات وتعليقات عما يجري في أثناء التلاوة من جمهور المصلين الذين يعتقدون أنهم في حفلة غنائية، وتلك التعليقات غير اللائقة التي لا تناسب جلال التلاوة، وأن في الأمر إساءة لبلد الأزهر الشريف.

فكر البوهي في المرأة المصرية كشريحة استماع كبيرة ومهمة، وشغلته فكرة أن تكون هناك برامج تخاطبها فيما يتعلق بكل شؤون حياتها، وأن هذا الأمر لن ينجح إلا بصوت نسائي، فطارده أهل الدين وأهل اللادين باستحالة أن يحدث ذلك لأن صوت المرأة عورة.

فكر في أن تكون هناك لمسة ترويح عن المستمعين، لكن الإجابة كانت قاطعة بفتاوى معتمدة: لا يصح الموسيقى أو الأغنيات الدينية.

كان البوهي مقاتلًا ناعمًا، يعرف أن الحرب ستكون ممتدة، فقرر أن يخوضها معركة معركة.

صبر كثيرًا على تأجيل الموافقة ببث الأذان على أثير محطته، تأجيل لا منطق له، كان لا بد من معركة احتاجت إلى تدخل أحد نواب البرلمان. كان النائب محمد حافظ سليمان عضو مجلس الأمة عن دائرة سوهاج شيخًا ومقربًا من عبد الناصر، وفي إحدى الجلسات عبَّر النائب عن اندهاشه من غياب الأذان عن محطة المصحف المرتل، كان الاندهاش سابق الترتيب لكنه كان خطوة ضرورية حتى ينطلق صوت الأذان عبر الإذاعة في يوليو 1966.

دشن البوهي خط إنتاج البرامج ببرنامج قصير مدته ثلاث دقائق، كان يقدمه هو شخصيًا ويفتتح به الإرسال: «يا أمة القرآن». ارتبط الناس بعد وقت قصير بصوت البوهي وهو يوجه هذا النداء يوميًا. كان من خلال هذه الدقائق يرشد المستمع إلى أفضل طريقة للتعامل مع كل ما في حياته من خلال تعاليم الدين، كان نجاح الدقائق الثلاث مغريًا لأهل العلم المتخصصين الذين أسقطوا حسابات الأجر، ولم

يعترض أحد عندما استطاع البوهي بعد وقت أن يخصص أجرًا بسيطًا قدره خمسة جنيهات عن كل حديث للإذاعة. واعتمد البوهي في قتاله من أجل فتح الباب أمام برامج تناقش كل شؤون الحياة على قرار جمال عبد الناصر بتطوير جامعة الأزهر، قرار أصبح قانونًا ضم إلى الكليات الشرعية كليات الطب والصيدلة والتربية والإدارة واللغات والترجمة.

شوشرة المستمعين على جلال التلاوة تعامل معها بالتوعية، لكنه اعتمد في تطبيقها على توجيه المقرئين أصحاب السطوة العاطفية لجمهورهم، ولفت النظر عبر المقالات أو المحاضرات. كان يعرف أن الموضوع ربما يستغرق بعض الوقت حتى يظهر أثره. ظل يتابع الفكرة بنفسه حتى فجر أحد أيام عام 1974 الذي انطلق فيه صوت البوهي نفسه من مسجد سيدنا الحسين قائلًا: «نقدم لكم لأول مرّة شعائر صلاة الفجر»، وكان قارئ أول بث لصلاة الفجر في مصر الشيخ عبد العزيز علي فرج، وتلا ما تيسر من سورتي الذاريات والطور.

عثر البوهي على ضالته في مسألة الترويح ـ بدون تحفظات أو اعتراضات ـ عند المنشدين. كانت طائفة بعيدة عن الأضواء ومهددة بالانزواء إلى عالم الاحتفالات والمناسبات الدينية والموالد. جاب الأركان يفتش عنهم،

وينتقي من يصلح لخوض الحرب معه، اختار واحدًا تقدَّم لاختبارات الإذاعة ورسب خمس مرات، ونجح في السادسة، ليظهر أول ابتهال عبر أثير المحطة في عام 1973 بصوت الشيخ نصر الدين طوبار. طوبار الذي رفضته لجنة الاستماع خمس مرات، اختير ـ بعد نجاحه عبر محطة القرآن الكريم ـ مشرفًا وقائدًا لفرقة الإنشاد الديني التابعة لأكاديمية الفنون المصرية في عام 1980.

في عام 1963 التحقت فتاة خريجة كلية الألسن بالإذاعة، وتخصصت في البرامج الموجهة باللغة الإسبانية للأمريكتين، تقدمت سريعًا وأصبحت رئيس قسم، لكنها كانت مشغولة بطموح تقديم برامج للأطفال، حاولت أن تجد منفذًا لكن المساحة كانت متخمة في كل الشبكات، وكان هذا من حسن حظ كامل البوهي. دخلت عليه الفتاة تحمل فكرة تقديم برنامج للأطفال على إذاعة القرآن الكريم، تحمس البوهي للفكرة واعتبرها منفذًا يستطيع أن يمرر من خلاله ما هو أكبر وأهم على مستوى حضور الأصوات النسائية عبر أثير إذاعته. «برنامج للأطفال تقدمه مذيعة»، كانت المقاومة أضعف هذه المرَّة، احتاجت فقط إلى نَفَس طويل، حتى استمع الناس إلى صوت فاطمة طاهر. كانت مذيعة ناجحة حتى إن المعارضين لوجودها تحولوا بعد قليل لضيوف في برامجها.

كان البوهي يكسب معاركه بالصبر واليقظة والبحث عن بدائل، السنوات التي قضاها في أوروبا كانت فارقة، لكن الحرب لم تتوقف.

(6)

انتشرت الشكوى من ضعف إرسال المحطة، وضعف القدرة على استقباله في بعض المناطق البعيدة، تأكد البوهي من الشكوى وعرضها على الوزير الذي طلب رأي إدارة الهندسة الإذاعية، وكانت ترد دائمًا بتقرير يقول إن كلام البوهي غير صحيح وإن الإذاعة بوضعها الحالي قوية ويمكن الاستماع إليها بوضوح في كل مكان.

لم ييأس البوهي، كان يعرف أن إدارة الهندسة الإذاعية تخبئ خللًا ما، قرر أن ينقل الشكوى إلى ملعب الصحافة فربما تتغير الأمور.

مع الضغط اضطر الموظفون للاعتراف بعدم وجود ميزانية تسمح بتطوير أو شراء الأجهزة اللازمة لتقوية إرسال المحطة.

كان الاعتراف انتصارًا بالنسبة إلى البوهي، فقد تم حصر المشكلة بين قوسين. وفي مكتب شيخ الأزهر الإمام عبد الحليم محمود كان الحل حاضرًا: حملة تبرعات تحت إشراف

الإمام.

نشرت الصحف أن فضيلة الإمام الأكبر عبد الحليم محمود أعلن من ساحة مسجد سيدنا الحسين عن فتح باب التبرعات من أجل دعم وتطوير إذاعة القرآن الكريم التي يصعب سماعها في مدن القناة وسيناء ومرسى مطروح والوادي الجديد والبحر الأحمر.

ولم يكتفِ الخبر بإعلان فتح باب التبرعات، بل أضاف أن مكتب التبرعات تلقى ألف جنيه من القارئ الشيخ مصطفى إسماعيل، وألف جنيه من الشيخ محمود كامل يس شيخ الطريقة الرفاعية، وأن المبالغ سيتم توجيهها لشراء محطات إرسال قوية ستخصص إحداها لتغطية العالم العربي على الموجة المتوسطة.

انهالت التبرعات، وكان البوهي يرسل أسماء المتبرعين ليتم نشرها في الصحف تشجيعًا لهم ولغيرهم، نشر أسماء حتى من أرسلوا تبرعًا قدره جنيه واحد. كان نجاح الحملة ساحقًا إلى درجة أحرجت الحكومة وقتها، فطلبت وقف جمع التبرعات وأعلنت عن نيتها شراء أجهزة التقوية اللازمة في أسرع وقت.

(7)

كان دعم جمهور المستمعين والهيئات الدينية الكبرى ورجالها يقوي البوهي في الدفاع عن مشروعه، إلى أن جاء اليوم الذي تلقى فيه الدعم كما يحلم به أي إعلامي: الرئيس السادات ضيف على إذاعة القرآن الكريم.

كانت المرَّة الأولى التي يستمع فيها المصريون إلى رئيس الجمهورية عبر هذا المنفذ، لا أحد يعرف من هو صاحب الخطوة الأولى، لكن الصحف صدرت يوم 4 يونيو 1976 بخبر موافقة الرئيس أنور السادات على أن يحل ضيفًا على كامل البوهي، لتوجيه رسالة إلى الشعوب الإسلامية، وأنه سيستهل بنفسه الحلقة الأولى من برنامج تاريخي بعنوان «أولي الأمر».

قال السادات: «هذه المحطة جامعة مجانية على الهواء، بها فصول للتفسير والحديث والفقه والتاريخ والتصوف، وأتصوَّرها بابًا مفتوحًا لكل سائل، وفرصة للمواهب الجديدة في القراءة والتجويد، ومدرسة تقدِّم أحسن الأمثلة للخطباء والوعاظ، أتصوَّرها مركزًا ثقافيًا يلاحق بالتحليل والرد كل ما يجري في عالم الأصدقاء والأعداء، ومركز إشعاع إسلاميًا يذيع على العالم كله بجميع اللغات، وإنا لبالغون بإذن الله هذه المكانة».

أشعلت صورة السادات مع البوهي في جميع الصحف

الصباحية نيرانًا لم يطفئها الوقت، كان نجاحًا لا يُغتفر. وبعد اغتيال السادات بأيام قليلة صدر القرار بإقصاء كامل البوهي عن منصبه رئيسًا لإذاعة القرآن الكريم، ونقله إلى إدارة البرامج الدينية بالإذاعات الموجهة. قرار كان يسحب في ذيله اتهامات للبوهي بأن إذاعته كانت أحد الأسباب التي أدت إلى مقتل الرئيس.

(8)

يعرف البوهي أعداءه، لكنه لم يفصح عن أسمائهم يومًا ولو لأقرب الناس، اكتفى ربما بتفسير «العداوة».

مذيع شاب سافر إلى يوغسلافيا في إعارة، ورجع يحمل درجة الدكتوراه، ليصبح في اليوم التالي رئيس محطة إذاعية، في مقابل كثيرين مرت عليهم سنوات ينتظر أكثرهم طموحًا الفرصة ليصبح مدير إدارة برامج.

محطة منذ انطلاقها وهي الأولى في استفتاءات الإذاعات الأكثر استماعًا، تهرع إليها بقية الشبكات في اللحظات الحرجة التي لا تجد فيها تلك الشبكات ما تقدمه. شهر بالكامل بعد وفاة عبد الناصر كانت الإذاعة المصرية هي محطة القرآن الكريم، أو بعد وقوع النكسة. منصة اعتمدت عليها الدولة لمواجهة أزمة «الفتنة الطائفية» التي كانت أحداث الزاوية الحمراء أصعب محطاتها.

مدير المحطة الشاب ترتفع أسهمه سريعًا على مستوى الإذاعات العربية، يساهم في تأسيس إذاعة القرآن الكريم بمكة، تتخطفه الدول العربية ليدرب ويعلم ويلقي المحاضرات، تحمله الطائرات صباحًا إلى بغداد والكويت والدوحة ليؤدي مهمته ثم تعود به ليلًا لمتابعة عمله.

حقق كإذاعي كل ما يحلم به: البرامج التي تحمل توقيعه مُعدًّا أو مذيعًا هي الأشهر على مستوى الإذاعة (الدين المعاملة، بريد الإسلام، رأي الدين)، أو على مستوى التلفزيون (قرآن ربي، حديث الروح). يدرس في الجامعات اللغة العربية وأصول الدين. تتخطف المطابع ودور النشر مؤلفاته (دعوة إلى السعادة، التربية الإسلامية بين النظرية والتطبيق، نحو إعلام إسلامي).

إداري ناجح، يعرفه الجميع بدماثته وابتسامته الدائمة وتفانيه. أقوى من العراقيل والمطبات. يحقق نجاحًا باهرًا بميزانية ضعيفة وصلت في بداية السبعينيات إلى 1500 جنيه شهريًّا، لكن يوم فتح باب التبرع للمحطة أشرف على الفكرة شيخ الأزهر شخصيًّا وأعلن بنفسه عن تبرعات وصلت إلى خمسة ملايين جنيه.

رئيس اتحاد الجمعيات الإسلامية في الوطن العربي. كان رئيس الجمهورية ضيفًا عليه في أحد البرامج، ثم قلده

بنفسه وسام الاستحقاق.

مقاتل كان يحول السخرية إلى شهادات تقدير. قالوا إن الإذاعة تنجح لأن الناس تعتبرها إذاعة «بركة»، فأكد المعنى بضم قراء ومنشدين جُدد طُبعت أعمالهم على أسطوانات وشرائط كاسيت حققت رواجًا عظيمًا في كل الوطن العربي. قالوا عنها إذاعة «مطبخ»، فمنح كل تركيزه لتحقيق أعظم فائدة ممكنة لسيدات المطابخ وأطفالهن وكل ما يحتجن إلى معرفته أو فهمه حتى اليوم الذي تولت فيه سيدة رئاسة المحطة (الإذاعية هاجر سعد الدين في عام 1998).

كان غريبًا بالنسبة إليّ ما كشفته لي صفحات المجلات والصحف عن كون الحرب ما زالت مستمرة بعد رحيل البوهي بعشرات السنوات وكأنها ميراث، قليلون ذكروا فضله، وكثيرون تحدثوا بإسهاب عن الإذاعة دون الإشارة إليه والاكتفاء بمرور عابر على أسماء مثل وزير الإرشاد القومي، وهناك من كان ينسب الفضل إلى أسماء ليست ذات صلة بالموضوع مثل الشاعر المعروف مدير إدارة البرامج الثقافية التي تتبعها البرامج الدينية التي بدأ البوهي عمله بها كإذاعي، لكن اللافت للنظر أن سيرة البوهي وفضله كانا لا يَرِدان أبدًا إلا على ألسنة أسماء ذات مصداقية عالية.

في مارس 1982 صدر قرار بعودة كامل البوهي لاستئناف

عمله مديرًا لإذاعة القرآن الكريم. رجع وكله همة لتعويض ما ضاع من وقت بعيدًا عن محطته، حتى عندما استقر في فراش المرض كان يتابع العمل ويسجل برامجه وأحاديثه في غرفته بالمستشفى.

(9)

هذا الأسبوع مات الرجل المسؤول عن إذاعة القرآن الكريم.

كان رجلًا كريمًا، ينفق وقته وصحته وعلمه في الدعوة، وكان صوته يتردد في كل مكان.

الرجل الذي أُوقف أكثر من مرَّة عن الإذاعة لمواقف مشرفة وصادقة.

كافح طويلًا من أجل تطوير إذاعة فريدة، وسمح لصوت المرأة أن يخدم قضايا المرأة والطفل، ولقي في سبيل نجاح الإذاعة الكثير من العنت والمتاعب، لكنه كان يتحمل في الله كل شيء ويصبر.

رحل الرجل الذي كان يسعى للأفضل وللكمال من حيث الخدمة والأداء، وحسب الرجل أنه كان أول من أسس الفكرة ودعا إليها وعمل من أجلها حتى أدركه أجله.

رحم الله الدكتور كامل البوهي، وجزاه عنا خير الجزاء، وألهم

قراءه ومستمعيه الصبر.

من مقال الكاتب الكبير أحمد بهجت، جريدة «الأهرام»، مايو 1985.

الشيخ الحصري
صنايعي خِدمة القرآن

أؤمن بقيمة الشيخ الحصري جيدًا، لكنني احترت لفترة طويلة في معرفة أين تكمن قيمته الحقيقية، وما مواطن قوته وجماله. وهي أمور يسهل تمييزها بالنسبة إلى بقية كبار المقرئين: من السهل التوقف عند موسيقى مصطفى إسماعيل، ملكة السلطنة والقدرة العجيبة على التنقل بين المقامات، مهارات شهد بها متخصصون من عينة الموسيقار محمد عبد الوهاب. يسهل تمييز الشجن الراقي في صوت محمود صديق المنشاوي، وقدرته الربانية على المرور بمشاعر كل حرف يقرأه إلى القلب مغلفة بقداسة وخشوع. والأمر نفسه بالنسبة إلى صوت عبد الباسط عبد الصمد وموهبة عجيبة منحت حزنه حسًّا شعبيًّا مصريًّا، جعل المصريين يضعون لمسته على تسجيلاته، وبقدر ما في هذه اللمسة من سذاجة إلا أنها لم تزد صوت الشيخ إلا بريقًا وجاذبية، كانت اللمسة عبارة عن «صدى الصوت + الاهتمام بتهليل جمهور المستمعين وتضخيمه + زيادة حدة صوت الشيخ بحيث يبدو أرفع من حقيقته»، لمسة تكفلت بها آلاف شركات كاسيت بير السلم التي انتشرت في مصر في أوائل الثمانينيات، وعبأت مئات الشرائط التي تناسب ذوق

المستمعين البسطاء في كل ربوع مصر.

لكن من أين تهل جاذبية قراءة الشيخ الحصري؟

عثرت يومًا على إجابة عند أحد المتخصصين، قال ببساطة: «الشيخ الحصري يقرأ القرآن كما أنزله سيدنا جبريل». بقدر ما تحتوي عليه الجملة من بلاغة أسطورية، إلا أن التدقيق فيها جعلها بالنسبة لي أقرب ما يمكن إلى الواقع. قراءة الشيخ الحصري هي قراءة شيخ غير مشغول بالموسيقى والسلطنة والاستعراض، لكنه مشغول بشيء واحد فقط: توصيل الرسالة.

مسيرة حياة الشيخ الحصري تؤكد هذا المعتقد، فهي حياة مهنية تليق بشخص وهب نفسه لخدمة القرآن، ولم يشتغل به.

أدخله والده الكُتَّاب في عُمر أربع سنوات، وأتم الحفظ في الثامنة. وفي الثانية عشرة انضم إلى المعهد الديني في طنطا. ثم تعلَّم القراءات العشر في الأزهر. عُيِّن قارئًا للمسجد الأحمدي بطنطا، ثم قارئًا لمسجد الحسين بالقاهرة، ثم عُيِّن بقرار جمهوري شيخًا لعموم المقارئ المصرية في عام 1961. اختير بعدها نائبًا لرئيس لجنة مراجعة المصاحف وتصحيحها بالأزهر الشريف، ثم رئيسًا لها.

بدأ بعدها رحلة تسجيل المصحف المرتل ببعض الروايات المعروفة: برواية حفص عن عاصم في عام 1962. وبرواية ورش عن نافع في عام 1964، ثم برواية قالون عن نافع. وبرواية الدوري عن أبي عمرو البصري في عام 1968.

بعدها اختاره اتحاد قُرَّاء العالم الإسلامي رئيسًا لقُرَّاء العالم الإسلامي في مؤتمر «اقرأ» بكراتشي بباكستان، ثم اختير رئيسًا لاتحاد قُرَّاء العالم، وحصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في عيد العلم عام 1967. عاد بعدها إلى تسجيل القرآن، فسجَّل المصحف المعلِّم، ثم المصحف المفسِّر (مصحف الوعظ). وفي عام 1977 كان أول من رتل القرآن الكريم في الأمم المتحدة أثناء زيارته لها بناءً على طلب جميع الوفود العربية والإسلامية.

يقول أهل القرآن عنه: «يقرأ القرآن بالحرف، لم يكن مهتمًا في المقام الأول بالتطريب، بل بجودة القراءة، وأحكام التلاوة، والوقوف عند كل حرف وإعطائه حقه في المخارج والأحكام، فكان كما لو أنه يفسِّر القرآن بتلاوته كما يفسره المفسرون في كتبهم».

كان الشيخ الحصري يقول: «الترتيل يجسِّد المفردات تجسيدًا حيًّا، ومن ثم يجسِّد المداليل التي ترمي إليها المفردات. وإذا كنا عند الأداء التطريبي نشعر بنشوة آتية من

الإشباع التطريبي، فإن الترتيل يضعنا في مواجهة النص القرآني مواجهة عقلانية محضة تضع المستمع أمام شعور بالمسؤولية».

نسب العاديون المجد إلى جمال عبد الناصر، لكن الحقيقة أن الشيخ الحصري صاحب مجد الجمع الأحدث للقرآن، فبعد جمعه مكتوبًا في صدر الإسلام كان الشيخ الحصري أول من جمعه صوتيًّا وبدون مقابل لإذاعة القرآن الكريم.

هذا شخص مشغول بالرسالة وفي غير حاجة لإثبات أي شيء آخر.

تروي ابنة الشيخ الحصري عنه أنه كان كلما أتى إلى القرية نزل من سيارته قبل شجرةٍ ثم ترجَّل، حتى إذا ما جاوزها ركب سيارته مرَّة أخرى، فلما سُئل عن ذلك أخبرهم أنه قد أتمَّ حفظ القرآن عند هذه الشجرة، فيستحي أن يمر من أمامها راكبًا.

توفي في 24 نوفمبر 1980.

رسائل الفتنة الطائفية

توتر طائفي مكتوم مع بداية الثمانينيات يشعر به المجتمع وينكره الخطاب الرسمي، حتى وقعت أحداث الزاوية الحمراء في يونيو 1981. قال السادات في مجلس الشعب إن القتلى 17 شخصًا. وقال وزير الداخلية السابق حسن أبو باشا بعد ذلك بفترة إن القتلى كانوا 81 من الأقباط. قال السادات إن الأحداث بدأت بمياه قذرة سقطت من شرفة الجار المسيحي على شرفة الجار المسلم. وقال محمد حسنين هيكل في كتابه «خريف الغضب» إنه كانت هناك محاولة غير قانونية لبناء كنيسة، فتدخل أعضاء الحزب الوطني لإثبات إسلامهم بمقاومة محاولة البناء بكل ما هو قانوني وغير قانوني.

أمام مجلس الشعب تحدث السادات عن التحفز المتبادل، وذكر بالاسم مسجد النور والخطب النارية عن الإسلام الذي انتهى والدعوة إلى الجهاد، وأضاف: «وعلى بُعد نص كيلومتر وفي الشارع نفسه هناك الكاتدرائية والأنبا شنودة والخطب النارية عن المسيحية التي تنتهي في مصر وتربص المسلمين».

ثم أعلنت المخابرات العامة أنها قد توصلت إلى سر هذا الاحتقان.

خرجت جريدة «الأهرام» في صباح 8 سبتمبر 1981 بمانشيت: «كشف مصدر المنشورات التي ساهمت في إشعال الفتنة الطائفية».

بدأت القصة في أواخر عام 1979: خطابات تسيء إلى الإسلام تصل إلى علماء الأزهر والصحفيين وبعض الشخصيات العامة، نشرت «الأهرام» محتوى هذه الخطابات التي تهاجم الإسلام وعلماءه بأسلوب فجٍّ ومستفز. أدهشني أن تعيد «الأهرام» نشرها لتصل إلى من لم تصل إليه، وشعرت أنني أمام خلل مهني غير مفهوم.

كانت هذه الخطابات المسيئة تُرسَل من أماكن متعددة، ما بين بور سعيد وأسوان، وبتوقيعات مختلفة بأسماء مستعارة، اتفقت كلها في شيء واحد؛ أنها كلها أسماء مسيحيين (شوقي فريد، موريس حنا، عبد السيد بنيامين)، وجميعها مكتوبة بخط اليد، وعباراتها متشابهة. وكان الوصول إلى مصدرها صعبًا.

تطور الأمر عندما تلقت الجماعات الدينية بعض هذه الخطابات، فبدأت سريعًا حملة مضادة قامت على تصوير هذه الخطابات، وكتابة تعليق عليها، وطبعها وترويجها بصورة مكثفة بين طلبة الجامعة وفي وسائل النقل العام، والملصقات في الشوارع والميادين، وعلى مكاتب موظفي

الحكومة.

ثم تطور الرد للدعوة إلى عقد مؤتمر مواجهة المد التبشيري وغزو مصر بالفكر الصليبي، وحددوا موعدًا 9 يناير 1980 في ميدان عابدين. وعندما قاومت السلطات إقامة هذا المؤتمر، تم نقله إلى جامعة الأزهر، وتمت إقامته في 18 يناير. وفي هذا المؤتمر أصدروا بعض التوصيات، منها: المطالبة بوقف عرض فيلم «المسيح» الذي تصادف عرضه في إحدى القاعات في هذه الفترة، وتشكيل كتائب الجهاد المقدس، وحرية عمل الجماعات الإسلامية لمواجهة الأمر، وتحذير عموم المسلمين من المشاركة في أعياد المشركين التي تنافي مقاصد الشريعة، مع دعوات مستترة لحمل السيف والجهاد ضد الصليب.

واصلت المخابرات عملها حتى اقتحمت ذات صباح بيت المتهم الأول:

فؤاد فوزي جرجس، مواليد أكتوبر 1935، أستاذ مساعد بكلية الزراعة بجامعة القاهرة، أوفدته الجامعة في بعثة إلى روسيا للحصول على الدكتوراه من جامعة كييف في الفترة من 1968 إلى 1973، يعيش أعزب رغم بلوغه السادسة والأربعين، وظل يرسل هذه الخطابات دون كلل لمدة ثلاث سنوات، ونقلت عنه «الأهرام» تصريحه أنه يستنكف أن

يكون في مثل هذا الوضع الاجتماعي وتصدر عنه هذه البذاءات.

ثم تم القبض على الشخص الذي تولى الردود على هذه الخطابات وطباعتها وتوزيعها على مستوى الجمهورية:

مجدي محسن رجب وردة، مواليد مارس 1959، تزوج مرَّتين، وله طفلة من زوجته الثانية، طالب في السنة الثالثة بكلية الحقوق بجامعة الإسكندرية، لكنه هجر الدراسة ليتفرغ للدعوة، حتى أصبح أمير إحدى الجماعات الدينية في المحافظة، وعند القبض عليه عُثر على أصول هذه المنشورات وشرائط كاسيت مسجل عليها خطبه التي كان يلقيها في المساجد التي يتردد عليها من مرسى مطروح إلى المنيا، وكان التعليق الذي نقلته عنه «الأهرام» عقب القبض عليه: «هذه هي إرادة الله».

ظلت أخبار التحقيق معهما تُنشر حتى اختفت تمامًا عقب اغتيال السادات في أكتوبر 1981!

معرض صور

الفصل التاسع



كامل البوهي صنايعي إذاعة القرآن الكريم

المتبرعون لمحطة
اذاعة القران الكريم

قائمة جديدة باسماء المتبرعين لمشروع الاكتتاب المالى لتقوية محطة اذاعة القران الكريم :

فاعلو خير طلبوا عدم ذكر اسمائهم ٢٥٦ جنيه

فاروق وجب السيد ٥٠ جنيه

حسن فؤاد وجيه ٥٠ جنيه

عصمت عبد المجيد عطيه ٢٧ جنيه و ٥٠٠ مليم

عبد اللطيف محمدعليبه ٢٠ جنيه

لياء فوزى ١٠ جنيه و ٥٠٠ مليم

عبد القادر حمص ٥ جنيه و ٥٠٠ جنيه و ٥٠٠ مليم

ممدوح محمد خلف عبلى ٥ جنيه

سليمان حبش ٥ جنيه

ابراهيم عبد المجيد ٥ جنيه

ابراهيم فهمى ٥ جنيه

مراد ابو يوسف ٤ جنيه و ٥٠٠ مليم

عبد المجيد عبد السلام ٣ جنيه

وجنيه واحد لكل من : امال بمدرسة السلحدار للبنات ـ وحيد عبد الله ومحمد وعزيزة ـ احمد حسن او مدينسه ـ فتحى جلال محمود

* * *

الصحف المصرية تنشر أسماء المتبرعين لشراء أجهزة لتقوية إرسال الإذاعة والمبالغ المتبرع بها

اذاعة وتليفزيون..

محطة اذاعة القرآن الكريم بدات اذاعتها

* تبدأ محطة اذاعة القرآن الكريم عملها اليوم رسميا .. اجريت طوال امس تجربة اذاعة المصحف المرتل من المحطة الجديدة . واذيعت في التجربة سورتا البقرة وآل عمران .

سمعت المحطة الجديدة في جميع الدول العربية من الخليج الى المحيط ، وتبلغ قوتها ٥٠ كيلوات ساعة وسوف تذيع المصحف المرتل من الساعة ٦ صباحا حتى الساعة ١٠ صباحا . ثم تذيع بصفة مستمرة ، من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الساعة الحادية عشرة مساء .

أول خبر صحفي عن بدء إرسال إذاعة القرآن الكريم

مفاجأتان قادمتان للرئيس

- أسرار مسار الايمان فى حياته
- كيف يكون « ولى الأمر » المسلم ؟

وافق الرئيس محمد انور السادات . في حديثه مع الدكتور كامل البوهي مدير اذاعة القرآن الكريم . حينما التقى به . لتوجيه رسالة الى العالم الاسلامي والشعوب الاسلامية يوم الاثنين الماضي . على ان يجيب على ١٧ اسئلة تكشف لاول مرة عن اسرار رحلة الايمان — بلا تعصب — في حياة الرئيس . وحرص الرئيس طوال جهاده على الحفاظ على الوحدة الوطنية .

كما وافق رئيس الجمهورية على ان يستهل بنفسه برنامجا تاريخيا مع « اولى الامر » من رؤساء وملوك الدول الاسلامية .

وكان الرئيس قد ابدى اهتمامه الكبير . بان يصل صوت اذاعة القرآن الكريم الى العالم الاسلامي كله . وان تتوسع برامجها لتقدم نموذجا عصريا للدعوة الاسلامية في اطار الحرص على توحيد جهود مختلف الاديان السماوية ضد قوى الانحلال من اجل اعلاء القيم الروحية . □

د. كامل البوهي — الرئيس السادات

أشعلت صورة السادات مع البوهي في جميع الصحف الصباحية نيرانًا لم يطفئها الوقت، كان نجاحًا لا يُغتفر

عوده البوهى
لاذاعه القران الكريم

يستأنف الدكتور كامل البوهي خلال الايام القادمة عمله كمدير لاذاعة القران الكريم. البوهي يعمل الان مسئولا عن البرامج الدينية بالاذاعات الموجهة.

كان قد صدر قرار باقصاء البوهي عن منصبه كمدير لاذاعة القران الكريم عقب حادث المنصة في ٦ اكتوبر الماضي!

نجح البعض في استغلال اغتيال السادات لإقصاء البوهي عن مقعد القيادة، لكنه كان نجاحًا قصير العمر



كان «حديث الروح» من أشهر البرامج الدينية التيكتبها البوهي للتلفزيون



الشيخ محمود خليل الحصري

جمهورية مصر العربية
وزارة الداخلية
بطاقة عائلية

صادرة طبقاً لأحكام القانون رقم ٢٦٠ لسنة ١٩٦٠ المعدل بالقانون رقم ١١ لسنة ١٩٦٥ في شأن الأحوال المدنية

رقم البطاقة	مكتب سجل مدني	محافظة
١٠٢٤	الدقي	الجيزة

تاريخ صدورها ١٩٧٢/٢/١٢
ينتهي العمل بها اعتباراً من ١٩٦٧/٢/٦ سارية المفعول
توقيع محرر البطاقة حسن
توقيع أمين السجل حسن
بدل فاقد
رقم ٦٢٠٦٦٦ ط

الاسم الكامل محمود خليل الحصري
اسم الوالد السيد خليل — اللقب أو الجد الحصري
اسم الوالدة ولقبها — الغربية
تاريخ ومحل الميلاد سبعه عشر سبتمبر الف تسعمائه سبعه عشر
الديانة مسلم
الوظيفة أو المهنة شيخ عموم المقارئ
محل العمل والمستشار الفني
محل الإقامة ٧ شارع الفالوجا بالعجوزة
محل ورقم القيد ١٠٢١ شياخه العجوزة
فصيلة الدم
توقيع صاحب البطاقة
توقيع آخذ البصمة حسن

بطاقة الحصري الشخصية تقدِّمه «شيخ عموم المقارئ»



مع القرآن الكريم

تاليف خادم القرآن الكريم الشيخ

محمود الحصرى

شيخ عموم المقارئ، راجعه وقدم له واقره الامام الاكبر شيخ الجامع الازهر . الطبعة الثانية ١٠ قروش مع الهدية . ويطلب من المؤلف ص . ب ٩٩ الغورية

الحصري يفضِّل أن يقدِّم نفسه بـ«خادم القرآن الكريم»



يقول الحصري: «إن الترتيل يضع المستمع أمام شعور بالمسؤولية»



الحصري يشارك السادات ومبارك الصلاة في مدينة العريش بعد تحريرها

كشف مصدر المنشورات التى ساهمت فى اشعال الفتنة الطائفية

أستاذ جامعي مسيحى درس بموسكو دأب على ارسال المنشورات بأسماء مستعارة ضد الاسلام والمسلمين

الجماعات الاسلامية تلقت منشوراته وأعدت منشورات مضادة تدعو لمحاربة المسيحية

ضبط أمير جماعة هجر الدراسة ليتفرغ لبث آرائه المنحرفة

كشفت المخابرات العامة اسرار المنشورات والخطابات المجهولة التى ساهمت فى اشعال نار الفتنة الطائفية .. توصلت المخابرات العامة الى مصدر هذه المنشورات والخطابات المثيرة لجماهير المسلمين والمسيحيين على السواء .. امسكت المخابرات العامة بأدلة تبين انها وراء كل الخطابات والمنشورات المجهولة التى انتشرت فى الفترة الاخيرة وكان لها اثر مباشر على تهديد الوحدة الوطنية من خلال خطة مرسومة ..

تغطية جريدة «الأهرام» للتفسير الحكومي لاشتعال نار الفتنة الطائفية

الفصل العاشر

أمينة الصاوي
صنايعية المسلسلات الدينية والتاريخية

(1)

قررت أن أكتب عن أمينة الصاوي.

ابنة دمياط التي يؤرخ الكبار للدراما التلفزيونية الدينية بظهورها، كاتبة الأعمال التي فتحت بابًا لنوع من المسلسلات كانت مطارات الوطن العربي تنتظرها يوميًا في رمضان؛ بعد أن يتم إنهاء مونتاج الحلقة يجري نسخها ثم تحمل كل طائرة نسخة لتهبط بها في بلد يتشوق للجديد في أحداث: «على هامش السيرة»، أو «لا إله إلا الله» (بأجزائه الأربعة)، أو «الأزهر الشريف منارة الإسلام».

حاولت أن أصل لمن يحدثني عنها، أقارب، أصدقاء، زملاء، ولم يحالفني التوفيق، أما الأرشيف الصحفي فكان بخيلًا ولم يقدِّم مادة تليق باسم هذه الكاتبة.

كانت مساحة المقال خمسمائة كلمة، ولتغطية عدد الكلمات المطلوب مني اضطررت لأن أضيف إلى ما كتبته عن أثرها في صناعة الدراما الدينية معلومات من نوعية «كان من طقوسها أن تصطحب معها حفيدها لصلاة الجمعة في مسجد الأسرة بالسيدة زينب».

نُشر المقال، وانتشر في مواقع عديدة، وتبادلته صفحات فيس بوك، وأسعدتني تعليقات الناس التي كانت تعرف أو لا تعرف قيمة أمينة الصاوي، لكنني كنت أشعر دائمًا أن ما كتبته عنها مجرد خطوط عريضة لا تقول الحكاية كما ينبغي.

وصلتني إيميلات تعلق على المقال، من بينها مقال من شخص يقيم في لندن، قال لي بعد التحيات والسلامات: «أنا الدكتور فلان، أنا الحفيد الذي كانت تصطحبه أمينة الصاوي إلى صلاة الجمعة».

انفتحت بعدها أبواب الحكايات.

(2)

بدأت أمينة الصاوي تكتب متأثرة بطاقة شكَّلها الاندماج في مكتبة والدها العالم الأزهري، والجلسات التي يحفِّظها فيها القصائد ويفسِّرها لها، والدروس التي كان يُفتن بها وبأسلوبه الساحر رواد منزله من العلماء والتلاميذ. كتبت لكنها كانت تواجَه كل مرَّة باتهام أنها تقلد والدها. إحباط ما جعلها تهجر الكتابة في أي منطقة تتماس مع علم ودروس وثقافة الوالد. جربت الكتابة للأطفال وارتاحت لها، ثم جربت أن تكتب قصصًا عصرية. اختلط إعجاب المحيطين بها بما

تكتبه بالتشجيع على الاستمرار، لكنها كانت في حاجة إلى شهادة يمكن الاعتماد عليها لمواصلة الطريق، شهادة تقوم على ما هو أهم من محبة الأقارب. اختارت قصة، وفكرت في قامة أدبية يمكن الاسترشاد بشهادتها فيما هو قادم، أرسلت قصتها إلى الدكتور طه حسين، وظلت تنتظر الرد أسابيع طويلة، حتى استلمت رد العميد الذي لم يخلُ من إعجاب. أسعدها التقدير، لكن كان الأهم بالنسبة لها أنها وجدت ما يشبه علامات الطريق في نهاية الرسالة، قال لها: «لكِ أسلوب متميز يذكرني بأسلوب توفيق الحكيم».

على الرغم من نجاح رواياته، فإن اسم الحكيم كان قد ارتبط وقتها في ذهن الأغلبية بالمسرح، خاصة بعد النجاح المذهل الذي حققه نص «أهل الكهف». أمسكت أمينة الصاوي بطرف الخيط من رسالة عميد الأدب العربي، وجدت أنه يقود إلى معهد الفنون المسرحية. لم يكن البيت الأزهري ليوافق بسهولة على الفكرة، ربما تحايلت أمينة الصاوي على الأمر بالتأكيد على أنها ستلتحق بقسم النقد. كانت أول فتاة تتخرج من هذا القسم، لتبدأ بعدها في ممارسة كل ما له علاقة بالفن ما عدا النقد.

في الإذاعة المصرية برز اسمها كواحدة من أفضل الذين يمكن الاعتماد عليهم في كتابة مسلسلات وبرامج للأطفال.

نجاح تحقق سريعًا، مدعومًا بموهبة صقلتها مكتبة الأب وقصصه، لكن أمينة الصاوي كانت تفتش عن مساحة أوسع تقول من خلالها أفكارًا أكثر عمقًا وتأثيرًا. إلى أن تم الإعلان عن مشروع «مسرح التلفزيون». بعد انطلاق التلفزيون جرت الاستعانة بفكرة تقديم عروض مسرحية لتغطية ساعات الإرسال. ولأن الفكرة كانت تدور في حيز ملء الهواء وتسلية الجمهور، فقد اعتمدت بشكل أساسي على الاسكتشات والمواقف الضاحكة ونجوم البرنامج الإذاعي الشهير «ساعة لقلبك»، لكن نظرة أمينة الصاوي لهذا المنفذ الجديد كانت مختلفة، رأت في التلفزيون فرصة لتقديم ما هو أهم من التسلية، وشاركها «قليلون» النظرة نفسها.

أعدت ما يلزم لشرح فكرتها للمسؤولين، وفي جلسة استماع عرضت أن يتم استغلال مسرح التلفزيون في عرض روايات كبار الكُتَّاب على الناس العادية، بتحويل الأعمال المهمة إلى مسرحيات تصل بالمحتوى لغير المهتمين بالقراءة، ثم عرضت على أصحاب القرار نموذجًا للفكرة. كانت قد حولت بعض أعمال نجيب محفوظ: «زقاق المدق»، و«قصر الشوق»، و«بين القصرين»، إلى ثلاثة عروض مسرحية. رأى أصحاب القرار أن النصوص مذهلة، والفكرة جذابة، فتمت الموافقة عليها.

تعلقت أمينة الصاوي منذ صباها بأعمال نجيب محفوظ، كاتبها المفضَّل، تتتبع ما يكتبه في كل مكان. وعندما عُرضت المسرحيات حصلت أمينة الصاوي على جائزتين: الأولى جائزة رسمية من مهرجان المسرح الحر عن «زقاق المدق» التي تقاضت عن تحويلها إلى مسرحية ستين جنيهًا، وكانت الثانية من نجيب محفوظ نفسه الذي قال لها بعد مشاهدة العروض: «أنتِ أفهم من فهمني».

مسرحت أمينة الصاوي رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي، و«أرض النفاق» ليوسف السباعي، ثم تجدد ضجيج النجاح مع «اللص والكلاب» لمحفوظ. عثرت الموهبة على طريق، وبدأت الأحلام الصغيرة تتحول إلى واقع، ربما لم يرضَ عنه البعض.

كان هناك من ينتظر الفرصة المناسبة لإيقاف هذه الطاقة المنطلقة بنجاح ساحر، حتى اليوم الذي قدَّمت فيه أمينة الصاوي معالجة مسرحية لإحدى روايات الكاتب المصري ذي الأصول اليمنية علي أحمد باكثير، كانت رواية «الثائر الأحمر» التي تحكي قصة ثورة القرامطة على الدولة العباسية، رواية قال عنها أحد كبار المستشرقين إنها واحدة من أخطر الروايات التاريخية في القرن العشرين، وذلك لاستشرافها نهاية الشيوعية وفشل نظريتها في إسعاد

الفقراء. عثر أحدهم في معالجة أمينة الصاوي المسرحية لهذه الفكرة على ما يمكن اعتباره عداءً للدولة؛ مسرحية تهاجم الفكر اليساري الذي ينحاز إليه النظام الحاكم. واجهها أحد المسؤولين بخطورة الأمر، لكن الخبر كان قد ذاع.

كان طبيعيًّا أن يتهرب الجميع من التعاون مع كاتبة تنطوي أعمالها على حس معارض. كان الخوف من ذكر اسمها يكبر يومًا بعد يوم. وصلها قرار فصلها من التلفزيون، وأيقنت أمينة الصاوي بعد أبواب كثيرة أُغلقت في وجهها أن أحلامها الفنية قد انتهت عند هذه النقطة. كانت أمينة الصاوي قد انفصلت عن زوجها الأول، وفكرت كثيرًا في الخطوة القادمة، ولم تكن وحيدة، كانت أمًّا لطفلتين.

رجعت أمينة الصاوي خطوة إلى الخلف ربما ترى الطريق بشكل أفضل، استرجعت الأب وقصصه، وبينما تتنقل بينها عثرت على الحل في القصة الأقرب إلى قلبها منذ طفولتها: «هجرة الرسول».

(3)

كان زوج شقيقة أمينة الصاوي يعمل دبلوماسيًّا في السودان.

ما بين أن تغيِّر أمينة الصاوي مسار أحلامها وبين ترك بلد

غير قادرة على أن تحقق فيه أي شيء، اختارت الحل الثاني، سافرت إلى شقيقتها، وبدأت هناك تقدِّم ما عندها من خلال الإذاعة والتلفزيون، برامج ومسلسلات للأطفال، لكنها لم ترتح لطريقة العمل هناك، أجور قليلة، وفترات متباعدة بين كل عمل وآخر. ولم يكن أمامها سوى التكيف مع الوضع الجديد والتزام الصمت. حتى جمعتها مائدة العشاء يومًا مع السفير الكويتي الذي أبدى إعجابه بما تقدمه، وسألها لماذا هي مُقلة، فحكت هذه المرَّة دون أن تقاوم الشكوى. قال لها السفير: «إنتِ مكانك مش هنا».

بعد أسابيع قليلة كانت أمينة الصاوي تستلم مسؤوليتها في إذاعة الكويت. سافرت فرحة بابتسامة ما خبأتها الحوادث لوقت مناسب. استعادت نجاحها وتدفق إنتاجها سريعًا. تركت أثرًا في وقت أقل من المتوقع، دفع إذاعات أخرى للاستعانة بها، إذاعات دول عربية لم تكن مصر من بينها.

خلال أربع سنوات لم تتوقف جولات أمينة الصاوي في كل العالم العربي تقريبًا: كتبت أعمالًا لإذاعات الأردن والمغرب وليبيا ومعظم دول الخليج، حولت قصص الأنبياء إلى مسلسلات تنافست الإذاعات على الصدارة في سباق الحصول على ما تنتهي أمينة الصاوي من كتابته أولًا بأول.

بعد سنوات نجاح خشيت من أثر الغربة والترحال على طفلتيها، فقررت أن تعود إلى مصر، وكان العام 1968.

(4)

تسلمت أمينة الصاوي عملها في معهد «علوم الصحراء». أرسلوها في بعثة لاستكشاف الوادي الجديد. تجاهلت أمينة الصاوي هذا التوظيف المشمول بالنفي، وأخلصت للمهمة التي كُلِّفت بها، وألَّفت عن الوادي الجديد كتابًا حصلت به على جائزة وزارة المعارف.

بمرور الوقت تغيرت ملامح الصورة العامة والوجوه صاحبة القرار، فعادت أمينة الصاوي إلى التلفزيون، محملة بالغرام القديم: الكتابة للأطفال. قدمت لهم برامج تلفزيونية دينية، تحكي من خلالها القصص على طريقة والدها. اكتفت بهذه المساحة مع العمل في الكتابة والتدريس وتأليف المسلسلات الاجتماعية للإذاعة.

ظهر طه حسين في حياة أمينة الصاوي للمرَّة الأولى في الخمسينيات كأستاذ ألهم تلميذته طريق دراسة المسرح، وفي منتصف السبعينيات ظهر مرَّة أخرى ولكن كشريك عمل.

عرض التلفزيون الأردني على أمينة الصاوي فكرة إنتاج

مسلسل ديني، استلمت أمينة الصاوي الفكرة وانطلقت بعدها تخطط للمشروع منفردة، بدأت باختيار كتاب «على هامش السيرة» لطه حسين الذي يحكي فيه السيرة النبوية بطريقته، وأسست على محتواه قصة وسيناريو العمل.

كانت أمينة الصاوي تحوم حول الأفكار للعثور على مدخل للفن فيها، وضعت خطوطًا عامة ومعالجة للأحداث وطريقة للحوار ومخرجًا للتحايل على الممنوعات، وجمعت أوراقها وانعزلت في فندق فلسطين بالإسكندرية، ثم عادت من هناك لتنعزل من جديد في شقتها القديمة في وسط البلد التي حولتها إلى مكتبة للمراجع. وعندما رجعت إلى بيتها، تحكي ابنتها أنها كانت تراقب شخصًا مندمجًا مع عوالم لا يراها أحد، شخصًا لا نعرف متى ينام ومتى يصحو، ولا يغادر غرفة مكتبه إلا للحاجات الضرورية، تقول إنها لمحت في مرَّة خريطة كبيرة معلَّقة أشبه بخرائط الكنوز تحكي المسلسل بالطريقة التي ستنفذه بها.

كانت الخطوة الثانية مرتبطة بإيمان أمينة الصاوي بأن هذا العمل الفني الفريد من نوعه لا يصح أن يتم بمعزل عن بلدها، شعرت بالغيرة من أن يغيب اسم مصر عن ريادة نوع جديد من الأعمال التلفزيونية، فسعت حتى تمت الشراكة بين التلفزيون الأردني وشركة صوت القاهرة، ثم عرضت قصتها

وقدّمت ما أنجزته، فطُلب منها أن تنتظر موافقة الأزهر، قالوا إنهم سيرسلون إليهم السيناريو، لكن أمينة الصاوي طلبت أن تفعل ذلك بنفسها.

تعلمت ابنة الشيخ الأزهري من أبيها الطريقة التي يمكن أن تقيم بها حوارًا مع شيوخ وعلماء دين، كانت تحضر المناقشات حلقة بحلقة، تفسر ما هو غامض، وتدافع عما يثير القلق بمنطق أعجز المعترضين، استحضرت روح الأب وخاضت بها التجربة، حتى خرجت يومًا من مبنى الأزهر الشريف تحمل موافقة صافية بدون ذيول أو تحفظات.

بعد اختيار المخرج أحمد طنطاوي وفريق الممثلين، قررت أمينة الصاوي أن تكون حاضرة في بروفات الترابيزة التي يقرأ فيها فريق العمل النص، كانت تعرف أن وجودها سيكون ضروريًا. تفهم أن التمثيل في هذا الملعب لا يتحمل وجهات نظر شخصية للممثل أو اجتهادات في تطوير أو تغيير المكتوب. كانت تشرح كل سطر، وتاريخ كل شخصية، ودوافعها، وما سجّلته الكتب عنها بدقة. تقود كل ممثل ليفهم ما الدافع وراء هذا التصرف، وما مبررات ردود الأفعال، ولماذا تتحدث الشخصية بهذه الطريقة. تدقق في اللغة، ومخارج الحروف، وتفاصيل الملابس والإكسسوارات. مجهود تُرجم في عام 1978 إلى نجاح بشهادات الجمهور

والنقاد وجائزة الدولة للإبداع الفني التي سلمها السادات بنفسه لأمينة الصاوي.

(5)

لم يقدّم طه حسين جديدًا في كتاب «على هامش السيرة»، وهذا بشهادته، قال في مقدمة الكتاب:

هذه صحف لم تُكتب للعلماء ولا للمؤرخين، لأني لم أرد بها إلى العلم، ولم أقصد بها إلى التاريخ، وإنما هي صورة عرضت لي في أثناء قراءاتي للسيرة، فأثبتها مسرعًا ثم لم أرَ بنشرها بأسًا.

ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا في أصول هذا الكتاب القديم في جوهره وأصله، الجديد في صورته وشكله، إلى مصادره القديمة التي أخذ منها. فهذه المصادر قليلة جدًّا، لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري، وليس في هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد في كتاب من هذه الكتب.

جابت أمينة الصاوي الوطن العربي كله تكتب لإذاعاته القصص الدينية بنجاح على مدار سنوات طويلة. هل كانت بحاجة فعلًا إلى كتاب في السيرة لم يقدّم جديدًا بشهادة صاحبه؟ كتاب أرجع صاحبه ما فيه إلى مصادر كبرت أمينة

الصاوي وهي تعيش إلى جوارها في مكتبة والدها؟ أعتقد أن أمينة الصاوي قررت أن يكون اسم طه حسين على العمل الأول من نوعه كشهادة تقدير، أرادت أن تقدم هديتها للأستاذ الذي أرشدها إلى الطريق. يؤكد اعتقادي هذا أن طه حسين كان كريمًا، ورد لأمينة الصاوي الهدية. بعد عرض «على هامش السيرة» قرر التلفزيون المصري إنتاج مسلسل عن قصة حياة طه حسين: «الأيام»، فتش المخرج يحيى العلمي ولم يجد أفضل من أمينة الصاوي لكتابة سيناريو وحوار مسلسل تحوَّل إلى أيقونة تلفزيونية لم يغب بريقها منذ أكثر من أربعين عامًا.

(6)

أسأل عن أمينة الصاوي الأم، تقول ابنتها إنها كانت مديرة المنزل حرفيًا: تطبخ بنفسها متأثرة بالمطبخ التركي. تدقق في تفاصيل كل من يشاركونها المنزل، بمن فيهم المساعدة التي تشاركها إدارة شؤون النظافة والنظام. أم مثقفة، تقرأ طوال الوقت في غير تخصصها لتتعلم وتعلِّم من حولها. تقول الابنة: «عندما التحقت بكلية الطب وجدت أنني أعرف معظم ما يدرِّسونه لي من خلال أمي التي كانت تقرأ وتعلِّمنا في الطب لحماية صحة الأسرة». كانت نموذجًا في العطف على الجميع، «بتدلدق حنان»، أم متفتحة دون أن يتوه

الدين عنها، لم تجبر بناتها على الحجاب، لكنها أقرت في وجدانهن الحشمة، تسافر ببناتها وتعلمهن القراءة وتشجعهن على الاحتكاك بالناس. قالت إنها كانت من الأمهات اللاتي يهتممن ببناء الشخصية قبل التربية، علّمها التدقيق في كل حرف تكتبه أن تكون صبورة، كان صبرها نموذجيًا خاليًا من الشكوى، لا تبخل بالمشورة أو العلم أو النصيحة، بداية من الجيران، نهاية بجيهان السادات التي كانت تزورها الصاوي في منزلها مع طفلتيها لمناقشتها في قانون الأحوال الشخصية وقت إعداده. وكانت مخلصة لبيتها، تعتكف متفرغة لأعمالها، ولا تطل على الناس إلا مرّتين: مرّة بصحبة حفيدها لتصلي معه الجمعة في أحد المساجد الذي توارثته أسرتها في إحدى حواري السيدة زينب، ومرّة عندما كانت تذهب لتقديم حلقة جديدة من برنامجها التلفزيوني الأسبوعي الذي تحكي من خلاله للأطفال سيرة الرسول.

(7)

انطلقت أمينة الصاوي بعد نجاح عرض مسلسل «الأيام»، فكتبت «الكعبة المشرفة»، و«الأزهر الشريف منارة الإسلام»، والعمل الملحمي «لا إله إلا الله» في أجزائه الأربعة. كان نجاحها مغريًا لهواة التقاط الصور مع المشاهير، فكتب البعض يهاجم الأعمال ويعترض على ما جاء فيها. كانت

تكتب مقالات ترد من خلالها برقم الصفحة ورقم السطر في المراجع، ثم انحسرت الظاهرة بعد أن كتب أنيس منصور مقالًا ينتقد فيه إحدى التفاصيل، فكان رد أمينة الصاوي عليه قائمًا على فكرة أن واحدًا من أكبر كُتَّاب مصر وقع في سقطة أن يكتب الآية القرآنية خطأ، واعتبرت أن هذا التحريف ينهي المناقشة، وقد أنهاها وما يشبهها بعد ذلك.

سألتها المذيعة عن العمل المقبل، فقالت: «تاريخ النيل». خططت لتوثيق محور الحضارة المصرية، أعدت فريق عمل يضم أساتذة جغرافيا وتاريخ وفنون، وجمعت كل ما هو مدون عن الحضارات والصراعات والحروب التي نشأت على ضفتي النيل من منبعه حتى مصبه. قالت إنه عمل أقرب إلى وثيقة بحاجة لاكتشافها.

في 23 مارس 1988 كانت أمينة الصاوي بصحبة زوجها الثاني اللواء محمد عباس في قرية «مراقيا» بالساحل الشمالي، وفي أثناء خروجهما بالسيارة من باب القرية هاجمهما أتوبيس تابع لشركة غرب الدلتا، فحطم السيارة تمامًا. أُجريت الإسعافات التي أنقذت الزوج، لكن تُوفِّيت الصاوي قبل أن تصل إلى المستشفى.

لفتيَّة السبع

صنايعية محو الأمية الصحية

كان وزير الإرشاد عبد القادر حاتم حاضرًا اختبارات المتقدمين للعمل في التلفزيون الذي سيبدأ بث إرساله بعد شهور، يبدو أنه قد أراد أن يتأكد بنفسه من الأوراق الموجودة بين يديه، قال للمتقدمة: «طبيبة، الأولى على البكالوريا في مصر، ما الذي يدفعها للتقدم إلى وظيفة مساعد مخرج في التلفزيون؟». قالت: «أؤمن أن الطب الوقائي أنفع للناس من الطب العلاجي، ولو عملت في عيادتي لمدة ثلاثين عامًا فلن أستطيع أن أمحو أمية الناس الصحية مثلما قد يفعل عملي في التلفزيون». سألها لماذا هي مهمومة بمحو الأمية الصحية للناس. قالت إنها نشأت في إحدى قرى المحلة الكبرى، وكان مشهدًا مألوفًا في طفولتها الأعمار التي تضيع بسبب الجهل والاستهتار الطبي والاعتماد على الخرافات والموروث الخاطئ، وإن لحظات الولادة تحديدًا كانت تعني دائمًا في قريتها جنازة واحدة على الأقل للأم أو للطفل أو لكليهما. أعاد النظر إلى الأوراق، ثم قال مستفهمًا: «لفتيَّة؟». قالت إن أمها بحثت عن تعريب لاسم أعز صديقاتها: «لفيتيانة»؛ امرأة إيطالية من الجالية التي كانت تعيش في المحلة على هامش صناعة الغزل والنسيج،

فاختارت: «لفتيَّة». سألها إن كان اسمها الغريب قد سبَّب لها المتاعب أو الإحراج. قالت إن كل هذا تلاشى يوم كتب مدرس العربي فيها قصيدة يُبدي من خلالها إعجابه بألمعيتها كطالبة، واستهلها بمديح الاسم:

وشادن قال اسمي صيغ من تيهِ

وقلب فل وشد الياء باقيهِ

بعد ثلاثين عامًا تلعثم حاجب المحكمة ـ التي تنظر قضيتها المقامة ضد التلفزيون المصري ـ في قراءة اسم صاحبة الدعوى، فوقفت لتصحح له، فقال القاضي: «اتفضلي يا دكتورة، حضرتك أشهر من نار على علم».

تم تعيين الدكتورة لفتيَّة السبع في التلفزيون، واحدة ضمن أربعين ناجحًا جرى اختيارهم من بين ألفي متقدم. عهد إليها تقديم برنامج عن صحة العائلة ضمن البرامج النسائية، ظهرت الحلقة الأولى في ثالث يوم لإرسال التلفزيون. وفي خلال سنوات قليلة دشنت خط إنتاج للمحتوى الطبي والصحي. تأسس على يديها فيما بعد كل ما له علاقة بالحملات المنتظمة والطارئة: التطعيمات، تنظيم الأسرة، شلل الأطفال، الحصبة، الجفاف، البلهارسيا، الأمراض المزمنة، النظافة العامة، الوقاية، تغذية الأطفال، حديثو الولادة، الإسعافات الأولية.

لم تكن المهمة سهلة، ضعف الإمكانيات الفنية والتقنية تغلبت عليه بالتدريب، أصبحت ترسم وسائل الإيضاح واللوحات الشارحة التي تستخدمها في البرامج وتلوِّنها بيدها، حتى توصل المعلومة بالصوت والصورة. الأوقات المخصصة للبرامج الطبية كانت محدودة، بمواعيد إذاعة غير مميزة، استطاعت أن تعوض هذا الخلل بإتقان العمل في الحملات، واستخدام الرسوم المتحركة والأغاني الشعبية. وكان أهالي الريف في مقدمة اهتماماتها، لم تكتفِ بالزيارات الميدانية والندوات، لكنها حاربت حتى ظهر على الشاشة برنامج «كأس التلفزيون للبيت السعيد»، مسابقة بين شباب وفتيات أكثر من عشرين قرية على مستوى مصر، كلها تدور أسئلتها حول الصحة، كان البرنامج ناجحًا، وربط أهل الريف بكل ما تقدمه الدكتورة لفتيَّة السبع من برامج: «المجلة الصحية»، «الإسعافات الأولية»، «اسأل مجرَّب»، «مع العائلة»، «الصحة بين إيديك».

ناقشت برامجُها والحملات التي كانت تكتب لها السيناريو والتعليق كلَّ ما يتعلق بصحة المصريين على مدار خمسة وعشرين عامًا، لم تتوقف خلالها عن ممارسة عملها كطبيبة أمراض نساء وتوليد. كان عملها في عيادتها مصدرًا للأفكار والتعرُّف وجهًا لوجه على مشاكل الناس، تسجل ما يحتاج

إلى توعية، وتفكر في أنسب وأسهل طريقة للتعامل معه.

تذهب للتصوير صباحًا، ثم تعود للعمل في عيادتها، وبعد الظهر تتوجه إلى استوديو المونتاج وتسجيل الصوت، ثم تعود إلى مرضاها في العيادة من جديد، بعدها تسهر ليلًا تعد الحلقة التي ستصورها في صباح اليوم التالي، وتستعد للحوار الذي ستجريه مع ضيوفها الأطباء الذين كانت تختارهم بعناية وتدقيق. كان إتقانها للعمل يتجاوز مسألة طبيبة مشتغلة بالإعلام. سافرت إلى إنجلترا للحصول على دبلومة في تحويل الصحة وأخبارها إلى مادة تلفزيونية، واختارت كمشروع تخرُّج أن تصنع فيلمًا عن البلهارسيا؛ أشهر الأمراض في مصر وقتها، بحكم ارتباطه بنجمها الأول عبد الحليم حافظ. وكان مطلوبًا منها أن تكتب السيناريو وتُصوِّر وتُخرِج وتُجري حوارًا مع الطبيب المعالج لحليم. وبعد انتهاء العمل فتشت في لندن عن نسخة من أغنية «في يوم في شهر في سنة» لتكون خلفية فيلمها، لكنها لم تنجح في مهمتها، حتى عرفت بوجود حليم شخصيًّا في «لندن كلينك» من أجل جراحة جديدة، زارته وحكت له القصة، فأعطاها عنوان شخص سيوفر لها نسخة الأغنية. أنهت الفيلم، ويوم مناقشة عملها منحها المشرف الإنجليزي درجة النجاح بامتياز، قال: «فيلمكِ القصير ثري وغير تقليدي، وإن كان يؤسفني أن مطربكِ المفضَّل قد رحل عن دنيانا صباح هذا

اليوم!».

انشغال السبع بهدفها صنع ملامح حياتها اليومية العادية: اشتهرت بأن كشفها في العيادة لا يقل عن ساعة، لا تكتفِ بفحص الحالة، ولكن تعلِّم وتشرح وتوضِّح وتساعد المريض في معرفة الطريقة التي يكون بها طبيب نفسه. تهرب ابنتها وصديقاتها من الخروج معها إلى الشوارع أو الأماكن العامة؛ في كل خطوة كان هناك من يستوقفها ليسأل ويفهم ويحصل على استشارة طبية، لم تتردد يومًا في أن تتعامل باهتمام وتُخرج من حقيبتها المفكرة والقلم لتشرح وتوجِّه وتقترح مهما طال زمن الاستشارة. كانت تقول عن المعرفة التي تحملها إنها أمانة ولا بد أن توصلها للناس، وإنها تخشى اليوم الذي تتحول فيه البرامج الطبية إلى تجارة وإعلانات. كانت تسابق الوقت من أجل إقرار ميثاق شرف إعلامي يتعلق بهذه النوعية من الميديا.

من النادر أن أشعر أنه قد فاتني شيء كثير عندما تفوتني مشاهدة أحد برامج التلفزيون، ولكن أشعر حقًّا بالخسارة إذا ضاعت مني رؤية برامج الدكتورة لفتيَّة السبع: «المجلة الصحية»، «الإسعافات الأولية»، برامج يخرج منها المشاهد بمعلومات مهمة يجهلها عادةً عن أعز ما يملك؛ صحته وصحة أولاده وعائلته، وطريقة التصرف في أوقات الخطر.

إن الدكتورة لفتيَّة التي تقدِّم برامجها منذ بداية التلفزيون بكل جدية والتزام في تخصص علمي متميز ربما لا تتألق حوله الأضواء، تستحق أن نقول لها شكرًا.

الكاتبة الكبيرة حسن شاه، جريدة «الأخبار»، 1985.

تخطى أثر مجهودها الحدود إلى منظمة اليونسيف العالمية التي منحتها جائزتها في بداية التسعينيات، وأفردت لها صفحة في كتابها السنوي. وقال جيمس جرانت رئيس هيئة اليونسيف العالمية في خطاب موجَّه إلى وزير الإعلام المصري:

نقدِّر نجاح التلفزيون المصري في الإعلام الصحي، وخصوصًا صحة الطفل وحملات التطعيم الموسعة لكل أطفال مصر عام 1987، سابقًا بذلك العالم النامي بثلاث سنوات، لأن الهيئة اقترحت على دول العالم أن يبدأوا في التطعيم الجماعي عام 1990.

استقرت جائزة اليونسيف للامتياز الإعلامي عن منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا، لأول مرَّة منذ إنشائها، في دولة عربية، بفضل مجهود لفتيَّة السبع، ولكن يبدو أن ذلك كان من سوء حظها.

تخطوها في ترقية مستحقة لدرجة وكيل وزارة بعد

سنوات كانت خلالها مدير إدارة الصحة والسكان بالتلفزيون، كان تجاوزًا مفضوحًا أغفل تاريخها ومجهودها، ومنح القيادة لموظف لا علاقة له بالإدارة، إزاحة مقننة دفعتها للجوء إلى القضاء. بحثت عن نسخ من حلقات برامجها لتضمها إلى أوراق القضية، لكنها اكتشفت أن شرائط برامجها تم مسحها وسُجِّلت عليها مسرحيات وأغانٍ وأهداف كرة قدم. كان الأمر محبطًا، لكنها لم تتراجع، وحاربت حتى حصلت على حكم المحكمة بأحقيتها في الترقية. وفي اليوم الذي تسلمت فيه منصبها بحكم المحكمة تقدَّمت باستقالتها وخرجت من مبنى التلفزيون ولم تعد إليه مرَّة أخرى.

تفرغت بعدها لعملها كطبيبة ومحاضرة في جولات تثقيفية في المدارس والنوادي والمؤتمرات الطبية العالمية.

منحها السادات في نهاية السبعينيات درع التفوق، وتُوفِّيت في أكتوبر 2013.

معرض صور
الفصل العاشر



سعادة الكاتبة أمينة الصاوي بتكريم السادات لها



أمينة الصاوي والممثل والأديب أنور أحمد



أمينة الصاوي مع المخرج أحمد طنطاوي في كواليس
تصوير مسلسل «لا إله إلا الله»



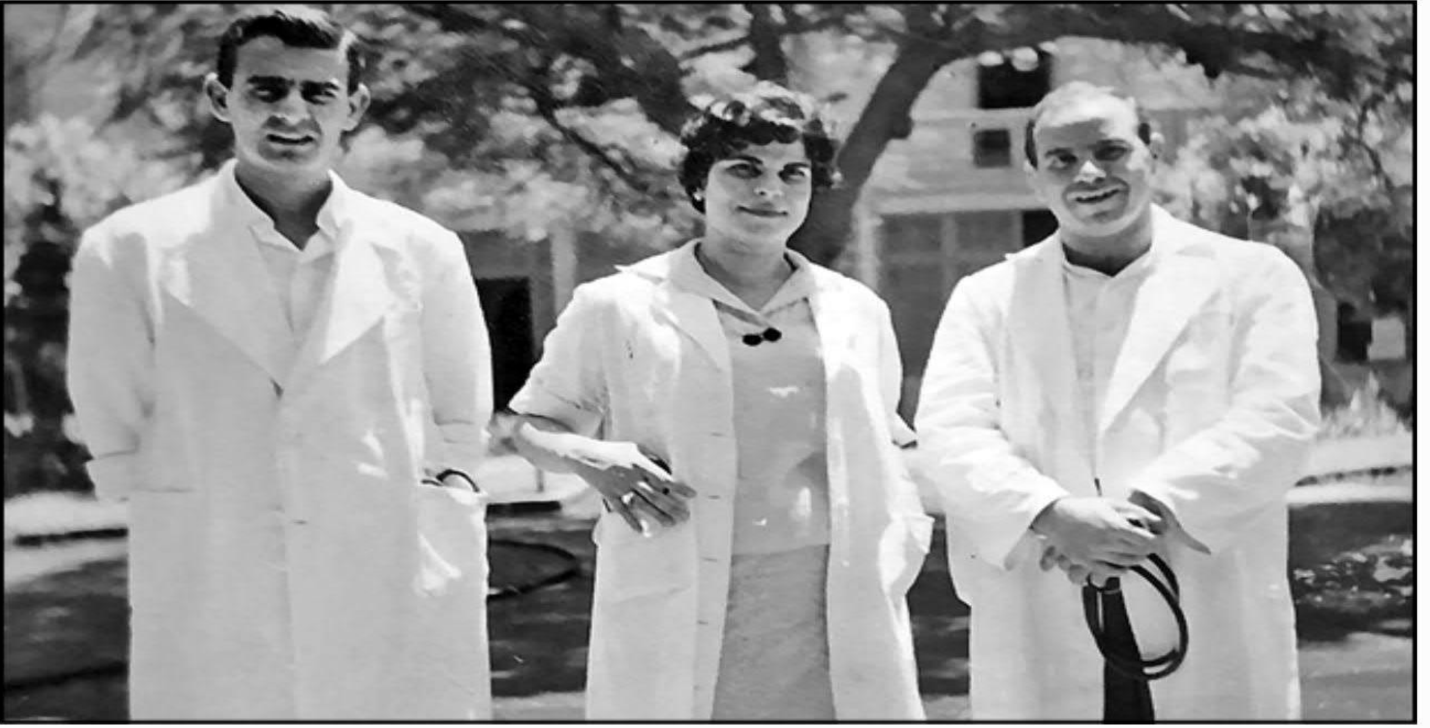
وفاة الكاتبة الاسلامية امينة الصاوى إثر حادث تصادم بالاسكندرية

* ٢ ظهر امس توفيت الكاتبة الاسلامية امينة الصاوى [٦٦ سنة] اثر حادث تصادم بين سيارتها واتوبيس اسكندرية ـ مرسى مطروح وذلك قرب قرية مراقيا .

كان يقود السيارة زوجها اللواء السابق محمد عباس الذى اصيب ثم نقل الى مستشفى المواساة لإجراء الاسعافات له أما امينة الصاوى فقد توفيت لحظة دخولها المستشفى فى عربة الاسعاف .

والكاتبة تعتبر من اشهر السيدات المصريات فى مجال الكتابة الدينية التى قدم منها التليفزيون العديد من الاعمال .

تغطية «الأهرام» لخبر رحيل أمينة الصاوي



الدكتورة لفتيَّة السبع بعد تخرجها حديثًا من كلية الطب



لفتيَّة عقب استلامها العمل في التلفزيون



لفتيَّة الأولى على القطر المصري في البكالوريا



لفتيَّة السبع (جهة اليمين) في إحدى صور الطفولة في مدينة المحلة



في اليوم الذي كسبت فيه السبع القضية التي اختصمت فيها التلفزيون المصري تقدَّمت باستقالتها

الفصل الحادي عشر

عبد البديع القمحاوي
صنايعي محو الأمية

(1)

أجلس أمام شاشة التلفزيون أحاول أن أفهم ما يقدمه هذا الرجل.

هو مدرس، لكنه لا يشبه أساتذتي. أسلوبه جذاب أقرب إلى ممثل، يتنقل بين الحروف الأبجدية والإملاء بأسلوب لا يشبه الطريقة التي تلقيت بها الدروس نفسها. سألت جدتي في النهاية، فقالت: «محو الأمية». أستوضح الإجابة، قالت: «أمل وعمر بتوعك لكن للكبار». يدرس لكبار السن الذين لم يذهبوا إلى المدرسة صغارًا ليتعلموا كيف يكتبون أسماءهم. معلومة مربكة. هل هناك بين كل هؤلاء الكبار الذين يحيطون بالواحد من لا يعرف كيف يفعلها؟! جعلتني الصدمة أشك في أقرب الناس، حملت إلى جدتي كراسة وقلمًا، وطلبت منها أن تكتب اسمها أمامي، ضحكت حتى دمعت عيناها، ثم فعلتها. صنعت هذه اللعبة لي شهرة في العائلة، أطلبها من كل الزائرين، أراقب كل شخص وهو يفعلها، وفي عقلي الحل إذا فشل في المهمة: أن يتابع «عبد البديع القمحاوي».

(2)

قبل ظهور القمحاوي كانت الدولة تجرب كل أسبوع فكرة جديدة لمحو الأمية: عام 1954 لجنة برئاسة البكباشي جمال عبد الناصر لتجربة الطريقة التي ابتكرها اليوزباشي حسين سيد علي لمعالجة الفشل السابق في معالجة المشكلة. قرار لكل الوزارات بتقديم بيانات عن عدد الأميين من العمال والمستخدمين وعساكر الداخلية والجيش، وخطة كل وزارة لتوفير ميزانية محو أميتهم. قانون يمنح مهلة للعاملين في المؤسسات الحكومية لتقديم شهادة محو الأمية وإعادة توظيف من حصل عليها فقط، ثم قرار من مجلس الوزراء بوقف العمل مؤقتًا بهذا القانون بعد أن انقضت المدة المحددة ولا يزال هناك كثيرون لم يحصلوا على الشهادة، مما أشاع روح التذمر في المصالح الحكومية بما قد يخل بالأمن العام. قرار الاستعانة بوعاظ الأزهر والمعاهد الدينية. ثم الاستعانة بوزارة الداخلية عام 1955 لمتابعة ومراقبة أعمال الدارسين والمدرسين. مشروع قانون لنائب مجلس الأمة عبد القادر حاتم، يلزم كل فرد مثقف بتعليم ثلاثة أميين، وأعلن أنه يبدأ بنفسه في دائرته بعابدين. وزير التعليم كمال الدين حسين يعترف في مؤتمر شعبي بمدينة أسيوط: «أنفقنا أموالًا كبيرة في المشروع بلا جدوى، ولذلك أوقفناه إلا في بعض المناطق للتجارب، والمطلوب حاليًا تعليم الكبار عن طريق أسرهم وأبنائهم». الإعلان عن 160

فصلًا في الوحدات المجمعة بالقرى لمحو الأمية، كل أميٍّ سيدفع مبلغًا رمزيًّا بين قرشين وخمسة قروش، وسيقوم بالتدريس طلاب الجامعات والمعاهد العليا طوال فترة إجازة الصيف، وستكون الدراسة ليلية بعد صلاة المغرب كل ليلة، ما عدا الجمعة، لمدة ساعة تعقبها محاضرات لرفع الوعي العام الثقافي والاجتماعي يقوم بها الأطباء والإخصائيون الاجتماعيون. ثم انتقلت الدولة إلى استخدام بعض العنف في المسألة، فتم الإعلان عن مشروع قانون لا يجوز معه التعيين في الحكومة أو الترقية أو العلاوة ما لم تكن هناك شهادة محو أمية. ثم أرخت الدولة قبضتها مرة أخرى، وقالت طيب جنيه للمدرس وجنيه للدارس في فصول بالقرى. ثم فقدت الحكومة أعصابها من جديد وأعلنت أنه لا يلتحق الطالب بالجامعة قبل أن يعلِّم خمسة مواطنين، ولا تُعطى إجازة جامعية إلا لمن علم اثني عشر أميًّا خلال دراسته. ثم حدث تغيير على يد الدكتورة حكمت أبو زيد وزيرة الشؤون الاجتماعية، فقررت في عام 1964 أن ينطلق المشروع من نقطة محو أمية النساء تحديدًا؛ تجنيد مليون امرأة متعلمة للمهمة بمكافآت مالية، وقرار بحصول طالبة الثانوية العامة على عشر درجات إضافية إلى مجموع درجاتها إذا تقدمت بشهادة تثبت أنها علَّمت عشر نساء، ويتم التعامل مع هذه الشهادة كمسوغ للتعيين إذا لم تلتحق الفتاة

بالجامعة، وأطلق على التجربة اسم «مدارس الشعب»، ولم تكن النتائج مرضية على الإطلاق، فسرتها جريدة «الأهرام» في العام نفسه بعدم انتظام الدارسين خصوصًا العاملات، وعدم وجود غرامة أو عقوبة على تكرار الغياب، ومشكلة أن هذه المدارس تفتح أبوابها للرواد طوال العام فيفاجأ المدرس كل يوم بوجوه جديدة تضطره للعودة للتدريس من البداية، بخلاف أن أصحاب العمل - بالنسبة إلى القطاع الخاص - كثيرًا ما يمنعون العاملين من ترك أشغالهم، كما أن مكافآت التدريس لم تكن مغرية على الإطلاق: ثلاثة جنيهات شهريًّا.

خلال هذه السنوات كان عبد البديع القمحاوي المولود في منيا القمح في عام ١٩٣٤، قد التحق بعد الثانوية العامة بكلية المعلمين، وتخرج وعمل مدرسًا للرياضيات للصف الإعدادي في فترة جاب خلالها أكثر من اثنتي عشرة محافظة، حتى تم انتدابه إلى القاهرة في بداية الخمسينيات، ثم قرأ إعلانًا تطلب فيه إذاعة الشعب معدين للعمل بها.

(3)

عندما التحق بالإذاعة في عام ١٩٦٦ كانت عينه على البرامج التعليمية، فتش عما ينقصها، ثم قرر أن يقدم مادتي الرياضة والهندسة. قالوا له: «إزاي نقدم ده في الإذاعة؟».

قال: «نجرب أسبوعًا». وبنهاية الأسبوع تم تثبيت موعد عرض حلقات الرياضة والهندسة.

في عام 1967، كانوا يبحثون عن برامج جديدة بعد هزيمة يونيو. قرر القمحاوي أن يشارك في المعركة بما يجيده؛ أن يعلم الناس ويمحو الأمية. تذكر الأيام التي قضاها مع أمه حافظة القرآن التي لا تعرف القراءة والكتابة؛ فترة محا خلالها أمية والدته بإصرار منها. فقدم للإذاعة فكرة برنامج «ورقة وقلم ومراية». لم يتحمس له أحد، فقط المذيعة عايدة شكري التي كانت تقدم أحيانًا حفلات أم كلثوم ثم صارت زوجة القمحاوي فيما بعد قررت أن تشاركه تقديم البرنامج إيمانًا منها بفكرته. كانت أغنية التتر التي كتبها الشاعر الكبير محمد عفيفي مطر، ولحنها وغناها عبد العظيم عويضة، هي الأشهر من بين كل تترات الإذاعة لسنوات طويلة:

يا أهل بلدي.. في كل مكان

من المنزلة.. لغاية أسوان

يا اللي اتحرمتوا من التعليم

الفرصة لسه قدامكو

من غير ما تغرموا ولا مليم

إذاعتنا ناوية تعلمكوا
بس اللي مطلوب منكو
تتجمعوا كده كلكو
يوماتي وفي نفس المعاد
وتحضَّروا من فضلكو
ورقة وقلم ومراية
وتخلوا بالكو معايا

كان يطل على الناس في الثانية عشرة ظهرًا ثلاثة أيام، ويمتحنهم في نهاية الأسبوع، والمكافأة استضافة الناجحين ليقدموا معه الحلقات. كان أول من استضافه الطالبة صاحبة الفضل في التجربة: والدته. اعتمد القمحاوي على تقنية مخارج الألفاظ ومراقبة حركات الفم أثناء نطقه للحروف المختلفة. تبنى أسلوب المدرس الريفي صاحب النبرة الزاجرة التي لا تخلو من سخرية، واستخدم مفردات بيئة المستمعين للشرح والتوضيح، يصنع المقاربات بين الحروف وأشكال النباتات وأدوات النجارة والسباكة والفلاحة. ومنحته اللكنة الشرقاوي التي لم يتخلَّ عنها فرصة أن يكون أقرب إلى نوع المستمعين الذين تخاطبهم حلقاته. صنع

لنفسه شخصية منحته سريعًا شعبية لافتة بين البسطاء وسكان القرى والأطراف النائية من مصر. يستضيف في برنامجه فلاحين وعمالًا وسعاة من العريش حتى أسوان. وأطلقت الصحف على ما يقدمه لقب «المشروع الشعبي لمواجهة النكسة».

(4)

بعد وقت قصير أصبح برنامجه يوميًا، وقدَّم منه نسخة أخرى في إذاعة القرآن الكريم باسم «الفاتحة أم الكتاب»، يعلم فيه القراءة والكتابة من خلال حفظ سورة الفاتحة فقط. وبمرور الوقت انجذب حتى المتعلمون لمتابعة أسلوبه ومهاراته في التعليم وعلاقته بطلابه من مختلف الأعمار. اعترف عادل إمام في أحد الحوارات الصحفية في نهاية السبعينيات أنه لا يتابع من برامج التلفزيون إلا عبد البديع القمحاوي. كان تأثيره يتزايد، حتى إن بعض الجهات الرسمية والشركات الكبيرة استعانت به في دورات مكثفة لمحو أمية موظفيها والعاملين بها، مثل: شركة المقاولون العرب، ومطاحن مصر، وغيرها من المصانع الجديدة التي بدأت تظهر في مصر مع نهاية السبعينيات. وحكى لي ابنه عن شخصيات عامة، تجار وأصحاب مشاريع، كانوا يلجأون إلى القمحاوي سرًّا ليمحو أميتهم بعيدًا عن أعين الناس.

لم يكن محو الأمية المرَّة الوحيدة التي تستعين فيها الجهات الرسمية بمجهوده: أسهم في تطوير فكرة الكتب الخارجية عند ظهورها لأول مرَّة في الستينيات بإدارة الهيئة العامة للكتاب مع وزارة التعليم، وكان أول كتاب في التجربة يحمل اسم «الطلائع في حساب المثلثات». ومع ظهور الإرهاب في التسعينيات استعانت به الجهات الرسمية في محاربة الأمية الدينية، فأصدر سلسلة قصص شباب الأنبياء الأتقياء. ثم نال جائزة سوزان مبارك في أدب الأطفال، بعد مجهود نادر في هذا الملعب، ما بين القصص وابتكار ألعاب هندسية للإعراب والنحو ومكعبات تعليم الحروف، كانت سلعة رائجة في الثمانينيات.

طور محتوى البرنامج، ثم انتقل بعدها إلى التلفزيون مع ظهور القناة الثالثة. قدَّم تجربته تحت عنوان «أتعلم.. أتنور»، فيما يقرب من ١٨٥٠ حلقة.

(5)

عندما أعلنت اليونسكو عن مسابقة في التعليم، شاركت الإذاعة المصرية بحلقة من «ورقة وقلم ومراية». أرسلت المنظمة تطلب عددًا أكبر من الحلقات. مر وقت طويل حتى استيقظ القمحاوي على خبر إعلان اليونسكو فوزه بالجائزة الدولية في التعليم عن بُعد لعام ١٩٨٦. كانت عالمية الجائزة

مثار احتفال المتخصصين الذين يعرفون حقيقة قيمتها، أما رسميًا فلم تقدم شيئًا للقمحاوي سوى أنه كان يستعين بها في دعم مطالبه بحقوقه المادية عن برامجه وحلقاته التلفزيونية التي كان يبدو أن إسقاط حقوقه المادية عنها كان متعمدًا كنوع من «التطفيش»؛ كانت هناك رغبة مجهولة في أن تتوقف مسيرة الرجل عند هذه النقطة، لكنه لم يتوقف عن الحرب.

نشر الكاتب الصحفي لبيب السباعي في مايو 1999 بجريدة «الأهرام» عما يتعرض له القمحاوي من مضايقات، قال:

الرجل الذي حمل على عاتقه منذ سنوات طويلة الحرب على الأمية، ونجح قبل أن يفتحها ربنا وتصبح هناك هيئة وميزانية بملايين الجنيهات وسفريات ومؤتمرات، يتعرض لمضايقات بدأت بأكل حقوقه المادية. حارب حتى أحال وزير التعليم الأمرَ للتحقيق، فحكموا له بنصف الأجر عن 100 حلقة فقط من 400، لم يعترض لكنهم لم يتوقفوا، وربما عقابًا له تم إيقاف برنامج محو الأمية الذي يقدمه على القناة الثالثة ويخدم الملايين في محيط القاهرة الكبرى.

وقال إن القمحاوي يناشد المسؤولين راجيًا أن يعود البرنامج، وهو على أتم الاستعداد للتبرع بمكافأة العمل.

لم يعد البرنامج، وربما على سبيل التوغل في العقاب اختفت كل شرائطه.

دفعتني هذه المعلومة للتفتيش على أيٍّ من حلقات القمحاوي «أون لاين»، ولم أعثر إلا على حلقة وحيدة وتتر المقدمة والنهاية. حكى لي ابنه أن هذا ما تبقى من أكثر من ألفي حلقة تلفزيونية وسنوات من برنامج يومي في الإذاعة.

في ٢٠٠٣ أصيب بجلطة عطلت مركز الكلام.

(6)

الحرب التي خاضها القمحاوي منفردًا لسنوات منحته صلابة نادرة للتعامل مع الجلطة التي أصابته. كان يواصل الليل بالنهار بروح طفل صغير يتعلم الكلام حرفًا بحرف، يدرب نفسه على مخارج الألفاظ بالطريقة التي علَّم بها ملايين، بمساعده ابنه الأصغر ضياء الذي تعامل مع المهمة بجدية أكبر من الجدية التي كان يتعامل بها مع امتحانات الثانوية العامة التي كان يخوضها في العام نفسه. شهور طويلة مرت والقمحاوي يستعيد خلالها سيطرته على الحروف أمام «المراية»، يلملم الحروف على مهل، وتخرج الكلمات ببطء متقطعة، إلى أن خرجت أول جملة كاملة وصحيحة لا ينساها أهل البيت إلى اليوم: «مبروك يا ضياء إنت نجحت».

(7)

بالنسبة لي لم ينجح أحد مثلما فعلها القمحاوي: منحه الناس المحبة لأنه استطاع أن يستدرجهم إلى ما فشلت فيه الحكومات، ومنحته اليونسكو جائزتها الدولية لأنه بميكروفون وكثير من الخيال غيَّر الواقع.

اختفت المادة ربما، لكنها ليست صدفة أن ما بقي متاحًا للجميع على الإنترنت رسالة القمحاوي في أغنية كان ينهي بها حلقاته قالت كل شيء:

افتحوا الشبابيك لنور الشمس يلَّا

افتحوا الشبابيك دي شمس العلم هلَّا

لما نور العلم يدخل كل بيت

مش هتبقى في القلوب كلمة يا ريت

والمكن هيدور ويروي كل غيط

والمداخن في السما تكتر وتعلا

افتحوا الشبابيك

رحل في 2005.

محمد محمود رضوان

صنايعي أمل وعمر

في كتاب القراءة بالمرحلة الابتدائية يظهر عمر بطل الكتاب وهو يقف أمام العَلَم ويحييه منفردًا وخلفه بقية الطلاب يرددون صيحة «تحيا جمهورية مصر العربية». مشهد تمنيت أن أكون بطله في فناء مدرسة «راهبات قلب يسوع المصريات» بسوهاج، لكنني فشلت، أصبح الموضوع مفتتح عقدة امتزجت فيها تحية العَلَم بكتاب القراءة باسمي.

كنت الوحيد الذي يحمل اسم «عمر» في مختلف مراحل التعليم من الابتدائية حتى الثانوية العامة، بل على مستوى المدينة نفسها كنت «عُمر الجيل». وبداية من الصف الأول الابتدائي كلما صادفت زميل مدرسة في الشارع يستقبلني بالملاحظة الساخرة: «إزيك يا عمر؟ أومال فين أمل؟»، وهي سخرية ضاغطة أكثر من سؤال «صايم ولّا زي كل سنة؟». بمرور الوقت اندثر السؤال، وكان الفضل لبرنامج «نادي السينما» الذي عرض لأول مرّة فيلم «عمر المختار»، فتحسَّن الوضع قليلًا.

كان بطلا كتاب القراءة في سنوات الابتدائية «أمل وعمر»

هما سبب هذه الكركبة، أو على وجه الدقة الدكتور محمد محمود رضوان مؤلف الكتاب.

المعلومات المتاحة عنه قليلة للغاية، وهي متاحة بفضل وجود اسمه في «معجم البابطين لشعراء العربية».

خريج مدرسة دار العلوم العليا، حصل على دبلوم التدريس، بعدها سافر إلى إنجلترا ورجع يحمل الدكتوراه في التربية من جامعة لندن في عام 1952، وعمل بالتدريس في معهد التربية العالي، وكان يشغل منصب كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم، ثم وكيل الوزارة، ثم نقيب المعلمين، وتم اختياره لعضوية مجلس الشورى في عام 1981.

كان البحث عن مؤلفات رضوان أصعب من البحث عن سيرته الذاتية، القائمة طويلة: «التربية القومية العربية»، «تعليم القراءة للمبتدئين»، «مفاهيم جديدة للتربية»، «دراسة في ثقافة الطفل»، «لغة الطفل». لم تكن هناك نسخة واحدة من هذه المؤلفات في المكتبات بمختلف تخصصاتها. اعتمدت على صديقي أحد أصحاب مكتبات سور الأزبكية ولم يعثر على شيء، لكنه قدم لي نصيحة: «فتش عن مؤلفاته في الفجالة، وابدأ من مكتبة مصر».

في الفجالة ـ التي نالت هذا الاسم حسب معلومة شائعة لأنها قبل مائتي عام كانت أرضًا زراعية مشهورة بإنتاج

الفجل - تنقلت بين المكتبات، وقررت أن تكون «مكتبة مصر» هي ختام الجولة، وليتني بدأت بها! في مقر بيع المكتبة اقترح البائع أن أسأل في المخزن المجاور للمطبعة. هناك اندهش من طلبي رجل ستيني كان واضحًا أنه صاحب سلطة ما في المكان، قال: «ربما توجد بعض النسخ من كتاب له»، وطلب مني أن أمر عليه بعد يومين.

في الموعد المحدد كانت تنتظرني نسخة من كتاب «تعليم القراءة للمبتدئين»؛ كتاب من خمسمائة صفحة تقريبًا، صدر في أوائل الستينيات، على الرغم من موضوعه العلمي فإن لغته سهلة كما يليق بشاعر يحاول أن ينقل الصورة بوضوح. يناقش رضوان في هذا الكتاب كل الأشكال التي يمكن الاعتماد عليها في تعليم الطفل القراءة، اعتمد في وضعها على خبرته الأكاديمية، وسجلِّه المهني في المدارس الأميرية وفي تعليم القراءة للأجانب داخل وخارج مصر والإشراف على تجربة المدرسة التجريبية التابعة لمعهد التربية بالإسكندرية.

يخاطب الكتاب المعلمين، ويشرح لهم كيفية تقدير مدى استعداد الطفل لتعلم القراءة، وكيفية قياسه، ومزايا وعيوب طريقة مثل «انظر ثم قل»، التي تعتمد على الصور، ويوضح كيف يمكن الاستفادة من أسلوب الجهر بالقراءة في الكتاب

بطريقة لا تسبب حرجًا أو اضطرابًا للطفل، وكيف تتشكّل ملامح خبرة القراءة بمرور الوقت في عقل الطفل، ومزايا وعيوب الاعتماد على القصة والأغنية، وكيف يمكن تلافي عيوب استخدام تقنية التكرار، ألعاب الجمل والتراكيب.

كان كتاب قراءة الطفولة «أمل وعمر» ـ برسوم الفنان محمد قطب التي قامت على أربعة ألوان فقط بطول الكتاب: الأبيض والأحمر والأخضر والبني ـ حاضرًا في ذهني في أثناء التنقل بين فصول كتاب الدكتور رضوان. من مكان بعيد في الذاكرة كانت تطل صفحات من كتاب القراءة، رأيت فيها تطبيقًا عمليًا للنظريات التي قدّمها رضوان، من حيث الاعتماد على الصورة واستخدام مفردات بيئة الطفل وتقنية التكرار.

على هامش النظريات العلمية يلفت رضوان النظر في البداية إلى خطورة انتقال الطالب أتوماتيكيًا عامًا بعد عام ما دام انتظم في الدراسة، دون التأكد من أنه بلغ المستوى المرجو للالتحاق بالفرقة التالية والأخذ بمناهجها الأعلى، فيزداد تخلّفًا عامًا بعد عام. وأهمية العمل على تكيف الطفل مع مجتمعه الجديد قبل تعليمه.

يجد الطفل نفسه في جو غريب يخالف ما ألفه في المنزل، صغار وكبار جدد، يحتاج إلى فترة من الوقت حتى يألف

المعلمين والزملاء والنظام المدرسي، وأن يطمئن فيتحدث ويستمع في حرية وانطلاق. ولأول يوم في المدرسة تأثير خاص، يفضَّل حضور أولياء الأمور في الاحتفال به مع جو من الأغاني والأناشيد والأفلام السينمائية. بعدها على المُعلِّم أن يبذل جهده في تعويد الطفل كيف يتصرف كعضو في جماعة، وكيف يحترم الإرشادات والتعليمات، وكيف يستمع عندما يتحدث الآخرون، وتشجيع الطفل على المشاركة في النشاط الجمعي: قص الحكايات، تنظيم الفصل، نظام الدخول والخروج، العناية بنباتات المدرسة، تعلُّم استخدام الألوان والصلصال، التعرُّف على مصطلحات الحياة الجديدة: المكتبة، والكتاب، وأسماء الأيام، والتاريخ...

تعاملت كثيرًا أنا ورفاق الجيل مع كتاب «عمر وأمل» بمنطق ساخر، لكن بعد أن أصبحت الكتابة مهنتي أحاول أن أضع نفسي مكان محمد محمود رضوان؛ كمؤلف لكتاب يأخذ بيد طفل عمره ست سنوات باتجاه عالم غريب عليه، ستتوقف عليه حياته مستقبلًا. أجد الموضوع صعبًا، ويحتاج إلى مهارة ذكية نسخر منها بينما ندين لها بفضل كبير ربما الأكبر في الطريق.

لم يكن كتاب «أمل وعمر» مؤلَّف الدكتور رضوان المدرسي الوحيد، لكنه شارك في تأليف أكثر من كتاب للغة العربية في

الستينيات والسبعينيات، كانت تقوم أيضًا على ثنائيات: «سوسن ونصر»، «عادل وسعاد».

حصل على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، ورحل في عام 1995.

معرض صور
الفصل الحادي عشر



عبد البديع القمحاوي (جهة اليسار) صنايعي محو الأمية



عرَّف القمحاوي الإعلام قائلًا:

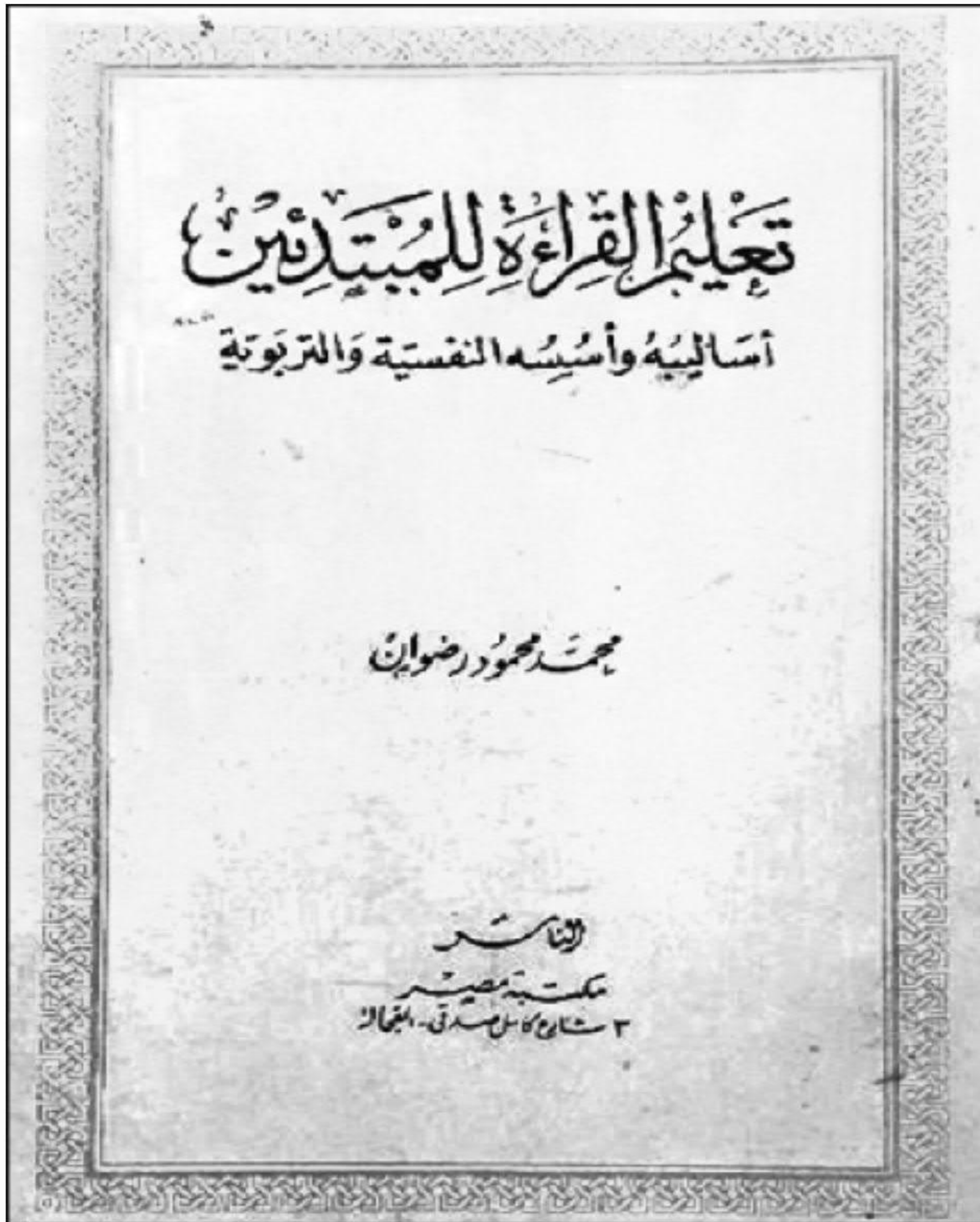
«إعلام يعني تعليم، فانظر ماذا تعلِّم الناس»



لم يكتفِ القمحاوي بمحو الأمية الأبجدية، بل ساهم أيضًا في محو الأمية الحضارية بمشاركته بالكتابة والتمثيل في حملات التوعية التلفزيونية الشهيرة في الثمانينيات: «لحظة من فضلك»




بقليل من أدوات العمل وكثير من الموهبة والخيال قدَّم القمحاوي منفردًا ما لم تقدر عليه جهات رسمية



غلاف كتاب «تعليم القراءة للمبتدئين»، أحد كنوز محمد محمود رضوان المجهولة



الدكتور محمد محمود رضوان صنايعي أمل وعمر



جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم

القراءة العربية الجديدة
للصف الأول من المرحلة الابتدائية

القسم الثاني

تأليف

محمد محمود رضوان — دكتور محمود رشدي خاطر
محمد الشناوي — يوسف الحمادي
نوال عيسى

حقوق الطبع محفوظة للوزارة

الجهاز المركزي
للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية
طبعة عام ١٣٦٨ هـ — ١٩٧٨ م

غلاف أحد كتب القراءة الكثيرة التي قاد رضوان تأليفها



الفنان محمد قطب رسام شخصيات كتاب «أمل وعمر»

تغيَّرت نظرتي إلى هذا الثنائي عندما شكوت إلى أحد

أقاربي يأسًا ما، فرد قائلًا:

«طول ما فيه عمر لازم يكون فيه أمل»

الفصل الثاني عشر

كمال رمزي استينو
صنايعي الجمعيات التعاونية وبطاقة التموين

(1)

أفتش وأنا مشغول بالعثور على تفسير لبقاء هذا الرجل في منصبه وزيرًا للتموين لمدة أربعة عشر عامًا بنجاح، من سنة 1956 حتى 1970.

ما الذي جعله «شريكًا في الحكم»، حسب تعبير سامي شرف سكرتير الرئيس جمال عبد الناصر: «كان الدكتور كمال رمزي استينو، منذ أن شارك في الحكم مع الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس أنور السادات منتصف 1956 حتى 1970، عضوًا رئيسيًّا فاعلًا مشاركًا في كل القرارات، ولم يصدر قرار إلا وساهم فيه الرجل بالرأي والدراسة والمناقشة والاعتراض أحيانًا على بعض السياسات».

الظروف التي تولى فيها استينو مسؤولية التموين لم تكن عادية. استلم عمله في لحظات تحوُّل مصر من مجتمع النصف في المائة الذي يتمتع بخيرات البلد والقدرة على شراء كل ما يحتاج إليه، بينما باقي السكان يعيشون في فقر شديد ويجدون مستلزماتهم بصعوبة، حتى إن السلع

التموينية وقتها كانت تُعرض ولا تجد من يشتريها، إلى مجتمع المائة في المائة الذي أصبح قادرًا دون تمييز، بعد صدور قوانين الاشتراكية وتوزيع الثروة والقضاء على الإقطاع وتحديد حد أدنى للأجور ومجانية التعليم والعلاج، على شراء كل ما يحتاج إليه. زاد الاستهلاك بشكل كبير. كان متوقعًا أن يكون هذا أمرًا مزعجًا للقيادة السياسية، لكن عبد الناصر فاجأ الجميع في خطاب رسمي قائلًا: «زيادة الاستهلاك ظاهرة إنسانية مفرحة ما دام الإنتاج مستمرًّا».

كان استينو من أوائل البكالوريا، استجاب لضغوط والديه فالتحق بكلية الطب، بعد عام قرر ألا يجامل أحدًا في مستقبله، وفتش عن العلوم التي تجتذبه، فالتحق بكلية الزراعة، وتخرج أول دفعته عام 1933، سافر بعدها في بعثة إلى الولايات المتحدة وعاد بالدكتوراه في العلوم الزراعية وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين، استلم عمله مدرسًا بكلية الزراعة جامعة القاهرة، وكانت الكتب التي يقدمها في فنون تطوير الزراعة حديث المختصين. استمر نجاحه الأكاديمي لفترة انتهت مؤقتًا يوم طرق أحدهم بابه قائلًا: «الريس في انتظارك».

أمام عبد الناصر هرب منه الكلام، لاحظ ناصر اضطرابه فطلب له الليمون، ثم قال: «قعدنا ندور في ملفاتك شهرين،

وراقبناك شهرين، وكل التقارير أقنعتني بكفاءتك، هل تقبل العمل معي وزيرًا للتموين؟».

قبل استينو المهمة، وبعد أكثر من نصف قرن يحاول الواحد أن يفهم كيف كان نجاحه فيها نموذجيًّا.

(2)

طاف استينو - اسم قديس قبطي قديم - في طفولته ومراهقته معظم أنحاء الجمهورية بحكم عمل والده مفتشًا للري. تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بين الكثير من المحافظات: سوهاج، المنيا، المنصورة، الفيوم. هذا رجل تعرف مبكرًا على طبيعة الشعب الذي يأتمنه على لقمته وخزينه وسلعه الأساسية. جعله هذا فيما بعد يدير الوزارة كرب أسرة متيقظ لمهامه قبل أن يكون موظفًا منتبهًا لمسؤولياته.

أصدر ذات يوم قرارًا أن كيلو الثوم الذي يبلغ ثمنه عشرين قرشًا سيُباع بقرش ونصف قرش، فاختفى الثوم من الأسواق، وبدت نبرة تعاطف مع الباعة وما قد يتعرضون له من خسائر بسبب هذا القرار. خرج الوزير وقال إن سعر الثوم في بداية الموسم كان قرشًا واحدًا، واشتراه التجار بملاليم وخزنوه بكميات كبيرة لأن الثوم يقبل التخزين، ثم بدأوا يبيعونه بهذا السعر الفاحش. وقال إنه انتهز فرصة تقابل

موسمين من مواسم إنتاج الخضر، أحدهما قارب على الانتهاء والثاني بدأ في الظهور، مما يعني كميات كبيرة لا مجال للخسارة عند بيعها: «كل ما فعلته أنني قاومت أرباحًا فاحشة يخطط لها التجار».

سأله أحد الصحفيين: «هل تستطيع أن تعيش أنت وأسرتك بمرتب موظف في الدرجة الخامسة يتقاضى خمسة وعشرين جنيهًا في الشهر؟». قال استينو: «إذا فُرض عليّ هذا الوضع فسأبحث عن برنامج حياة جديد يناسب هذا المرتب، سأتخلص في البداية من آفة «العنطزة» التي أصابت الكثير من الأسر المصرية، سألغي بند الخدم وأعتمد على نفسي، لن أبحث عن كيلو بامية بخمسة عشر قرشًا وأترك السبانخ وثمن الرطل منها مليمان، وبقية الخضراوات الأخرى التي تُقدِّم بها «رائدات التدبير المنزلي» وصفات وأطباقًا شهية، سأستغني عن الملابس الجاهزة وأخصص ثلاثة جنيهات ونصف للملابس «الخياطة»، سأسكن في شقة ثلاث غرف في حدود ستة جنيهات، سأخصص ميزانية تسعة جنيهات للأكل، وسأشتري أنا بدلة في الصيف وبدلة في الشتاء من القماش المصري الفاخر سعر المتر مائة وستون قرشًا، جنيه ونصف للترفيه عن الأولاد، وسأوفر ثلاثة جنيهات لتكون مدخرًا للطوارئ في حال كون هذا الموظف ليس من الأشخاص الذين يصرفون ربع المرتب على

التدخين والشاي».

كانت سيرة استينو حاضرة دائمًا، من وقفة العاملات على السلالم الخلفية للعمارات حتى جلسات ربات البيوت في الصالونات. يظهر اسمه دائمًا عند حدوث أي خلاف في وجهات النظر بين الباعة في السوق والمستهلكين. كان سلاح ربات البيوت الدارج وقتها جملة: «استينو قال». يضعون تصريحاته وقراراته في وجه من يفكر في استغلال الفرص. واحتار معه التجار حتى إنهم كانوا يخبئون البضاعة، فأصدر قرارًا يلزم جميع التجار الذين يتاجرون في أي سلعة ويمتلكون المخازن بالإعلان في مكان ظاهر على أبواب هذه المخازن عما يوجد بداخلها من بضائع، مع إخطار وزارة التموين بهذه البيانات لاعتمادها.

آمن استينو أن الحس البوليسي جزء من طبيعة عمل وزير التموين، اهتم بمباحث التموين، شارك بوزارته مع عشرات من الضباط والمخبرين والمئات من الجنود في مراقبة الأسواق والسيطرة عليها. لم يكتفِ بهذا الفريق، بل شغَّل معه ربات بيوت مصر، خصَّص رقمًا لربات البيوت وقال: «لا أطلب من أي ربة بيت إلا أن ترفع سماعة التلفون وتبلغ عن أي تاجر يقوم بالبيع بأزيد من التسعيرة، أو يمتنع عن البيع، بدون أن نحتاج حتى إلى معرفة اسم المتصلة». أصبحت

أعداد التجار المقبوض عليهم كل أسبوع مثار تعليقات كل أطياف المجتمع. يقول دائمًا: «التسعيرة مهمة جدًّا شرط أن تكون عادلة للمنتج والمستهلك، وإذا لم تحدد الحكومة الأسعار فسيحددها التجار كما يحلو لهم».

(3)

كان استينو يقوم بمهام عمله بشفافية نادرة جعلت الناس تتفهم وتتعاون.

طلب من المصريين ومن ربات البيوت أكثر من مرَّة خلال التصريحات الصحفية والإذاعية أن «لا تستمعوا إلى أي شائعات تتعلق بالمواد التموينية واحتمالات ندرتها أو اختفائها، أو أيٍّ من هذه الحيل التي يلجأ إليها التجار». وقدَّم وعدًا التزم به طوال فترة توليه الوزارة، قال: «سأكون أنا أول من يعلن عن أي أزمات تخص أي سلعة، والفترة اللازمة لإنهائها، والبدائل المطروحة».

يمتلئ أرشيف الصحف بتصريحات لاستينو تكشف عن التزامه بوعده:

فبراير 1961:

هناك أزمة في المسلى الصناعي، واتصلت بوزير الصحة للإفراج عن المواد الأولية التي وصلت إلى الموانئ المصرية

في ٢٤ ساعة، لتوزيعها فورًا على المصانع، وستنتهي الأزمة خلال أسبوع.

يناير 1963:

هناك أزمة في صلصة الطماطم، لأن سعر طن الطماطم وصل في العام الماضي إلى ٣٠ جنيهًا مما أثر على حجم إنتاج مصانع المواد الغذائية، لذلك لا يوجد رصيد منها.

في ديسمبر 1964 وقف أمام مجلس الأمة يتحدث لمدة ثمانين دقيقة متواصلة عن كل ما له علاقة بوضع التموين، ولا شيء في يده سوى ورقة صغيرة مدون بها بعض الأرقام، قال:

إن الزيادة في استهلاك الشاي زادت خلال الفترة الماضية بنسبة ٧٠٪، والبوتجاز ٩٨٪، لكن دون أن تحدث زيادة في الأسعار. ٨٠٪ من السلع الضرورية لم ترتفع أسعارها، في المقابل انخفضت أسعار أردب الفول من ٨ جنيهات و٦٠ قرشًا إلى ٦ جنيهات فقط. وحافظنا على سعر رغيف العيش كما هو ٥ مليمات، وسعر الأرز عندنا 40 مليمًا للكيلو، في حين أن سعر الكيلو في البلاد الآسيوية التي تعتبر الأرز غذاءً رئيسيًا وصل 10 قروش. ومشكلة اللحوم أن التجار يشترونها من المجمعات الاستهلاكية بنصف الثمن ويبيعونها بأسعار تجارية. لمواجهة النقص تقرر منع ذبح اللحوم ٣ أيام في

الأسبوع، الاثنين والثلاثاء والأربعاء، وتطرح في هذه الأيام الأسماك المثلجة واللحوم المستوردة.

كانت تصريحاته من النوع النادر الذي يتقبله المواطن، ولا يحس تجاهه بفجوة بين ما يقال وما يجري على أرض الواقع.

(4)

امتلك استينو مهارة وجرأة التفتيش عن حلول غير تقليدية ذات أثر سريع ومباشر وتستطيع أن تنجو بنفسها من الروتين.

عندما عثر على فكرة استيراد الدواجن المجمدة، شغله أن الناس في مصر غير معتادين عليها، وأن الأمر يحتاج إلى تقريب المسافات. علّق اتفاقه مع شركة أمريكية تُصدِّر الدواجن المجمدة على شرط أن تُوفد الشركة طباخين ليُعلِّموا الناس طهي هذا النوع من المأكولات مع شحنة مجانية كعينة. ثم اتفق مع فندق هيلتون على تنظيم أسبوع الدواجن المجمدة، ودعا الناس للأكل هناك مجانًا، وهي الفكرة التي أُعجب بها عبد الناصر وعلّق عليها ضاحكًا: «ابقى كتر لنا من العينات دي».

كان يفتش عن طرق لتمويل عمل الوزارة بعيدًا عن دعم

الحكومة، فسافر إلى الهند وسيلان، ووقَّع اتفاقًا على استيراد الشاي الخام من الهند لتعبئته محليًا ثم تصديره إلى دول أخرى ليست بينها وبين الهند اتفاقيات تجارية.

خطَّط استينو لمشروع يجعل المواطن شريكًا في التجارة؛ مؤسسة برأس مال مليون جنيه يكتتب الشعب فيها بواقع جنيه للسهم الواحد، بفائدة ٦٪، وستعود عوائد الأرباح على المساهمين الذين هم بالأساس مستهلكون. كانت فكرته أن تُفتتح لهذه المؤسسة فروع في كل المحافظات لبيع اللحوم والمواد الغذائية والتموينية والملابس ومختلف السلع، قال إن المشروع سيكون ملكًا للشعب، فالمواطن هو المساهم، وسيحصل على احتياجاته من السلع بخلاف المكسب. وخطَّط لأن يتوسع نشاط المؤسسة في المستقبل، بحيث تُنشئ المصانع اللازمة لإنتاج المواد الغذائية بكميات ضخمة تقلل تكاليف الإنتاج.

بعد أن نُشر تقرير هيئة الزراعة والأغذية الذي يقول إن الكمية اللازمة للفرد الواحد من البروتين يوميًا هي عشرون جرامًا، كان ممكنًا أن يتجاهل استينو تقريرًا من هذه النوعية، لكنه كلَّف بدراسة معدلات استهلاك المصريين وتحديدًا الأطفال، واتضح أنه في حدود اثني عشر جرامًا. كان تعويض الفرق يحتاج إلى ميزانية ضخمة، فبدأ البحث

عن بدائل تضمن مستقبل الأطفال وسلامة نموهم. بدأت الدراسات على يد الدكتور ممدوح حنفي أستاذ طب الأطفال والدكتور يحيى صديق أستاذ الكيمياء الحيوية، حتى تم العثور على تركيبة عبارة عن فول سوداني وحمص وسمسم بنسبة 2:2:1، رخيصة، مقبولة الطعم، ذات قيمة غذائية عالية. جرَّبتها كلية طب الإسكندرية لفترة طويلة على عدد كبير من الأطفال (29 طفلًا في متوسط عُمر الخامسة)، وكانت نتيجة تغذيتهم بمكونات الفطيرة على مدار أربعة أشهر: زيادة في الطول بمتوسط 16 ملليمتر، وزيادة 61 جرامًا عن كل كيلو جرام من وزن الطفل. وتمت ترجمة المجهود في «السوبرامين» إنتاج شركة النيل للأدوية؛ غذاء متكامل للأطفال والرُّضع، حل مشاكل تدبير احتياجاتهم اليومية من البروتين، بسعر رخيص للعبوة عشرة قروش، مسحوق في علبة بلاستيكية بغطاء مبرشم سهل التحضير برائحة أقرب إلى رائحة البسكويت.

ثم كان التجلي المهني الأكبر عندما استدعاه عبد الناصر بعد عودته من يوغسلافيا، سلَّمه نوتة صغيرة، قال له: «دوَّنت فيها ملاحظاتي عن نظام الجمعيات التعاونية لتوزيع السلع التموينية والاستهلاكية في يوغسلافيا، عجبتني الفكرة وأريد أن أنفذها في مصر». أعاد استينو صياغة المشروع بما يتلاءم مع ظروف وشكل الحياة في مصر، ثم

عرضه عليه من جديد، شارحًا تعديلاته التي أقنعت عبد الناصر، فطلب منه أن ينفذه كما يتراءى له، لتبدأ على يد استينو مرحلة إنشاء الجمعيات التعاونية، التي وجد أن الضامن الأكبر لاستمرارها بنجاح هو العمل بنظام البطاقات التموينية التي تكفل لكل فرد في الأسرة مستحقاته اللازمة لحياة مستقرة، بدايةً من مواد التموين، نهاية بالملابس والأقمشة الشعبية، مرورًا بالياميش الذي استورده في أحد الأعوام بمبلغ يقترب من مليون جنيه، فهاجمه البعض قائلًا إنها رفاهية، فقال: «مليون جنيه ياميش ليست رفاهية بالنسبة لشعب يشرب شاي بـ12 مليون جنيه سنويًّا».

كان يحارب بجرأة وثقة للانتصار حتى يقف مشروعه على قدميه ويصبح قادرًا على مواجهة أي ظروف طارئة. عندما علم بنقص السكر والأرز في الجمعيات أمر بنقل كميات من المضارب والمخازن إلى الجمعيات رأسًا، واستعمال سيارات القطاع الخاص. واستطاع أن يُغرق السوق بهاتين السلعتين في مدى يومين فقط. تكرّر الأمر أكثر من مرّة عندما كان يلاحظ في تفتيشه المستمر على الجمعيات تأخُّر وصول الخضر أو الفاكهة أو الأسماك أو اللحوم بسبب قصور ما في عملية النقل، فيقوم على مسؤوليته الخاصة باستئجار لوريات القطاع الخاص لسد العجز. كان يقول: «إن الجمعية الاستهلاكية أخطر من الصيدلية، ويجب أن تفتح أبوابها

السادسة صباحًا حتى الساعة الثانية عشرة مساءً بدون عطلات أسبوعية».

تحمَّل استينو عقبات تكسير الروتين بصلابة نادرة. وقف أمام قاضي محكمة قصر النيل لمدة ساعتين ونصف ليدلي بشهادته في قضية متهم فيها اثنان من الموظفين وُجِّهت إليهما تهمة التسبب في خسائر بسبب خطأ في تشوين القمح. دافع استينو عن المتهمَين، وقرر أنهما غير مسؤولَين، فقد نفذا تعليماته بمنتهى الدقة، وأنه كان صاحب القرار الذي ترتبت عليه هذه الخسائر.

حافظت الجمعيات التعاونية وبطاقات التموين على استقرار تمويني نسبي حتى بعد رحيله عن الوزارة. كانت نقطة نظام وفر لها استينو أساسات عمل تضمن تدفق البضاعة والمستلزمات دون عوائق، مع خطط بديلة تعوِّض أي نقص مفاجئ، ورقابة صارمة وعقوبات غليظة على العاملين فيها، في خطوة استباقية لأي فساد محتمل، وإجراءات تسجيل للمواليد والوفيات تضمن نقاء البطاقات التموينية، وجلسات عمل للوصول إلى السن المناسبة التي يبدأ فيها تسجيل الطفل بوصفه مواطنًا له احتياجات لا بد أن توفرها البطاقة. كان استينو يقفز فوق أي تعقيدات حكومية، ويبحث عن حلول سريعة، حتى أصبحت بطاقة

التموين واحدة من أهم الوثائق التي تمتلكها أي أسرة مصرية.

(5)

تولى استينو بعد تركه الوزارة مسؤولية الإشراف على المركز القومي لبحوث الزراعة، وكان أول رئيس له. حصل على جائزة الدولة التقديرية في عام 1974، ثم حصل على قلادة الجمهورية. تُوفِّي في ديسمبر 1986، وشُيعت جنازته عسكريًّا من مطرانية الأقباط بالجيزة.

بهية عثمان
صنايعية التدبير المنزلي

عندما كنت أفتش عن سيرة نظيرة نيقولا (أبلة نظيرة) للكتابة عنها في الجزء الأول من «صنايعية مصر» عثرت على نسخة من الموسوعة الأشهر في تاريخ المطبخ المصري: «أصول الطهي»، وإلى جوار اسم أبلة نظيرة كمؤلفة للموسوعة، كان هناك اسم آخر شاركها العمل: بهية عثمان.

كانت المعلومات المتاحة عن كلتيهما صعبة، لكن جماهيرية أبلة نظيرة سمحت بتوفر قدرٍ من المعلومات يكفي للكتابة عنها. ظلت بهية عثمان لغزًا بالنسبة لي، ولا معلومة عنها سوى أنها مفتش وزارة التعليم خريجة كلية بريدج هاوس بإنجلترا، وأنها كانت تقدّم باب وصفات الطعام أسبوعيًا في مجلة «حواء». فتشت كثيرًا عن المزيد لكن يبدو أن بهية عثمان قد اتخذت موقفًا من الأضواء التي سحبتها أبلة نظيرة كاملة في حياتيهما، فخبأت سيرتها حتى بعد رحيلها.

ثم تذكرت باب تقديم الوصفات الأسبوعي الناجح في مجلة «حواء»، والذي كان تقليدًا جديدًا يُنسب إليها الفضل في تدشينه بعد كلام وزير التموين عن وصفات رائدات التدبير المنزلي، وتذكرت أيضًا الفشل في العثور على أي

معلومة عنها.

صديقي بائع المجلات القديمة بسور الأزبكية يهاتفني معلنًا عن وصول بضاعة جديدة. أقف في الكشك الصغير أعاين ما وصله حديثًا، بدأت بمجلد كبير لمجلة «حواء» يضم أعداد عام 1959 كاملة، 52 عددًا في متوسط 50 صفحة. ولأن «اللُّقا نصيب» فتحت المجلد عشوائيًّا أول ما فتحته، فوجدت بهية عثمان تنتظرني هناك على صفحتين في حوار قصير معها وصور لها في المطبخ.

سمحت لي حضرة المفتشة هذه المرَّة بالقليل من المعلومات التي قد تساعدنا أن «نأخذ فكرة» عن شريكة في تعليم وصقل موهبة أمهاتنا وجداتنا في كل ما يتعلق بالمنزل والمطبخ، مؤسِّسة فكرة تقديم وصفات الطعام في الصحافة، وشريكة العمل في الموسوعة الناجحة «أصول الطهي»، وواحدة من مؤسسات أول معهد عالٍ للتدبير المنزلي في مصر.

كانت بهية عثمان التي تجيد طبخ خمسة آلاف صنف من الطعام، خريجة مدرسة السَّنية، سافرت إلى إنجلترا في عام ١٩٣٦، وحصلت على دبلوم في التدبير المنزلي من جامعة لندن، وتدرَّجت في العمل حتى أصبحت مفتش عام المواد النسوية بوزارة التعليم، بعدها قررت أن تستقيل في عام

١٩٥٤ لتتفرغ لتقديم ما تعلمته بشكل حر بعيدًا عن قيود الوظيفة.

في مراحل التعليم الأولى كانت البداية غير مبشرة، حيث جعلتها ميس سايم؛ مُدرِّسة التدبير المنزلي الإنجليزية، تكره المطبخ. لم تحب بهية عثمان طبيخ الإنجليز، ثم كانت الضربة القاضية التي جعلتها تهرب من الحصة إلى الأبد، عندما قدَّمت ميس سايم درسًا عمليًا في صناعة مربى الجوافة، ووضعت الجوافة ببذرها على النار، وكان الناتج - حسب وصف بهية عثمان - أقرب إلى مخلفات معدة مريض.

سافرت إلى إنجلترا لتدرس العلوم، تأخرت عن موعد التقديم، فبحثت عن قسم آخر لتلتحق به، لم تجد غير قسم التدبير. بعد أسابيع وقعت في غرامه، خاصة مادة الطهي التي درستها إلى جانب ١٣ علمًا من علوم التدبير المنزلي، ومنها: «غسيل، كي، إدارة منزل، صحة، إسعاف وتمريض، تربية الطفل، تفصيل وخياطة، تطريز، علم النفس». وعادت إلى مصر عام ١٩٣٩، وشاركت في تأسيس المعهد العالي للتدبير المنزلي في جاردن سيتي مع نظيرة نيقولا وعائشة إقبال وتفيدة عبد النور وإقبال حجازي.

سافرت بهية إلى لندن وهي تجهل تمامًا كيف تقشِّر بصلة. كان والدها يرفض أن يسمح لها ولأخواتها من البنات بدخول

المطبخ. يقول لزوجته: «ما تبوظيش إيدين البنات في الكلام الفاضي بتاع المطبخ». وعند عودتها من إنجلترا كانت الأسرة هي حقل الاختبار الأول. طبخت لهم شوربة عدس على الطريقة الإفرنجية التي تطبخ العدس مع البطاطس والجزر والبصل، وأشاد الجميع بما تذوقوه.

ألَّفت بهية عثمان عدة كتب، على رأسها موسوعة «أصول الطهي» مع أبلة نظيرة، وكتب في إدارة المنزل، بخلاف سلسلة كتاب حواء «أطباق جديدة» الذي كانت تجمع فيه الوصفات التي تقوم بنشرها أسبوعيًّا.

كانت بهية عثمان في رحلة بحث مستمرة عن الأطباق الجديدة، تتابع مجلات الطبخ العالمية: «جوود هاوس كيبنج»، «هوم أند جاردنينج»، «مانوفاتو الإيطالية». بخلاف سفرياتها الكثيرة إلى الخارج والتي تتجول فيها بين المطاعم ومحلات الحلوى وما تيسر زيارته من المطابخ، ومن الأطباق الأوروبية والأمريكية تختار ما يقترب من ذوقنا الشرقي وتقوم بتعريب طريقة صنعه.

تدافع عن نفسها قائلة إنها لا تبتكر أطباقًا جديدة بلا هدف، هي مشغولة بإنقاذ أكباد الشرقيين وأمعائهم من الدسم الذي يُغرق مطبخهم. كانت لديها خطة عمل تقوم على مقاومة سطوة المسبِّك والدقاقي (جمع دقية)، ونقل ست البيت

المصرية من طبخ الأطباق المعقدة المكلِّفة ماديًا إلى طبخ الأطباق البسيطة الشهية التي لا تضر المعدة ولا الجيب.

مطبخها بسيط: «بوتاجاز، فريجيدير، مطبقية، دولاب صاج للأطباق وأدوات المطبخ، دولاب لأدوات النظافة، ترابيزة، ثلاثة كراسي». نادرًا ما تستخدم السمن الهولندي، وإذا استخدمته في التحمير يكون مخلوطًا بالسمن البلدي. ولا ترفع سماعة التلفون لتطلب أكلًا من أحد المطاعم إلا الكباب. تدخل المطبخ مرتين تطهو فيهما أكل الأسبوع كله، وتحتفظ به في الفريجيدير. تحاول عند إعداد المائدة أن تتخلص من عيب ست البيت المصرية الشائع: كثرة الأصناف، وعدم ملاءمة الأصناف لبعضها، وعدم تجديدها في طريقة العرض.

تنصح سيدة البيت قائلةً: «المظهر الحلو في عين الزوج له طعم الطبق الشهي في فمه». كانت توصيها في مقابلاتها النادرة بالحرص على أن تكون جميلة، وألا تدع بهدلة المطبخ ورائحة الطعام تفسد مظهرها. واعترفت أنها فتشت كثيرًا عما يمكنه إزالة رائحة البصل والثوم وخلطة المحاشي من يديها، حتى عثرت عليه في وصفة بسيطة، قالت: «ضعي في يدكِ نصف ملعقة بُن مطحون، وافركي يديكِ جيدًا، ثم اشطفيهما بالماء والصابون، تزول الرائحة تمامًا».

«ما الذي يحتاج إليه إعداد طبق شهي ومُرضٍ؟»، يسألها

الصحفي. تقول بهية: «الطبخ يحتاج إلى عناية، وترتيب أفكار، وحرارة مناسبة لكل صنف، وقدرٍ من المعرفة. قد يحدث أن تستخدم سيدتان نفس المقادير وخطوات الطهي، لكن تختلف النتيجة، ذلك لأن كل واحدة لها نَفَس». يسألها: «وما هو النَّفَس؟». تقول: «الإتقان، والحب، والعناية بأدق التفاصيل».

معرض صور
الفصل الثاني عشر



كمال رمزي استينو في إحدى حملاته اليومية للتفتيش على الخبز ومنافذ التموين



استينو مع عائلته الصغيرة

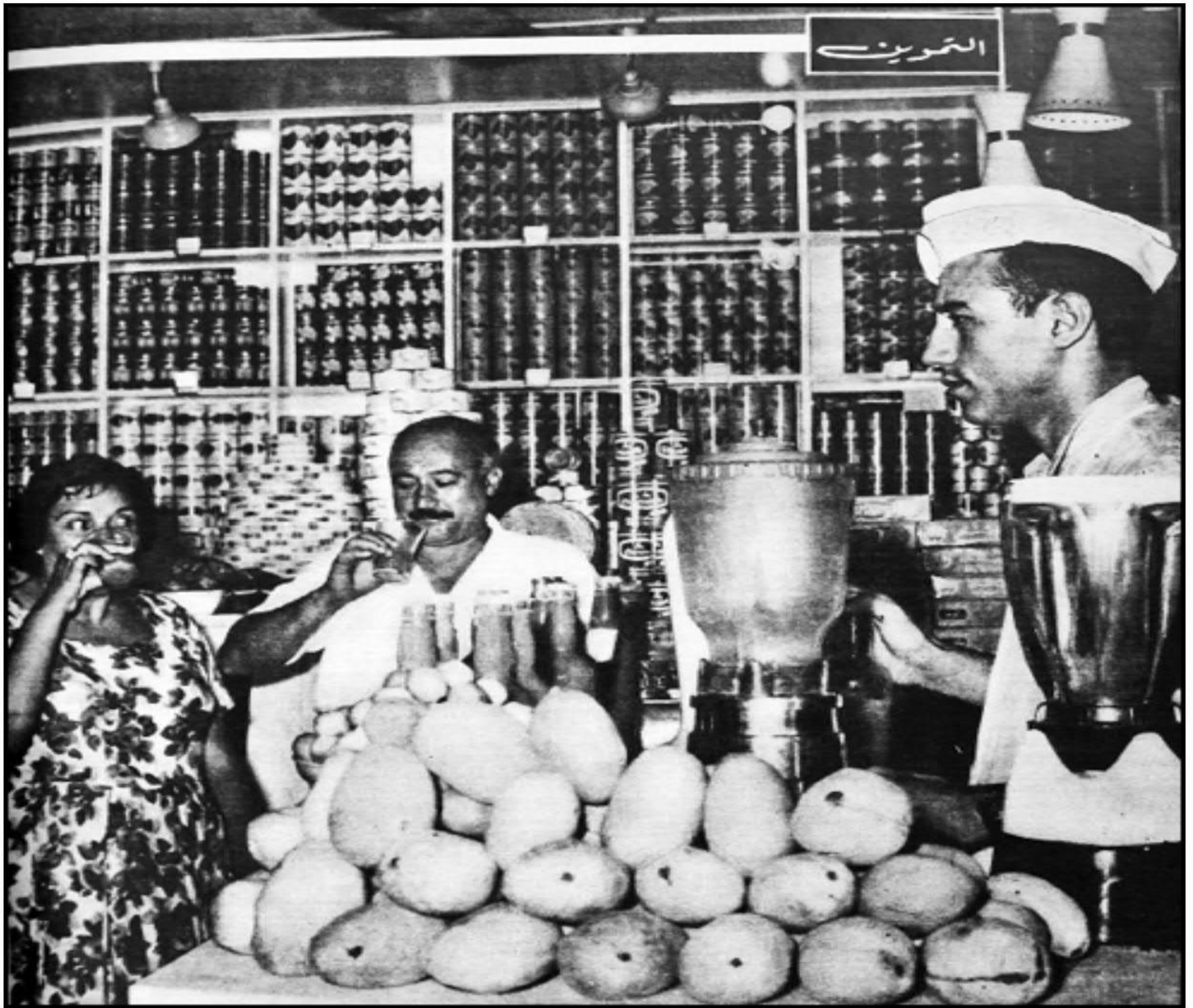
استينو يفاجئ المجمعات والأسواق بزيارة ويستمع الى شكاوى الجمهور
قرارات بتعميم صرف الأرز والزيت والسكر والصابون لجميع التجار

لم يتوقف استينو يومًا عن التفتيش والمراقبة والتدقيق في الطريقة التي يجري بها العمل

بدأ مجلس الأمة في مناقشة مشاكل التموين والأسعار

كمال رمزي استينو يفتتح المناقشة الكبيرة ببيان تفصيلي عن تطورات المشكلة خلال السنوات الثلاث الأخيرة
صورة مذهلة أمام المجلس عن زيادة الاستهلاك المتواصلة وآثارها الخطيرة
٣١ مليون جنيه هذا العام لتثبيت سعر الرغيف - ٧٠٪ زيادة في استهلاك الشاي و ٩٨٪ زيادة في البوتاجاز - في ٣ سنوات

تغطية للتقرير الذي كان يقدِّمه استينو بنفسه إلى مجلس الأمة بشكل دوري



بدأت المجمعات الاستهلاكية والجمعيات التموينية

بصيغة لا تخلو من الترفيه، وبيع العصائر المثلجة والحلويات للجمهور



صورة من الحملة الإعلانية المصاحبة لبداية عمل المجمعات الاستهلاكية والجمعيات

الحبس عامين لمن يرتكب مخالفة تموينية بالمجمعات الاستهلاكية
المؤسسة التعاونية توزع السلع على تجار التجزئة وتحرم مخالفي التسعيرة

تشديد الرقابة على موظفي المجمعات الاستهلاكية بشكل صارم يحمي مصالح الناس

وفـــاة كمـــال رمـــزى اســـتينو

توفى فى لندن امس الدكتور كمال رمزى استينو عن ٧٥ عاما . وكان قد تخرج فى كلية الزراعة عام ١٩٣٣ وعين معيدا بها ، واوفد فى بعثة الى امريكا حيث حصل على الدكتوراه وتدرج حتى وصل الى درجة الاستاذية عام ١٩٥٤ ، وبعد سنتين اختير وزيرا للتموين وفى ١٩٦٤ عين نائبا لرئيس الوزراء للتموين . ثم عضوا باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى عام ٦٨ ثم انتخب عضوا بمجلس الامة عام ١٩٦٩ .

والدكتور استينو حاصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٤ ، وكان عضوا بمجلس اكاديمية البحث العلمى والمجلس القومى للانتاج ومديرا لمنظمة الزراعة العربية . وهو حاصل على قلادة الجمهورية ، ولذا ستشيع جنازته عسكريا من مطرانية الاقباط بالجيزة .

خبر وفاة صنايعي المجمعات وبطاقة التموين



تعامل استينو مع مسؤولياته كرَب أسرة قبل أن يكون وزير تموين

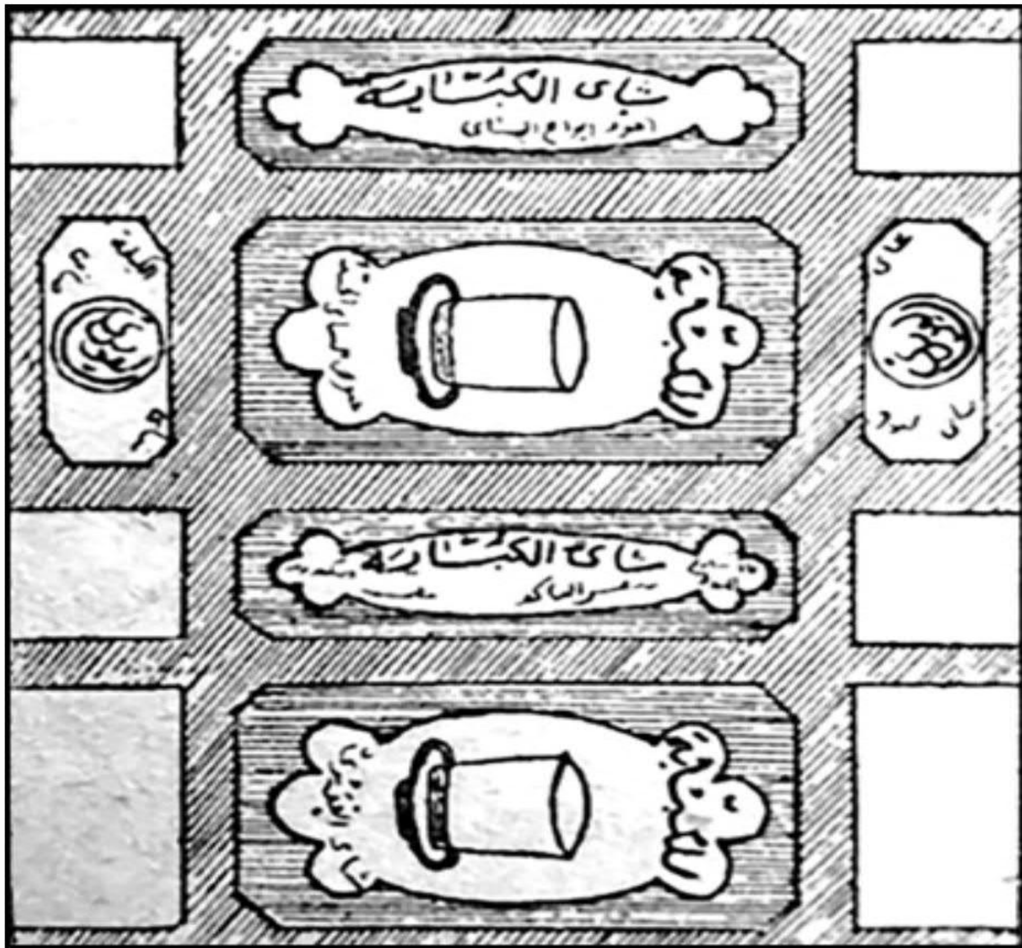


مجمع استهلاكى تعاونى بكل حديقة عامة فى القاهرة

خطة استينو لأماكن وجود المجمعات الاستهلاكية في كل مكان ممكن



جاء ذكر معدلات استهلاك المصريين العالية للشاي أكثر من مرَّة في تصريحات استينو. ومن كتاب دليل العلامات التجارية في الخمسينيات بعض أمثلة أنواع الشاي الكثيرة التي كانت تحاول تلبية احتياجات السوق الضخمة (شاي المقياس)



شاي الكُباية



شاي سبع البحر



شاي الشريف


شاى الشبّاك
شاى اندوسيلان ناعم
أنه صافى
تعبئة القويرى
بالإسكندرية

شاي الشبَّاك



بهية عثمان رائدة التدبير المنزلي في مطبخها



قالت بهية عثمان إنها لا ترفع سماعة التلفون لتطلب أكلًا من أحد المطاعم إلا الكباب



غلاف موسوعة «أصول الطهي» التي شاركت بهية

عثمان في تأليفها مع أبلة نظيرة نيقولا

الفصل الثالث عشر

سيدات السويس
صنايعية انتصارات الخطوط الخلفية

(1)

ظهيرة يوم شتوي في منتصف الثمانينيات، توقفت أمام محل الحاجة كريمة يس بمنطقة الأربعين سيارة «مرسيدس»، نزل منها رجل وامرأة تحمل علبة شوكولاتة وطفلان يحملان باقتَي ورد، وقفوا جميعًا أمام باب محلها الصغير، قدّمت المرأة والأطفال لها هداياهم، شكرتهم لكنها كانت تنتظر أن تفهم هوية ضيوفها وسبب كرمهم الرقيق. سألها الرجل إن كانت تتذكره، فاعتذرت بخجل. بدأ الإحباط يتسلل إلى ملامح الطفلين والزوجة، بينما كريمة تسابق الوقت لتتذكر أي شيء قبل أن تُفسد على ضيوفها لحظةً كان واضحًا أنهم خططوا لها جيدًا.

(2)

«هذه ساعات نعرف فيها أنفسنا».

كانت كلمات السادات ترج مجلس الشعب في نهاية أكتوبر 1973، رئيس الجمهورية يلقي خطاب النصر، الأعناق تراصت في أطوال غير مسبوقة، التصفيق يسبق نهايات الجُمل. لمعت عينا الرئيس وهو يتحدث عن معجزة الست

ساعات، واحتلت حنجرته نبرة الفلاح الساخر وهو يتساءل عن أسطورة الجيش الذي لا يُقهر. دخل أحدهم إلى الجلسة ووضع أمام الرئيس ورقة صغيرة تخبره أن جيش العدو وجد ثغرة عبر منها إلى شاطئ القناة الغربي، وأنه الآن على مشارف احتلال السويس.

الثغرة أمل العدو الأخير في أن يستعيد كرامته ورونق أساطيره. احتلال السويس يفسد على المصريين انتصار أكتوبر ويجعله كأنه لم يحدث. بدخول المدينة ستصبح القوات المصرية الموجودة في سيناء محاصرة بين قوسين، واحد في سيناء والآخر على الضفة الغربية. لم تكن هناك أي اختيارات سوى النجاح في هذه المهمة.

بدأ طيران العدو بقصف مواسير وخزانات الماء الرئيسية في المدينة.

المحافظ محمد بدوي الخولي ضابط قوات مسلحة سابق اجتمع بمسؤولي المدينة، وطالب بحصر كميات المياه الموجودة فيها في كل مكان، وكان أول قرار قطع الماء طوال اليوم ما عدا ساعتين من 9 إلى 11 صباحًا. انطلقت مكبرات الصوت فوق السيارات تجوب المدينة وتبلغ الأهالي بالقرار.

ازدحم مستشفى السويس بالمصابين من المدنيين والجنود

على الضفة الشرقية. الإمكانيات وفي مقدمتها الماء محدودة. مدير المستشفى بعد اكتشافه أن العدو يضرب عربات الإسعاف التي تحمل الجرحى إلى القاهرة يقرر «لا إخلاء» للجرحى. تبدأ حملة لتفريغ غرف الموظفين والمخازن وقاعة الاجتماعات وكل مكان في المستشفى يصلح لتحويله إلى عنابر للعلاج، لكن تبقى مشكلة تصريف مخلفات المصابين والجرحى بعد انقطاع الماء، مع توقع انفجار مواسير مجاري المستشفى خلال يومين بما يعني انتشار الأوبئة خارج المستشفى والغرغرينا بداخلها. يقترح أحدهم نزح المخلفات بعيدًا بالجرادل. ورديات من الأطفال والنساء تتبادل تنفيذ المهمة.

خطة أهل المدينة والفدائيين عمل كمائن على المداخل. كان هناك أكثر من مشكلة: المشكلة الأولى التواصل مع القاهرة بعد أن قُصفت كل محطات الاتصال. المشكلة الثانية السلاح الذي سيواجهون به دبابات العدو وهم لا يمتلكون إلا رشاشات وطبنجات. يقرر مدير الأمن اللواء محيي الدين خفاجة حصر أسلحة الشرطة الموجودة في المدينة، وتوزيع أسلحة الشرطة والذخيرة على الناس. بحثًا عن المزيد من السلاح يتذكر أحدهم أن العساكر المصابين كانوا يسلمون أسلحتهم لمخزن المستشفى فور الوصول. أمين مخزن المستشفى يضع شرطًا لتسليم عهدته: «تاخدوني معاكم».

في المخزن لم يكن هناك ما يصلح للمهمة الثقيلة سوى عدد 2 مدفع «آر بي جيه»، و3 طلقات فقط.

حل مشكلة التواصل كان موجودًا في وحدة لاسلكي النجدة. المشكلة أنها على أطراف المدينة، بما يعني أنها ستكون أول نقطة يمر بها العدو. قرر قائد الوحدة أنهم سيغلقون الأبواب عليهم بما يوحي أن المبنى مهجور، لن يخرج أحد من المبنى، 16 شخصًا سيعيشون إلى ما شاء الله على 2 كيلو بلح و7 أرغفة و3 صفائح ماء، مع وقود قليل لتشغيل الأجهزة. ستكون الخطة أنهم سيتصلون بالقاهرة كل فترة ثم يطفئون الأجهزة.

بدأ الأهالي في صناعة المتاريس على مداخل المدينة، وصدرت الأوامر بالتوجه إلى الخنادق والبقاء فيها حتى صدور أوامر جديدة.

لم يتوقف القصف، ثم صدر قرار وقف إطلاق النار بداية من صباح يوم 24 أكتوبر. أدرك أهل السويس مع المدة الباقية على بدء تنفيذ القرار أن العدو لن يضيع فرصة حتى يدخل المدينة قبل الموعد المحدد.

بدء القصف الجوي، ولم يترك العدو نقطة دون قصفها ما عدا المداخل الرئيسية للمدينة. بعدها بقليل دخلت مدرعات تحمل أعلام المغرب والجزائر للتمويه. جنود العدو يلتقطون

صورًا تذكارية في المدينة، ويقفون أمام مبنى المحافظة يتسلون بقصفه وهم يغنون: «آلو آلو إحنا هنا». يقرر المحافظ أن يترك المبنى هو ومساعدوه لأن القبض عليه سيكون انتصارًا سياسيًا مذلًّا وسيُضعف المقاومة. يتسلل من مبنى المحافظة بملابس مدنية حتى يصل إلى محل بقالة الحاج مصطفى، حيث جهاز التلفون الوحيد الذي يعمل، ليصبح محل الحاج مصطفى بعدها مركز قيادة العمليات.

بدأ الفدائيون الهجوم في العاشرة صباحًا بأسلحة خفيفة ومدفعي «الآر بي جيه» وثلاث طلقات، أخطأت الأولى والثانية دبابة تتقدم شريطًا من دبابات العدو الضخمة، بينما نجحت الثالثة في هدفها فتوقف طابور الدبابات. ظل السوايسة يطلقون النار بطريقة جعلت جنود العدو يفرون ليحتموا بأقرب مبنى، وكان بالصدفة قسم شرطة الأربعين. في الطريق إلى مبنى القسم وقف السوايسة يصطادون الجنود الفارين بالرصاص الخفيف والقنابل اليدوية. وأصاب الذعر موجة الدبابات الثانية التي حطمت كل ما تقابله في أثناء محاولتها للدوران والهروب. سهر الفدائيون يحاصرون جنود العدو المحبوسين داخل مبنى القسم، في الوقت نفسه قام البعض بحرق مدرعات ودبابات العدو حتى لا يعيدوا استخدامها في الهجوم من جديد. في هذه الأوقات تسلل جنود العدو هاربين من الحصار وخرجوا من المدينة

مختبئين بالظلام.

مع بدايات الصباح، وبعد الفشل في اقتحام السويس، اقتحم العدو مبنى شركة بترول يختبئ به بعض الموظفين، وطلب من أحدهم أن يتصل بصاحب القرار في المدينة. رد المحافظ، فأخبره قائد جيش العدو بأن أمام أهل المدينة مهلة ساعة ليغادروا المدينة في طوابير ويتجهوا إلى مبنى الاستاد حرصًا على سلامتهم، لأنه لم يعد لديهم طعام أو ماء، بخلاف أن الطيران سيقوم بقصف المدينة بعد انتهاء هذه المهلة مباشرة. اتصل المحافظ بمسؤول وحدة لاسلكي النجدة ليخطر القاهرة بما يحدث. كانت الرسالة:

«السويس بلا كهرباء، بلا ماء، ومخازن الدقيق تحترق. الوضع مأساوي، والعدو يطلب التسليم خلال ساعة. ما هي توجيهاتكم؟».

بعد نصف ساعة وصل الرد من القاهرة بتوقيع السادات شخصيًّا:

«لا تسليم. المقاومة حتى آخر فرد. الله معكم».

طلب المحافظ من موظف اللاسلكي أن يبلغ القاهرة الرد:

«مستمرون في المقاومة».

(3)

طريق السويس 2021.

في الطريق لمقابلة الحاجة كريمة يس تذكرت زيارتي الأولى للمدينة قبل عشر سنوات في ضيافة المؤرخ حسين العشي الذي حكى لي يوميات الحصار على أرض الطبيعة، توقفنا عند النقاط التي دارت فوقها المعارك، شربنا الشاي في مكتب الشيخ حافظ سلامة، والقهوة في محل الكابتن غزالي، سمعت الحكايات وحفظت أسماء الأبطال، لكنني هذه المرة كنت مشغولًا بفكرة أخرى: لماذا توقفت كل الكتب والمقالات والوثائقيات والتكريمات عند الدور العظيم الذي قدَّمه رجال السويس في أثناء الحصار؟ أين النساء من هذه الملحمة؟

في مدينة بلا ماء أو كهرباء أو تموين كانت سيدات السويس الأرض الصلبة التي احتاج إليها المقاتلون للوقوف عليها في مواجهة الحصار.

تجلس كريمة يس داخل محلها الصغير الذي تبيع فيه خليط الأدوات المكتبية والحلوى والمثلجات. قدمت لها نفسي، وعرضت عليها السؤال الذي يشغلني، قلت لها قليلة هي الحكايات عن دور النساء في حصار الـ100 يوم.

انتفضت مكانها غاضبة، قالت: «101 يوم، اليوم الذي يسقطه الجميع بسهولة هو عُمر لوحده». اعتذرت، فضحكت. طلبت لي القهوة من محل مجاور، نظرت إلى ساعتها ثم سحبت كيس الأدوية، تناولت المقرر لها، وبينما تعيد كل شيء إلى مكانه اختارت أن تبدأ بثلاث كلمات: «إحنا ربنا نجّانا».

(4)

السويس 1973.

مساء ٢٤ أكتوبر كان هناك شخص يجري داخل المدينة يجمع الأهالي لنجدة مخزن الدقيق الذي طاله قصف العدو، تقول الحاجة كريمة: «جرينا كلنا على هناك». اجتمع أهالي المدينة وبدأوا في إنقاذ الدقيق، بالأطباق والأكواب وأواني الطبخ وبالحلل والكوبايات وعِب الجلاليب، في منافسة غير متكافئة مع نار مستعرة التهمت أكثر من نصف الموجود في المخزن، ضاع 2000 شوال، وأنقذوا حوالي 1400 شوال من المفترض أن يأكل منها عشرون ألف شخص في السويس أطول فترة ممكنة.

قبل أن يفيقوا من بشائر المجاعة التي تهدد المدينة ذاع الخبر أن مخزن السلع الغذائية أيضًا تعرض للقصف وحرق ما يقرب من 22 طن شكر و26 طن أرز، وكانت المحلات القليلة

في المدينة قد نفدت بها كل الخضراوات والفاكهة.

مدير التموين شاب من طنطا اسمه علاء الخولي، لم يهتز، قام بحصر المتوفر في المخازن والجمعيات الاستهلاكية، وقرر أن يصرف على مسؤوليته الشخصية لكل من في المدينة دفعة مجانًا. حاول المحافظ أن يكون الصرف للعاملين والموظفين في الشركات والهيئات فقط لتسوية حسابات هذه المواد مع جهات العمل فيما بعد، لكن الخولي استبسل في الدفاع عن حق أي شخص داخل الحصار في الحصول على الطعام. وبعد حصر الكميات والسكان اكتشف أنه يستطيع أن يصرف لكل فرد علبة خضار وعلبة سردين وعلبة أسماك محفوظة ونصف كيلو سُكر وكيلو شاي، على أن يتم استهلاك هذه الكمية في خمسة عشر يومًا.

تقول الحاجة كريمة: «كنا في عز صيام رمضان، ولم نكن مشغولين بالطعام قدر انشغالنا بالعدو، فمر أول يومين ببواقي الخزين المنزلي حتى بدأ توزيع التموين».

تم نقل المواد التموينية من المخازن إلى أماكن التوزيع في خندق موافي ونادي بور سعيد البحري ومقر الدفاع المدني. كانت المشكلة الثانية هي نقص السولار اللازم لتشغيل المخابز، إلى أن عثر علاء الخولي على ضالته في سيارة لوري يقودها أحد جنود القوات المسلحة وعليها ٢٨ برميلًا

من الوقود. كان قائد السيارة يفتش عن أحد الضباط ليطلب منه الأمر بشأن الجهة التي سيقوم بتفريغ الحمولة فيها. قال علاء الخولي للجندي: «سنقوم بتوزيع هذه البراميل على المخابز». ومع هبوط مساء هذا اليوم كانت رائحة الخبز تملأ المدينة.

كان مخزون التموين المتبقي في المدينة بعد صرف الدفعة الأولى: ٤٢٨ صندوق لحوم محفوظة، ٩٦٤ صندوق سردين، ٤١٦ صندوق بامية، ٢٧٢ طن سُكر، ٤٩ كيلو شاي. وكان الدقيق المتبقي يكفي لاستهلاك شهر واحد فقط، بشرط تخفيض وزن الرغيف، وصرف رغيف واحد يومي السبت والثلاثاء، وصرف رغيفين بقية أيام الأسبوع لكل فرد في المدينة. المواد التموينية المتبقية تكفي لدفعة واحدة فقط سيتم توزيعها مجانًا بعد خمسة عشر يومًا.

عرف الناس بالأزمة، فقرروا اختراع غموس يليق بالحدث.

تقول كريمة: «اخترعنا ساندويتشات البصل والطرشي والفول السوداني، وعشنا عليها، ولم نسمع شكوى واحدة، حتى لما صغروا الرغيف».

كان مدير التموين قد اكتشف أن الدقيق لن يكفي عشرين يومًا، فاتفق مع المحافظ على قرار سري بتقليل وزن الرغيف، وإنه يوما السبت والثلاثاء لن يكون هناك خبز لأنه

ستكون هناك صيانة للمخابز. اكتشف السوايسة بالصدفة كذبة الخبز البيضاء وقرار المحافظ السري، وتقبلوها ساخرين من نباهة مدير التموين والمحافظ التي انكشفت مبكرًا بدون أي مجهود.

بدأت المفاوضات بين الجيش المصري وقوات العدو. في الوقت نفسه تسللت وحدة جيش إلى المدينة ليلًا، واستعادت الاتصال بالقاهرة. طلب مدير التموين من المحافظ تبليغ القيادة بأن المدينة تنهار، قال المحافظ: «ما أقدرش أقولهم كده وهم بيتفاوضوا مع اليهود دلوقتِ». قرر بعدها أن تكون رسالته للقاهرة قصيرة:

«لا تعتبرونا نقطة ضعف وأنتم في المفاوضات. نحن بخير».

(5)

كانت السويس بخير، بفضل الفدائيين. وكان قلبها يعمل بأقصى كفاءته، بفضل سيداتها اللواتي تفانين في طمأنة الجنود والفدائيين بأن بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم يسيطرون على الوضع في الخطوط الخلفية.

صباح 6 يونيو 1967 تجمَّع نساء المدينة للتطوع في الدفاع المدني للتدريب على الإسعاف والإنقاذ بقيادة أبلة نبيهة. ست سنوات رابطن فيها بين المستشفى والخنادق.

تقول الحاجة كريمة: «كنت أخاف طول الوقت إن خرجت من السويس ما أعرفش أرجعلها تاني!».

صباح 6 أكتوبر 1973 كانت كريمة في آخر أيام الحمل، تقوم بعملها في المستشفى، وتضع خلف الباب حقيبة مستلزمات المولود الذي أوشك وصوله. خرجت بعد انتهاء ورديتها لشراء طعام للإفطار. مرت من فوق المدينة طائرات الضربة الجوية في تمام الثانية ظهرًا، كانت الطائرات غاضبة حتى إنها طيَّرت كريمة هي ومن في السوق من أماكنهم حتى نهاية الشارع.

رغم انتشار خبر العبور لم يتوقف الطيران والقصف حول المدينة. حملت كريمة حقيبة مستلزمات المولود تجري من شارع إلى شارع بعيدًا عن الخطر، حتى وصلت إلى باب المستشفى، بدأت تمرِّض الجرحى وتنظِّم المتبرعين بالدم، حتى حانت لحظة الولادة، فشلت محاولة أن تكون طبيعية. قال الطبيب إلى غرفة العمليات.

بدا المشرط في يد الطبيب وحشًا أسطوريًّا، وهو يقول لكريمة: «مفيش بنج». قالت: «افتح». كانت تغمض عينيها وكلما فتحتهما لثوانٍ رأت أعداد الجنود الذين مرَّضتهم وهي تزيد متراصة على باب غرفة العمليات تتابع الميلاد المشوب بالألم والصرخات. تماسكت وهم يلوحون لها بقبضات

صارمة: «شدي حيلك».

وصل «محمد» سالمًا. تحكي كريمة أنها تركته مع إحدى السيدات وعادت إلى عملها. لم تتوقف حتى بدأ الصديد يظهر حول خيوط الجراحة. قال لها مدير المستشفى: «ستخرجين من السويس مع أول دفعة مصابين». رفضت، وعلّقت في رقبتها زجاجة «السبرتو الأبيض». تتوقف كل فترة لتلتقط أنفاسها وتطهر الجرح.

كانت القيادة النسائية في يد كريمة يس، وأم بيجو، وسامية طلعت، وماجدة طلعت، واليونانية أبوتكيا. وقفت أم بيجو في محل زوجها الحلواني بعد أن حوّلته إلى مطبخ. لم تتوقف طوال الوقت عن طهي الطعام وتقديمه للجميع. كانت الأغلبية لا تمتلك نقودًا كافية ولم يعطلها ذلك، كانت تطهو كل ما يقابلها بمساعدة بقية نساء المدينة وتقدمه مجانًا للجنود.

تقول كريمة إن مسؤولي التموين في المدينة كانوا يوزعون على كل شخص ثمرة بطاطس واحدة أو ثمرة كوسة وأحيانًا ثمرة جزر. وكن يجمعن الحبات القليلة ويذهبن بها إلى مطبخ أم بيجو، بخلاف بعض الدجاج والطيور الأخرى القليلة التي كانت بعض سيدات السويس تربيها فوق سطوح المنازل، وساهمت الباقيات بما تبقى في

البيوت من خزين الأرز والعدس، وتقاسم الجميع المتاح من خزين المش والجبنة القديمة. لم يتوقف المطبخ عند طهي الخضراوات فقط، لكنه بدأ يصنع صواني الكنافة والبسبوسة حتى لا يمر رمضان على المدينة وناسها «سُكيتي».

كان المطبخ مفتوحًا بأم بيجو وعدد قليل يساعدها، وكانت كريمة وبقية الفريق في المستشفى يبذلن مجهودات خرافية في علاج الجرحى، والتبرع بالدم، والنظافة، والتطهير، ومقاومة أي عدوى وبائية، وغسيل الملابس وملاءات الأسرَّة وتعقيمها، وتنظيف زجاجات المحاليل الفارغة، وتوزيع نصيب كل مريض من الماء.

كانت قلة الماء مشكلة، ولاحظن بمرور الوقت ظهور بعض الأمراض الجلدية على المصابين. كان المتاح ماء البحر، لكن ماء البحر لا يتفاعل مع الصابون ولا تنتج عنه الرغوة اللازمة للتنظيف. فلجأن إلى حيلة قديمة كانت الأمهات تستخدمها في أوقات الأزمات: أحضرن ماء البحر، وقمن بوضعه في أواني ألمنيوم كبيرة فوق النار، وغطينها بخيمة من المشمع البلاستيك، كان بخار الماء المغلي يصعد إلى سقف الخيمة ثم يتخذ مسارًا إلى أوانٍ أخرى بعد أن يكون قد فقد الكثير من ملوحته. نجحت الخطة، وعندما تم تحويل غرف المستشفى ومخازنه إلى عنابر للجرحى حملت سيدات

السويس من منازلهن إلى المستشفى كل ما يلزم العنابر الجديدة من ملاءات ووسائد وأغطية.

لم تكن كريمة الوحيدة التي تتحرك في هذه الأجواء وفي عهدتها مولود جديد. الممرضة سامية أبو الفتوح كانت تعمل عشرين ساعة ومعها طفلها محمد (11 شهرًا). أما الممرضة نورا خليفة فقد رُزقت بإيناس يوم 17 أكتوبر.

تقول كريمة: «كنا في عز البرد نُقوِّت أجسادنا بقليل من الماء والخبز وأي غموس، ومع ذلك لم نشعر بالبرد أو الجوع، كانت لدينا مهمة واضحة: أن تظل المدينة واقفة على رجليها».

أقول لها: «معجزة».

تنزعج من الوصف وترفضه: «لم تكن معجزات، كان واقعًا رأيته بعيني. كان بئر المهدني على أطراف المدينة مهجورًا، نلقي بداخله قليلًا من السكر فيفيض ماء كأنه شهد أبيض، وعندما شاع الخبر طمع المسؤولون في ماء البئر، فتوجهوا إليه بعربة مطافي لنزح الماء، وما إن وضعوا الخراطيم حتى اشتعلت العربة وأكلتها النار في ثوانٍ. كنا نجمع بواقي الخبز الملقى فوق السطوح، ننفض عنه الفطر الأخضر ونغسله ونتركه لدقائق، فيرجع بعدها كأنه «لسه خارج من الفرن». اختبأ بعض الفلاحين الذين كانوا على أطراف المدينة من

العدو في مكان ما، ثم دخلوا إلى المدينة، فهمنا أنهم قضوا هذه الفترة يشربون من بركة ماء ولا يعرفون أنها بركة صرف صحي، لم يشعروا بذلك، ولم نرَ شخصًا واحدًا منهم سقط مريضًا. هيام طفلة جارتنا كانت تتعامل مع ساندويتشات البصل بشهية كانت تدهشنا، وكانت ترفض مبادلتها بأي لقمة من طعام آخر. السوايسة كان ربنا محلِّي اللقمة في بوقهم».

سألتها إن كانت هناك نساء في المدينة حملن سلاحًا، قالت: «عدد قليل، لكننا بالأساس كنا نحارب لكي تظل البيوت مفتوحة، لم نفوِّت أي مناسبة دون أن نحتفل بها مثل أي سيدة مصرية».

بعد أيام من الحصار عاد العدو لقصف المدينة، وكرر المطالبة بالاستسلام، وتوجُّه كل سكان المدينة إلى الاستاد. صعد الشيخ حافظ سلامة؛ الأب الروحي للفدائيين، إلى منبر مسجده، وقال: «إن العدو عرف أننا لن نستسلم فقرر أن يضربنا، ونحن عرفنا أن اليوم هو آخر رمضان وغدًا أول أيام العيد. الله أكبر الله أكبر». غطى المدينة صوت تكبيرات العيد يرددها الجميع ممزوجة بصوت القصف.

جرت كريمة وبقية السيدات يجمعن الدقيق أو ما تبقى من آثاره في كل بيت، بدأت جلسات إعداد كحك وبسكويت

العيد، العجن والنقش وإعداد الصواني والتحرك بها باتجاه فرن عم فؤاد، ومن لا تحمل صواني الكحك كانت تجمع الخشب من بين الحطام، وتغذي به الفرن لتظل ناره مشتعلة حتى نهاية المهمة. جمعن تلقيمات الشاي المتاحة كلها، وأعددنه في الحلل الكبيرة، خرج الناس من صلاة العيد فوجدوا صواني الكحك والبسكويت وحلل الشاي في انتظارهم. وليكتمل الطقس كان الشيخ حافظ قد طلب منهم أن يؤدوا زكاة الفطر لصندوق الجامع. عاشت المدينة بهجة العيد الصغير كاملة.

وفي العيد الكبير، وبعد العثور على بعض الماشية المملوكة لأحد تجار اللحوم في المدينة نسيها في حظيرة المجزر الآلي، قرر مدير التموين ذبح الماشية وتوزيع لحومها على الناس. تولى الشيخ حافظ مسألة الذبح. وكان المطبخ الوحيد الذي يتسع لمهمة طهي هذه اللحوم هو مطبخ المستشفى. وقفت السيدات يسوين اللحوم ويتفنن في تحويج الشوربة، حيث لا طعام آخر غير قطع اللحم في بلد لا توجد به ملعقة أرز أو خضار. صدرت أوامر المحافظ بأن يتم توزيع اللحوم على أساس كيلو واحد «بعظامه» لكل ستة أفراد. تقول كريمة: «وأكلنا وشربنا كما لم نفعل في أي عيد كبير من قبل».

سألتها، وكنت لا أقصد سوى قليل من السخرية تلطف الأجواء: «وعملتِ سبوع لمحمد؟». قالت: «سبوع حضرته السويس كلها، ولم أترك أحدًا دون أن يأخذ كيس السبوع».

أدهشتني تفصيلة كيس السبوع في الظروف التي تمر بها المدينة. قالت: «توجهنا إلى حديقة عم غريب المليجي، كان البرتقال وقتها أخضر وفي بدايات الموسم، جمعنا منه ما يكفي، وبدأنا نعبئ أكياس السبوع، في كل كيس برتقالة خضراء وثلاث بلحات، الحاجة الوحيدة اللي زعلتني إن ما كانش فيه شمع في السويس».

كان الفدائيون يتبادلون مواقعهم بالترتيب للقدوم من أجل التهنئة واستلام نصيبهم، قالوا لكريمة إنهم يستبشرون خيرًا بصرخات طفلها عندما تشق ليل المدينة، قالوا لها: «صرخة طفل تعني أن هناك حياة قادمة وتقول إن فرج الله قريب».

(6)

بعد أسابيع طويلة نجحت المفاوضات في السماح بدخول المعونات إلى السويس. دخل إلى المدينة أول كيس بُن وأول كيس أرز وأول علبة معجون أسنان. وتم الاتفاق على توزيعها بجدول زمني محدد وكميات محددة خوفًا من العودة إلى الحرب مرّة أخرى.

كان العدو يقوم بطلعات بالرشاشات والمدفعية غيظًا من صمود المدينة، لكن الفدائيين كانوا ثابتين. وصل الغموس، لكن الخبز على وشك أن ينقطع بسبب قرب نفاد السولار. أمر المحافظ بالبحث عن مصادر أخرى للطاقة. بدأ السوايسة في نزع فلنكات السكة الحديد، وقص أشجار بور توفيق الضخمة، والبحث عن الفحم في الأماكن التي تستخدمه. وتم تنظيم مؤسسة لعربات الكارو بقرار من المحافظ، تكون عرباتها المسؤولة عن نقل الأشخاص أو المعدات أو الأسلحة أو التموين بعد أن نفد بنزين السيارات، مع قرار بصرف 2 كيلو تبن لكل حمار كل 3 أيام.

مرت الأيام بطيئة، حتى اليوم الذي استيقظوا فيه على صوت طلقات نار كثيفة. كانت قوات العدو تحتفل ابتهاجًا بصدور قرار انسحابها من المصيدة التي وقعت فيها وعودتها إلى بلادها في يناير 1974.

في فبراير 1974 مُنحت تصاريح السفر لتجار الخضر والفاكهة والخبز واللحوم لتوفير أسباب المعيشة. أعلنت المحافظة التوقف عن توزيع الحصص التموينية تزامنًا مع الإعلان عن بدء عمل المجمعات الاستهلاكية وصرف المواد التموينية لمحلات البقالة. وتم تشغيل عشرين أتوبيسًا على خط السويس القاهرة، والسويس مناطق التهجير في بنها

والقناطر الخيرية. وصلت كتائب من منظمة الشباب مدرب أفرادها على أعمال الحدادة واللحام والتوصيلات الكهربائية لاستعادة العمران. أُعيد افتتاح مكتب الشركة المصرية للأدوية بعد تزويده بثلاث قوافل، كل واحدة مؤلفة من عشر سيارات محملة بالأدوية والمستلزمات الطبية وخمسة آلاف زجاجة دم وألف أنبوبة أكسجين. وتحركت قافلة من وزارة الثقافة تضم الفرقة القومية للفنون الشعبية (ستون راقصًا وراقصة)، والسيرك القومي ليعرض ألعابه للجمهور في الميادين والشوارع، وثلاثة وعشرين من الفنانين التشكيليين لتسجيل بطولات المدينة مع توفير إقامة لهم في قصر ثقافة السويس الذي لم يُصب بأي ضرر. بدأت في اليوم التالي للانسحاب الخدمة التلفونية بين السويس وجميع أنحاء الجمهورية بواسطة فرقة فنية متخصصة أعادت الاتصال، وسجّلت خدمة الترنك مائة مكالمة بين السويس وبقية المحافظات خلال أول خمس ساعات من إعادة الخدمة. ثم تقرّر صرف منحة صمود لكل شخص في المدينة.

تقول كريمة: «منحوا كل شخص عشرة جنيهات وفانلة صوف، لا زلت أستخدمها، وكلما أخرجتها من الدولاب مع بداية الشتاء أقول في سري الله يرحمك يا سادات».

(7)

أجابت السويس عن السؤال الذي شغل جميع أحرار العالم لمدة 101 يوم: هل يستطيع شعب مدينة صغيرة أن يصمد في وجه كل أسلحة الدمار الرهيبة التي وضعها العلم الحديث في أيدي الغزاة؟ أيام مجيدة، ومدينة بطلة غيَّرت في موازين القوى العالمية. وليس في وسعنا إلا أن نذكر بكل الاعتزاز والفخر موقف المرأة المصرية والتنظيمات النسائية اللائي ضمَّدن الجراح، ورعين المقاتلين وعائلات المقاتلين، وأسهمن بالعمل الوطني الشريف في كل المجالات.

من خطاب الرئيس السادات في أكتوبر 1974.

(8)

السويس 1973.

لمحت كريمة وهي تقف أمام منزلها شخصًا يرتدي ملابس عسكرية، ويقف حاملًا قرطاسًا في يده، كان يتجول في كل مكان ثم يعود إلى النقطة نفسها ويقف حائرًا.

توجهت إليه كريمة لتفهم. قال لها إنه قد حصل على قرطاس الطعمية بعد الوقوف في طابور ثلاث ساعات ويفتش منذ ساعتين عن رغيف عيش.

سحبته كريمة من يده وأدخلته منزلها، سخنت له رغيفين تحتفظ بهما، مع قليل من الطرشي، ثم أعدت له الشاي

وحلّته بالسُّكر لا العسل الأسود.

كان ما قدّمته كريمة مع الحصار والظروف التي تعيشها المدينة أقرب إلى احتفالية لم يصدقها الضيف، حتى إنه قرر تقديم كل ما يمتلكه في هذه اللحظة؛ خلع دبلة زواجه الذهبية وقدّمها إليها هديةً مشمولة بعجزه عن تقدير ما قدّمته صاحبة البيت.

نهرته كريمة وأعادت إليه الدبلة، طلبت منه أن يرتديها ولا يخلعها حتى يعود إلى بيته، وقالت: «آديك عرفت السكة لو احتجت أي حاجة».

بعد خمسة عشر عامًا، ظهيرة يوم شتوي، توقفت أمام محل الحاجة كريمة بمنطقة الأربعين سيارة «مرسيدس»، نزل منها رجل وامرأة تحمل علبة شوكولاتة وطفلان يحملان باقتَي ورد، وقفوا جميعًا أمام باب محلها الصغير، قدّمت المرأة والأطفال لها هداياهم، شكرتهم لكنها كانت تنتظر أن تفهم هوية ضيوفها وسبب كرمهم الرقيق. سألها الرجل إن كانت تتذكره، فاعتذرت بخجل. بدأ الإحباط يتسلل إلى ملامح الطفلين والزوجة، بينما تسابق الوقت لتتذكر أي شيء قبل أن تُفسد على ضيوفها لحظةً كان واضحًا أنهم خططوا لها جيدًا.

رفع يده اليسرى ملوحًا بدبلة زواجه الذهبية العريضة،

وقال أنا الضابط فلان.

مر بعض الوقت حتى تذكرته، وقالت: «أنا كنت فاكراك عسكري». فضحكوا.

نقلت كريمة النظر بين ابتسامته وابتسامة طفليه. رجّت قلبها سعادة ما وهي تتأمل أسرة مقاتل ما كانت لتقف في هذا الشارع الضيق تشع بهجة، لولا مدينة صمدت 101 يوم بالروح والدم والصبر وقليل من الشاي والسُّكر.

معرض صور
الفصل الثالث عشر



الحاجة كريمة يس



كريمة يس مع زوجها أمام الكشك الذي كانا يمتلكانه في السويس



اجتماع سيدات الدفاع المدني بالسويس (سامية طلعت، ماجدة طلعت، اليونانية أبوتكيا، كريمة يس، أم بيجو) مع رجال المقاومة



ممرضات السويس حملن أطفالهن بيد وعالجن المصابين بالأخرى



محافظ السويس وقت الحصار يتخذ من بقالة الحاج مصطفى مركزًا لقيادة العمليات

سلاح خط القناة الناعم


الحزب الوطني الديمقراطي

شهادة تقدير

قررت أمانة شباب الحزب الوطني الديمقراطي

شهادة تكريم الحزب الوطني لكريمة يس



مؤلف الكتاب مع كريمة يس أمام محلها الصغير
بالسويس

حظك اليوم

قررت أن أُخصص فصلًا للمغنية «داليدا» والمؤلف والملحن «مروان سعادة»، بصفتهما صنايعية قطعة ألماظ مصرية صافية أسمياها «حلوة يا بلدي»، أقطع خطوات في الكتابة حتى النقطة التي يُفترض أن أشرح فيها أثر هذه الغنوة وقيمتها فأتعثر، هناك أشباح يقظة تختبئ خلف أصوات الكمان تشوِّش على السر. يتوقف العمل ثم تظهر الأغنية مصادفة بعد فترة فتعود الهمة، وعند النقطة نفسها يتكرر العطل.

توقف العمل في هذا الكتاب أكثر من مرة.

«البحث عن الأشخاص والمعلومات مُهلِك». حجتي التي أقدمها لمن يسأل.

أعرف وحدي أنها الهلاوس التي تعطلني. مقاومة الأفكار السلبية مرهقة أكثر من البحث. الأصوات التي تقول: الكتاب سيُزوَّر، النسخ المسربة بي دي إف ستغزو الأون لاين، سيتحول مجهودك إلى فولكلور لا صاحب له، يعيد الآخرون إنتاجه في كل مكان، أخذوا من الجزء الأول كل شيء اسمه قبل قصصه، ثم إن الجوائز والمسابقات تحتفي بالروايات، يمكن الاستفادة من الوقت والمجهود في أمور أخرى أنت

تعرفها.

أفكار تبدأ قوية، تزيح الملفات والتسجيلات الصوتية ونسخ الصحف القديمة والكتب والأرشيف جانبًا، ثم يحدث ما يجعل الأفكار تبدو ضحلة ساذجة: مكافآت صغيرة متناثرة تطل من ندوة عن الكتاب في مدرسة إعدادي، شهادة عابرة من أشخاص تؤمن بقيمتهم، أو صاحب محل مشغولات زجاجية لا يعرفك شخصيًّا ويقوده الحوار لأن يحكي لك قصة واحد من صنايعية الجزء الأول.. بالضبط كما كتبتها.

كل فترة يظهر للواحد الأثر متجسدًا يسير على قدمين، يلوح ويضحك، تعود المهمة فاتنة، وترجع الصعلكة بين ممرات قطعها الصنايعية ساحرة بلا تفسير كالصعلكة بين ممرات سيدنا الحسين.

لم أفكر أصلًا في جزء ثانٍ من «صنايعية مصر»، لكن الرسائل لم تتوقف، المفاجآت السارة التي يعدك بها «حظك اليوم»، يدلك أحدهم على عائلة شخص يستحق الكتابة تذهب متكاسلًا فيظهر لك الطريق لحكاية أقوى تطيِّر النوم، تطلب صورة لواحد من الصنايعية فتأتيك واحدة تجمعه مع آخر أهم منه يناديك، تفقد الأمل فيجدد نفسه في عدد قديم من مجلة مجهولة في ركام سور الأزبكية، جملة عابرة في

فيلم قديم تلهمك البحث عن صنايعي يختبئ خلفها، يقين ما يفيض بالإغواء يتشكل بمرور الوقت.. هذا بلد يخبئ من قصة حياته أضعاف ما أفصح عنه.

حاولت الهروب قدر استطاعتي، أصدرت أكثر من كتاب خلال فترة العمل، لكن شعورًا ما بالتقصير كان يفسد الفرحة كل مرة، قلت لنفسي لتنتهِ ما بدأت، هذا عمل لن يتوقف عن مطاردتك.

كانت العودة في كل مرة مرتبطة بقاعدة عمل ألزمت بها نفسي، أن يكون هذا الكتاب صانعًا للأرشيف أكثر من مجرد مستخدم له، الصدارة للشهادات الحية لعائلات أصحاب الأثر، ثم البحث في الأرشيف عن خبيئة تلو الأخرى. أعيد تقييم القاعدة بعد انتهاء العمل، من الصعب أن يرضى كاتب عن إنتاجه، تظهر الهلاوس مرة أخرى، أقاومها بمراجعة كل سطر للتأكد من أنني لم أدخر جهدًا، الأمر الوحيد الذي أمتلك أمانة تقييمه.

مع البروفة الأخيرة وصل الغلاف.

تغيرت نظرتي إلى الكتاب، كان مرهقًا أن تحافظ على انطباع واحد بطول 400 صفحة تتنقل بينها ليل نهار لمراجعتها، لكن عندما تراص الصنايعية إلى جوار بعضهم في رقعة ضيقة حضرت رهبة ما.

إلى جوار زوجتي أمام الغلاف، نتأمل وجوه الصنايعية الذين تركوا أثرًا عظيمًا في وجدان البلد وشخصيته وطريقة حياة سكانه، وجوهًا لناس معجزتهم أنهم «أخلصوا»، قدم كل واحد منتجًا مشمولًا بالحب والإتقان وأناقة منح البطولة كاملة لما أنجزوه، أخذوا بيد الناس وانصرفوا تاركين صورًا شخصية للذكرى، لا شيء فيها سوى ابتسامة خفيفة تقول إن الرضا التَهم المشقة والألم.

دققت زوجتي وقالت: «حلو الغلاف». قلت: «حلوة يا بلدي».

عمر طاهر

الشيخ زايد

ديسمبر 2021

مصادر

مقابلات وحوارات شخصية:

- عائلة محمود الطاهري (مصدر قصة الصنايعي محمود الطاهري).
- المهندس عادل محمد غانم (مصدر قصة الصنايعي محمد غانم).
- المهندس علي علي شرش (مصدر قصة الصنايعية آل شرش).
- الأستاذ عبد العزيز علي (مصدر قصة صنايعية الشيبسي).
- الأستاذ عمرو جزارين (مصدر قصة الصنايعي عادل جزارين).
- الدكتورة ناهد يوسف (مصدر قصة صنايعية الدواء).
- الدكتور مراد ميشيل باخوم (مصدر قصة الصنايعي ميشيل باخوم).
- الدكتور أحمد محرم أحمد (مصدر قصة الصنايعي أحمد محرم).

- الأستاذ عبد المجيد عبد الحميد عبد الحق (مصدر قصة الصنايعي عبد الحميد عبد الحق).

- الأستاذ أحمد كامل البوهي (مصدر قصة الصنايعي كامل البوهي).

- الدكتورة ميرفت صلاح مراد (مصدر قصة الصنايعية أمينة الصاوي).

- الدكتورة أميرة قدري (مصدر قصة الصنايعية لفتيَّة السبع).

- المخرج الإذاعي ضياء عبد البديع القمحاوي (مصدر قصة الصنايعي عبد البديع القمحاوي).

- الحاجة كريمة يس (مصدر قصة صنايعية السويس).

- المؤرخ حسين العشي (مصدر قصة صنايعية السويس).

أخبار وتقارير صحفية:

- أرشيف أعداد جريدة الأهرام، قسم المعلومات.

- المكتبة الميكروفيلمية، مؤسسة الأهرام.

- أرشيف مؤسسة دار الهلال.

تحقيقات وحوارات صحفية:

• «السينما الهندية: صناعة هزمت «هوليوود» في معقلها ومحاولات لظهور «بديع صبحي» جديد»، المصري اليوم، محمد مسلم.

• «الشيخ محمود الحصري خادم القرآن الكريم وسيد أحكامه بشهادة الشعراوي»، الأهرام، حسني كمال.

• «صناعة البيرة المصرية تشرب نخب تاريخها العريق»، موقع «AL-MONITOR»، عمر فودة.

• «العبقري الذي لا يعرفه أحد»، حوار مع الدكتور سيد كُريم، مجلة الشباب، هشام زكي محمود.

• «قدمت مشروعًا لتطوير القاهرة فوضعوني تحت الحراسة»، حوار مع الدكتور سيد كريم، مجلة نصف الدنيا، صافيناز الطرابيشي.

• «قيادي عمالي بـ«شوربجي»: المصنع يعمل بـ50% من طاقته.. والإدارة تعتمد على إنتاج خارجي»، المصري اليوم، محمد البحراوي.

• «ليست نكتة أبدًا.. بل سقطة سياسية»، جريدة الشرق الأوسط، سامي شرف وزير شؤون رئاسة الجمهورية الأسبق.

• «شاه إيران قال برافو لهذه الشركة المصرية»، الأخبار.

- «17 يونيو 1981.. فتنة طائفية في الزاوية الحمراء»، اليوم السابع، سعيد الشحات.

مواقع إلكترونية:

- موقع «Everybodywiki» - «Panos Zeritis» (بانوس زيريتس).
- موقع الهيئة العامة للاستعلامات.
- موقع دار الإفتاء المصرية.
- مواقع شركات: «النيل للأدوية»، «مصر للمستحضرات الطبية»، «القاهرة للأدوية والصناعات الكيماوية»، «الأهرام لصناعة الورق».

كتب:

- «السينما والتليفزيون وحديث الذكريات»، محمد كمال مبارك.
- «تجربة للتاريخ - شركة النصر للتصدير والاستيراد»، الدكتور باسم عادل.
- «تعليم القراءة للمبتدئين»، الدكتور محمد محمود رضوان.

- «خفايا حصار السويس»، حسين العشي.
- «علل ودواء»، الدكتورة ناهد يوسف.
- «مذكرات عبد اللطيف البغدادي»، عبد اللطيف البغدادي
- «دندنة»، سناء البيسي..

شكر خاص

لعائلات وأبناء وأحفاد أبطال هذا الكتاب، على ما قدموه من تعاون دعم العمل بالمادة والصورة والأرشيف الصحفي. شكرًا لتحملهم «رزالة» المؤلف ومطاردته المزعجة لهم.

للأستاذة نهلة رحمي - المكتبة الميكروفيلمية بمؤسسة الأهرام. شكرًا على المجهود الصادق اليقظ وتحملها لشطحات البحث. يدين هذا الكتاب لإخلاصها بالكثير.

للعاملين بقسم المعلومات بمؤسسة الأهرام على الرحلات التي خاضوها في غياهب أرشيف المؤسسة بحثًا عن ملفات لم يسبق لأحد أن فتحها منذ عشرات السنوات.

محبة كبيرة

الدكتور إبراهيم صلاح التجاني

كريم أنور

الدكتور بدوي خليفة

روح الصديق محسن عادل

هند رضوان

بدأ العمل في هذا الكتاب في فبراير 2018.

شكرًا مقدَّمًا على أي تعليقات أو تصويبات أو إضافات، قد يستقبلها المؤلف على: omertaher@yahoo.com